الجنية الساحرة

بيت اللحيوى ٢

رواية

م.عبد الله عبد المنعم

بطاقة الكتاب

الجنية الساحرة
بيت اللحيوي ٢
م. عبد الله عبد المنعم
رواية

رقم الإيداع : ٣١٠٥٤ / ٢٠٢٥

الترقيم الدولي

٣ - ٤٨١٧ - ٩٥ - ٩٧٧ - ٩٧٨

الطبعة الأولى

عدد الصفحات: ٢١٤

تاريخ الإصدار: نوفمبر ٢٠٢٥

الإخراج الفني و المراجعة اللغوية

دار وادي عبقر للطباعة و النشر

رئيس مجلس الإدارة

جابر الزهيري

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف فقط، ولا يحق لأى دار نشر طبع ونشر وتوزيع الكتاب إلا بموافقة كتابية من الكاتب

دار وادي عبقر

للطباعة والنشر والتوزيع

بيت الإبداع.. وموطن العباقرة

wadiabkr.wixsite.com /wadiabkr

wadiabkar@gmail.com

www.facebook / wadiabkar

www.youtube.com / wadiabkr

٠١٥٥٥٥١٧٤٢٦

٠١١٤١٧٢٨٦٢٥

٠١٢٢١٤٨١٨٥٦

٠١٠٩٧١٥٤٣٣٢

٠٨٦٢١٦٤٤٢٨

الجنية الساحرة

بيت اللحيوى ٢

رواية

م. عبد الله عبد المنعم

الإهداء

إلى عشقي الأكبر، إن لم يكن الوحيد

الريف المصري بكل ما فيه، الريف الذي خرج رجالا، علامات واضحة في صفحات مصر والأمة كلها.

أهدي كتابي وكتبي ....

مهندس عبد الله عبد المنعم

ت/ ٠١٢٢٣٣١١٧٥٢

(١)

عادتِ الحياةُ إلى مجلسِ الجُمَّيزةِ، تلكَ الجلسةِ التي أَدْمَنَها أصحابُها، بِنَسَماتِها الجميلةِ وعبيرِها العليلِ. النسماتُ التي تُداعِبُ الرُّوحَ، وتُحَرِّكُ الشُّجونَ، وتُنعِشُ النَّفسَ، وتأخذُكَ إلى عالَمٍ جميلٍ من المُتْعَةِ والصَّفاءِ النَّفْسي. نسماتُ الصيفِ وهي تَمَسُّ صفحةَ مياهِ التُّرعةِ، وتأتي إليهم رَطْبَةً تُنْشِي النُّفوسَ وتُحيي القلوبَ.

عادتْ قَعْدةُ العَصاري، وعادتِ السَّهراتُ من بعدِ صلاةِ العِشاءِ إلى ما بعدَ مُنتصفِ الليلِ، وأحيانًا إلى صلاةِ الفجرِ. عادتِ الصُّحبةُ الجميلةُ لسابقِ عهدِها، مع موسيقى حفيفِ أوراقِ الجُمَّيزةِ والتُّوتةِ تَعْزِفُ سِمفونيَّةً جميلةً صَنَعَتْها الطَّبيعةُ، ورَقَصَتْ عليها القلوبُ، وعادتِ الرُّوحُ لِجُلسائِها، فقد كانوا بدونِها شِبْهَ أمواتٍ، وعادتْ لهم رُوحُهم بعودتِها؛ إنَّها عودةُ الرُّوحِ بعدَ الإقامةِ الجبريةِ التي فَرَضَتْها عليهم الجِنِّيَّةُ اللعينةُ ساكِنَةُ البئرِ... ما أجملَ الصيفَ ونسماتِه تحتَ الجُمَّيزةِ والتُّوتةِ، ما أجملَ الصُّحبةَ وليالي الصيفِ الممتدَّةَ، إنَّها الحياةُ التي عادتْ بعدَ أن افتقدوا حتى الأملَ في عودتِها، بعدَ حريقِ القريةِ ورحيلِ

زينب زوجةِ صالحِ اللَّحيوي، وقد مرَّ عامان على موتِ زينب، حبيبتِه وزوجتِه.

***

عادَ الجميعُ، لكنَّ صالحًا لم يَعُدْ؛ فبعدَ موتِ زوجتِه أصبحَ شخصًا آخر؛ ساهمًا، شارِدَ الفكرِ، كثيرَ الصَّمْتِ، بعدَ أن كانَت حكايَّاته لا تنتهي، وانتهتْ من قاموسِه القَفَشاتُ والإفيهاتُ الضاحكةُ؛ فقد كانت زينب بالنسبةِ له كلَّ شيءٍ: حبيبتَه، وزوجتَه، وأختَه، وأمَّه، وابنتَه. كانت حياتَه نفسَها، والآن أصبحَ وحيدًا، تحوَّلَ إلى شخصٍ آخرَ هو نفسُه لا يعرفُه؛ شخصٍ ينقصُه شيءٌ مهمٌّ ولا يعرفُ ما هو هذا الشيء، ربما كانت الحياةَ نفسَها، هناكَ شيءٌ سقطَ منه ولا يعرفُه ليبحثَ عنه، إنَّه يعيشُ لكن بلا قلبٍ، بلا حُبٍّ للحياةِ. لقد سمَّى ابنتَه على اسمِها ليظلَّ يُرَدِّدُ اسمَها دائمًا، لها ولابنتِها، ولكن ها هو يناديه لابنتِه فقط بلغتِ الآنَ أربعَ سنواتٍ، وقد ورثَتْ عن أمِّها شكلَها؛ كانت صورةً طبقَ الأصلِ من أمِّها.

وأصبحت زوجةُ خالِها هي أمَّها وكلَّ شيءٍ لها؛ فهي تعيشُ مع زوجةِ خالِها التي أحبَّتْها كابنتِها، وأصبحتِ الطفلةُ تُنادِيها "أُمِّي" لأنَّها لا تتذكَّرُ أمَّها، فقد كانت صغيرةً ساعةَ موتِها.

ونشأتْ زينب مع ابنةِ خالِها فاطمة، وكذلك نشأ ابنُه إبراهيم مع صالح ابنِ خالِه، فهم أصدقاءُ وأُخوةٌ، وإنْ يعيشِ الأولادُ عندَ خالِهم فهذا شيءٌ عاديٌّ ولا يمثِّلُ عبئًا على صالحٍ، فالخالُ والدٌ، وهو لا يستطيعُ خدمتَهم، وهم أيضًا يعيشون مع والدِهم، فالبيتانِ ملتصقانِ وكأنَّهما بيتٌ واحدٌ، ودائمًا وجبةُ الغداءِ والعشاءِ تضمُّهم معًا صالحٌ وأولادُه، لكن حياتُهم عندَ خالِهم.

فصالحٌ أقرَّ بأنَّه لا يستطيعُ خدمةَ أولادِه، وقد احتفظَ بخادمةِ زوجتِه لطبخِ الطعامِ وأعمالِ البيتِ؛ فهي تعرفُ كلَّ الأطعمةِ التي يُحبُّها صالحٌ ويُحبُّها الأولادُ، وهي من ريحةِ زينب وتطبخُ الطعامَ بطريقتِها، وصالحٌ لا يعرفُ حتى عملَ الشاي لنفسِه، ورفضَ كلَّ محاولاتِ العُمدةِ لتزويجِه؛ رفضَ صالحٌ فكرةَ أن تحلَّ امرأةٌ أخرى مكانَ زينب مهما كان جمالُها وحسبُها ونسبُها، وقال: "زينب بصمةٌ واحدةٌ لا مثيلَ لها". وباءتْ كلُّ محاولاتِ العُمدةِ بالفشل، وإنْ كان العُمدةُ يحسُّ بسعادةٍ داخليةٍ بهذا الرفضِ؛ لأنَّه يعني حبَّ صالحٍ لأختِه رغمَ وفاتِها، وقال له: أنتَ في حاجةٍ لمَن يخدمُك ويخدمُ أولادَك، ولا يمكن أن تكونَ حياتُك بلا زوجةٍ، بلا أُنْسٍ وأَنِيسٍ وجليسٍ؛ الحياةُ ليست طبيخًا فقط، لكنَّه رفضَ أن تحلَّ محلَّها زوجةٌ أخرى، أو أن تنامَ بجوارِه

امرأةٌ غيرُها. وهذا ما جعل خالَهم إبراهيم العُمدة يطلبُ من زوجتِه تحمُّلَ حملِ الأولادِ عن والدِهم، فحملتْه بحبٍّ وسعادةٍ.

***

لم يَتَوانَ صالحٌ يومًا عن خدمةِ الناسِ: أبناءِ قريتِه، والقُرى المجاورةِ، وأيِّ شخصٍ يطلبُ مساعدتَه؛ فكان سبَّاقًا لخدمةِ الجميعِ، وكما يقولون: "يَجري لعملِ الخيرِ بالمِشوار". ومن بعدِ وفاةِ زوجتِه، طوالَ العامينِ، استطاعَ أن يُشفيَ ناسًا كثيرةً من مسِّ الجِنِّ، وكأنَّه ينتقمُ من تلكَ الجِنِّيَّةِ التي كانت سببًا في وفاةِ زوجتِه؛ فهناكَ ثأرٌ يُشعِلُ صدرَه لم ينتهِ بعد، فكان في كلِّ مرةٍ يستدعيه أحدٌ يُخفُّ إليه بسرعةٍ لإخراجِ ذلكَ الجانِّ، وكأنَّها تصفيةُ حسابٍ مع كلِّ الجانِّ، وكلُّ هذا لم يُرْوِ ظمأَه من هذه المخلوقاتِ السُّفليَّةِ الشَّريرةِ الكافرةِ التي تركتْ عالَمَها، وجاءتْ إلى عالَمِ البشرِ لتعبثَ به وتنتقمَ منه.

***

ومَحروسُ الضَّبْعُ، الذي كان بالأمسِ دجَّالًا، قد تحوَّلَ وأصبحَ الآن يعملُ الخيرَ مثلَ صالحٍ أفندي؛ يَفُكُّ المربوطَ ويَصرِفُ الجانَّ، وكلَّ ما يُطلَبُ منه يُلَبِّيه، وإذا وَقَفَتْ حالةٌ أمامَه أتى سريعًا إلى صالحِ اللَّحيوي ليستنجِدَ به، فيذهبُ صالحٌ معه ليُعالِجَ

الحالةَ. وأصبحَ محروسُ الضَّبْعِ لا يطلُبُ مُقابلًا من الناسِ، بل كانتِ الناسُ تُعطِيه من نفسِها مالًا أو هدايا؛ كان البعضُ يُعطيه طعامًا مثلَ قوالبِ الزُّبدِ البلدي، ومن يُعطيه غِلَالًا، كلٌّ حسبَ مقدرتِه، وكان يقبلُ كلَّ شيءٍ، فقد كان لا يُجيدُ عملًا آخرَ سوى هذا العملِ.

وأحبَّ محروسُ الضَّبْعِ العيشَ الحلالَ، وكانتْ مقولتُه الجديدةُ: "الحلالُ طعمُه حلوٌ قوي". وكان دائمَ الزيارةِ لصالحٍ أفندي، وتحدَّثَ محروسُ الضَّبْعُ كثيرًا مع صالحِ اللَّحيوي عن ضرورةِ زواجِه، وأنَّه عليه أن يتزوَّجَ ليستطيعَ تربيةَ أولادِه وضَمَّهم حولَه وفي حِضنِه، لكنَّ صالحًا ما زال لم يستوعبْ فكرةَ أن تحلَّ امرأةٌ أخرى مكانَ زينب، وكان يقول: "أولادي معي وفي حِضني، ودائمًا نحن معًا لا نتركُ بعضَنا إلَّا وقتَ النومِ فقط".

***

جلسَ صالحٌ ساعةَ العَصاري مُستندًا إلى الجُمَّيزةِ، ونَسَماتُ الصيفِ تأتيهِ رَطْبَةً عليلةً، فرآهُ إبراهيمُ ابنُه، فأتى إليه مُسرعًا، ومعه صالحُ ابنُ خالِه الذي لا يُفارِقُه؛ فهما معًا في نفسِ المدرسةِ، ونفسِ الفصلِ، بل ونفسِ "الديسك". جلسَ الطفلانِ بجوارِه، ودارَ بينهم الحوارُ عن أحوالِهم بعدَ بدايةِ الإجازةِ،

وكيف يقضونَ وقتَهم، وهل يقرؤون أيَّ رواياتٍ أو كتبٍ من التي في مكتبتِه، وهي أصلًا مكتبةُ والدِ صالحٍ، الشيخِ جعفر اللَّحيوي، وكان بها رفٌّ كاملٌ مُنعزلٌ، كلُّه كتبٌ عن الجانِّ، فكان جوابُهما أنَّ الكُرَةَ تأخذُ كلَّ يومِهم.

نظرَ صالحٌ إلى داخلِ بيتِه؛ فالجُمَّيزةُ أمامَ بابِ البيتِ مباشرةً، والبابُ مفتوحٌ، وما زالتِ الشمسُ تُنيرُ الكونَ، ممَّا يجعلُه يُشاهِدُ داخلَ البيتِ بوضوحٍ، وتذكَّرَ زينب، وكانتْ تملأُ البيتَ حركةً في هذا الوقتِ، وقتَ العَصاري، تأتيه بالقهوةِ من صنعِ يديها. ولكن قطعَ هذا الشرودَ حركةٌ مفاجئةٌ في البيتِ، وإذا به يرى شيئًا غريبًا ومُفزعًا، ما هذا الذي أراه؟! إنَّه يرى شخصًا يمرُّ أمامَه داخلَ البيتِ من جهةِ اليمينِ إلى جهةِ اليسارِ! فَزَاعَه ما رأى، وسألَ نفسَه: من هذا؟! ومَن يكون؟!.

أحسَّ بشيءٍ غيرِ طبيعيٍّ يجتاحُ بدنَه؛ إنَّها رَعشةٌ خفيفةٌ. فنظرَ إلى ابنِه إبراهيم وصالحِ ابنِ خالِه، فوجدهما طبيعيَّيْن، ولم يحدثْ أيُّ تغيُّرٍ عليهما، ممَّا يعني أنَّهما لم يَرَيا شيئًا. فسألَ ابنَه إبراهيم: هو في حدٌّ في البيت؟.

– لا، خالتي أُمُّ جُمعة عملتِ الأكلَ ورُوحتْ تأكُل أولادَها.

قامَ صالحٌ ودخلَ البيتَ يبحثُ عن الشخصِ الذي رآه، ولفَّ البيتَ مرةً واثنتين وثلاثًا، فلم يجدْ شيئًا، فعادَ أدراجَه إلى الجُمَّيزةِ وجلسَ في مكانِه وهو شارِدُ الفكرِ. ولم يَدُمْ هذا الشرودُ طويلًا؛ فما إن نظرَ تجاهَ البيتِ مرةً أخرى، حتى رأى نفسَ الشخصِ يُعيدُ الكَرَّةَ! والغريبُ أنَّه يُعيدُها من نفسِ الاتجاهِ؛ من اليمينِ إلى اليسارِ! فدهشَ صالحٌ: ما هذا؟! وكيف عادَ من نفسِ الاتجاهِ؟! الطبيعيُّ أنْ يعودَ من اليسارِ إلى اليمينِ، فكيف عادَ إلى اليمينِ أصلًا ليبدأَ الحركةَ من اليمينِ ثانيةً؟! وأين كان يختفي؟ لقد بحثتُ في البيتِ كلِّه! من هذا، وكيف حدث هذا؟! وكيف عادَ إلى اليمينِ دونَ أن أراه؟! أَيُوجَدُ ممرٌّ شفافٌ في بيتي؟!.

فقامَ ودخلَ يبحثُ في البيتِ مرةً ثانيةً، ولكن بلا جدوى. وأحسَّ أنَّ قلبَه قد قُبِضَ، وأنَّ هناكَ شيئًا ما، وعادَ إلى مجلسِه ينتظرُ الرِّفاقَ، وعقلُه في الشخصِ الذي ظهرَ في بيتِه... ماذا تُخفي له الأيامُ؟ هل ما يراه حقيقةٌ أم خيالٌ؟ هل هناكَ قصةٌ جديدةٌ ستظهرُ على الساحةِ، أم أنَّه مُتْعَبٌ وكلُّها خيالاتٌ؟.

لكن أهمُّ شيءٍ أنْ لا يَبِيتَ أولادُه في الدارِ، حتى لا يروا شيئًا أو يحدثَ لهم شيءٌ؛ لكنَّه لم يرَ مثلَ هذا في بيتِه من قبل؛ لا أشباحَ، ولا أرواحَ، ولا خيالاتَ في بيتِه. إنَّ بيتَه نظيفٌ وطاهرٌ.

ماذا يحدثُ الآن؟ وما الجديدُ؟ لقد أصبحَ عقلُه في وادٍ آخرَ، وأطلَقَ العِنانَ للفكرِ، وانطلقتِ التكهُّناتُ بعقلِه، وأصبحَ يعيشُ مع نفسِه، ولم يُخْرِجْه من أفكارِه إلَّا صديقُه العُمدة، وقد أقبلَ إليه وخلفَه الخفيرُ مُحَيْسِن لتبدأَ السهرةُ.

(٢)

سَمِعَ صالِحٌ دَقّاتٍ مُتَوالِيَةً وَسَريعَةً عَلَى بابِ غُرفَةِ نَومِهِ، دَقّاتٍ مَلهوفَةً وَقَوِيَّةً وَكَأَنَّ أَحَدًا يَستَغيثُ، هَبَّ واقِفًا مَفزوعًا مِن نَومِهِ. الغُرفَةُ مُظلِمَةٌ، تَحَسَّسَ عُلبَةَ الكِبريتِ عَلَى الكوميدينُو المُلاصِقِ لِلسَّريرِ وَأَشعَلَ عُودًا مِنهُ، وَالطَّرقُ ما زالَ مُستَمِرًّا بِلهفَةٍ.

في خِفَّةٍ أَشعَلَ شَمعَةً كانَت عَلَى الكوميدينُو لِيَرَى الطَّريقَ إِلَى البابِ، وَأَسرَعَ لِفَتحِهِ لِإيقافِ هَذا الطَّرقِ المُزعِجِ وَكَأَنَّها طَرقاتُ بُوليس. وَفَتَحَ البابَ بِسُرعَةٍ، لَكِنَّهُ لَم يَجِد أَحَدًا. فَالكُلوبُ مُعَلَّقٌ بِسَقفِ فِناءِ البَيتِ وَيُضِيءُ البَيتَ كُلَّهُ. فَسَأَلَ نَفسَهُ: أَلَا تَخافُ الأَشباحُ النُّورَ؟.

لكن لا يوجد أحد.. الوقتُ قد اقتربَ من الفجر، هزَّ صالحٌ رأسَه، موافقًا ظنونَه أن هناك أشياءَ غريبةً بدأت تحدث. منذ أن رأى مَن يسير في البيت، وأغلق الباب، وعاد ليُكمل نومَه، وهو يُحدِّث نفسَه: لا يوجد أحدٌ سوايَ في البيت، وهذا منذ أكثرَ من عامين، ولم يحدث أيُّ شيء... ما الجديد إذًا؟! اللهمَّ سترك. قام بتثبيت الشمعة على الكمودينو، ولم يُطفئها، تركها لتُنير له الغرفة. يبدو أن الأشباحَ لا تخاف النور، فالكلوب يُنير فناءَ البيت، وجاء مَن يطرق الباب عليه، فربما تخاف النار، وها هي

الشمعة تُخرج لهبَ النار. وقال إنَّه لا يخاف هذه الحركات. فهو خبيرٌ بحركاتِ الجان، ويصرفُه من جسدِ البشر، ويحرِّرهم من احتلالِه لبدنهم، بل ويستطيعُ حرقَهم أيضًا، فهو لا يخافُ هذه الأشباحَ التي تختفي خلف الأبواب، أو تتحدَّث بلسان البشر، وتختفي في أبدانهم، فكلُّها حركاتٌ خائبة. لذلك عاد بسهولةٍ إلى نومٍ عميق، ولن يرهبه هذا الأسلوب، وفجأة، عاد صوت الطرقاتُ على الباب بنفس الطريقة، وبنفس القوة. فقام مفزوعًا مرةً أُخرى، وبجواره الشمعةُ مضيئة على الكمودينو، فالتفتَ إليها وهو نائم، ليأخذها ويقومَ لينظرَ من خلف الباب، لعله يجد شيئًا هذه المرة؛ لكنه، ما إن التفتَ إلى الشمعة، حتى تسمرَّ وتجمَّدَ الدمُ في عروقه، فوجدَ ما لا يمكن تخيّله مهما بلغَ جموحُ الخيال؛ شخصٌ ممدَّدٌ بجواره، شخصٌ ينامُ بجواره لكنَّه لا ينامُ على السرير، إنَّه ينامُ على الهواء، موازٍ وملاصقٌ للسرير وفي مستواه. احتبَسَ صوتُه فلم يستطعِ الصراخَ أو حتى النطقَ بأيِّ حرف، وكأنَّه قد شُلَّ، وكان الشخصُ ينظرُ إليه وعلى وجهِه ملامحُ الكُره والاستعدادِ للانقضاض عليه؛ لكن صالح لم يستطع حتى أن يقومَ من مكانه، وكأنَّه مُكَبَّلٌ بالسرير، وراح ينظرُ إليه

في رعب: هل أحلمُ وأنا صاحٍ؟ وهل الكابوسُ يأتي في اليقظة؟ وهل الشبحُ يظهرُ هكذا؟.

وتجمّد الدم في عروقه، فوجد ما لا يمكن تخيّله مهما كان جموح الخيال، شخص ممدّد بجواره... شخص ينام بجانبه، لكنه لا ينام على السرير! إنه ينام في الهواء، موازيًا وملاصقًا للسرير، وفي مستواه تمامًا، احتبس صوته فلم يستطع الصراخ أو حتى النطق بحرف، وكأنه قد شُلّ. وكان الشخص ينظر إليه، وعلى وجهه ملامح الكره، والاستعداد للانقضاض عليه. لكن صالح لم يستطع حتى أن يقوم من مكانه، وكأنه مكبّل بالسرير. راح ينظر إليه في رعب: هل أحلم وأنا صاحٍ؟ هل الكابوس يأتي في اليقظة؟ وهل الشبح يظهر هكذا؟ وجه لوجه، وكانت الشمعة مضاءة... فكل ما عرفناه عن الأشباح، وأنها تخاف النور، اتضح أنه خطأ. حاول أن يقوم، فهو إن لم ينهض وينجُ بنفسه سيموت رعبًا.

إن هذا الشيء جاء في شكل آدمي، ليس في شكله الأصلي، ورغم ذلك أرعبه. جمع كل قواه، وهبّ واقفًا وهو يصيح: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!

قرأ آية الكرسي... فاختفى الشبح، وخرج صالح يركض خارج الغرفة، بل وخارج البيت كله، إلى مجلس الجميزة ليحتمي بها ويأخذ أنفاسه، أسند ظهره للجميزة وتنفس الصعداء، وأطلق العنان لعقله، فلا كنترول عليه بعد ما رأى، وأصبحت كل الاحتمالات واردة، وضع رأسه على كفيه وغاص في حزن مما حدث، ومما قد يحدث. كان الخفير محيسن واقفًا أمام بيت العمدة لحمايته، فرأى صالح خارجًا إلى الجميزة، فذهب إليه مسرعًا وسأله بعفوية: إنت مش جايلك نوم يا صالح أفندي ليه؟ أكيد من الحر... تطلب حاجة؟

– آه، الحر شديد، مفيش نوم... متشكر يا محيسن.

– تشرب شاي؟ أنا عامل راكية شاي أهو.

– ماشي يا محيسن.

نادَى محيسن على الخفير شعلان، الذي معه في وردية الحراسة، وطلب منه كوب شاي بسرعة لصالح أفندي.

***

قطع أذان الفجر صمت القرية وشرود صالح اللحيوي. خرج العمدة من بيته لصلاة الفجر، فأذهله جلوس صالح في هذا الوقت تحت الجميزة، ذهب إليه وسأله عن سبب جلوسه، فقال

له: بعض الأرق. لكن العمدة رفض هذا الرد وقال له إنه كان ينام أثناء السهرة أمس، وأضاف: أنا أعرفك يا صالح، ما الذي أيقظك من نومك؟ نظراتك تقول أن هناك كارثة. فهز رأسه موافقًا، وقال له: سأقول لك كل شيء، هيا إلى صلاة الفجر أولًا.

***

قصَّ صالح كل شيء على صديقه؛ الشبح الذي ظهر له مرتين وهو يسير داخل البيت من اتجاه واحد، وأثناء جلوسه بجوار الجميزة، ومن يطرق عليه الباب، وعندما يفتحه لا يجد أحدًا، ثم الكارثة الكبرى الشبح الذي وجده نائمًا بجواره على السرير، بل وفي الهواء.

أحس العمدة أنهم مقبلون على كارثة مثل كارثة ساكنة البئر، والجديد أن الكارثة أتت هذه المرة إلى داخل البيت بعد أن كانت بعيدة عنهم عند البئر، كانت الجنية كبيرها أن تسير في الشوارع، أما الآن، فأشباح تنام بجوارنا على السرير، شعر أن هناك أيامًا صعبة آتية لا محالة.

قال صالح: إن ابنه إبراهيم لا يجب أن يأتي إلى البيت، خوفًا عليه وعلى صالح ابن خاله، وعلى الطفلة الصغيرة. فقال العمدة: عليه أن يأتي لينام معي في المضيفة هذه الليلة.

المضيفة مليئة بالكنب، والجو صيف، ولا حاجة للأغطية، وإن حصيرها الصيفي واسع كما يقولون، أو أتي أنا وأنام عندك في بيتك، فلا تنم وحدك هذه الليلة. فوافقه، وذهبا إلى المضيفة ليناما.

***

دخلا المضيفة، وهي المخصصة لإدارة شؤون القرية ومقابلة أهلها وغيرهم، واستقل كلٌّ منهما كنبة من الكنب الكثيرة بها. فتح العمدة الشبابيك من أجل نسمة هواء الصباح المارة على صفحة ماء الترعة، ووقف محيسن وشعلان على الباب من الخارج.

سرعان ما دخلا في النوم لما بهما من تعب، وفجأة، سمعا صوت طرقات سريعة وقوية ومتلاحقة على الباب، طرقات يعرفها صالح جيدًا، وسمعها الاثنان، وليس صالح وحده، قاما مذعورين من الصوت، واعتدلا جلوسًا، ونظرا تجاه الباب؛ لكن المفاجأة أن شخصًا خرج من الحائط الأيسر للغرفة، وقطع الغرفة سيرًا حتى وصل إلى الجانب المقابل، ثم دخل في الحائط الآخر واختفى بداخله. نظر كلٌّ منهما إلى الآخر، وابتسم صالح ابتسامة بلهاء هزلية، وكأنه يسخر مما يحدث؛ أما إبراهيم فقد

فغر فاه، غير مصدق لما رأى، وكأن الأمر حلم كئيب أو كابوس لم يمر به في حياته.

قال إبراهيم: ما هذا يا صالح؟! هل ما خرج من الحائط ودخل الحائط المقابل حقيقي؟.

– آه، حقيقي. لكن إذا كان هذا الشبح يتلاعب بنا، فالحل الوحيد أن نغمض أعيننا وننام، وغدًا نتشاور.

استغرب العمدة من رد صالح ولا مبالاته، لكنه همس لنفسه أنه رأى من قبل ما هو أشد مما رآه النائم بجواره، وأن النوم الآن أفضل.

(٣)

انطلقت الزغاريدُ من بيت العمدة، لتقطع سكونَ القرية وهدوءَها، وتبعها التهليلُ والتكبيرُ، لتعلن السعادةَ والفرحةَ، وأُطلقت الأعيرةُ الناريةُ من بنادق الغفر في الهواء، تعبيرًا عن الفرحة. تسابق الجميع لإعلان البهجة، فقد رزق اللهُ العمدةَ بتوأمٍ من الذكور، وهي حالةٌ لم تحدث في القرية من قبل، وربما وقعت في الناحية كلها مرةً أو مرتين، وكانتا ولدًا وبنتًا أو بنتين.

وكان الجميع يقول: إن العمدة قد أكرمه اللهُ بالتوأم؛ لأنه رجلٌ سخيٌّ يخاف الله. وكانت العبارةُ الدائمةُ على ألسنتهم: ده راجل بتاع ربنا فهو دائمًا يطعم الجائع، ويكسو العريان، ويقف مع الفقير. ولذلك يقف مع القرية كلها، فهي فقيرةٌ بأسرها، فهو يعطي كما أعطاه الله، ولا يبخل على أحد، والكل يشهد له بذلك. والكل يعرف رأيه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، فيقول: ليس معناها أن تتحدث عن النعمة لفظًا فقط، فتقول: أعطاني الله وتكتفي بـ الحمد لله، بل أن تتحدث بنعمة ربك أي أن تتبرع منها، أي تعطي من نفس نوع النعمة، لتجعل الآخر يذوق حلاوة نعمتك.

وكان يشرح للناس فيقول: إن القوي مثالٌ لنعمة القوة، وهذه القوة نعمة من الله، ولابد أن يساعد بها الضعيف ويقف بجواره. لا أن يقول: أنا قوي، وقد أعطاني الله الصحة، وأنا قادر على كل شيء، ثم يكتفي بذلك. بل بهذه القوة يساعد الضعيف، ويقف بجواره، وينصره، فهذا هو التحدث بنعمة القوة، ولذلك من كان معه مال، فعليه أن يتحدث من نفس النعمة التي أعطاه الله إياها، أي يتبرع بالمال، أو يقدم طعامًا، أو كسوةً، ولهذا أحبه أهل القرية، وأحبته الناحية كلها، فهو يساعد الجميع؛ قريته وغير قريته.

***

هَرَوَلَ أَهْلُ القَرْيَةِ إِلَى دُوَّارِ العُمْدَةِ، حَيْثُ تَنْبَعِثُ الزَّغَارِيدُ لِتَقْدِيمِ التَّهَانِي، وَكُلُّ امْرَأَةٍ تَدْخُلُ بِالزَّغَارِيدِ، فَتَرُدُّ عَلَيْهَا النِّسَاءُ فِي الدَّارِ بِالزَّغَارِيدِ أَيْضًا، سَوَاءٌ كُنَّ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ أَوْ مِنَ المُهَنِّئَاتِ وَتَجَمَّعَ الرِّجَالُ فِي المُضِيفَةِ، وَدَارَتْ صَوَانِي الشَّرْبَاتِ عَلَى المُهَنِّئِينَ، وَكَذَلِكَ أَطْبَاقُ الأَرُزِّ بِاللَّبَنِ، عُنْوَانُ السَّعَادَةِ، إِنَّهُ أَسْعَدُ يَوْمٍ عِنْدَ العُمْدَةِ، وَقَدْ قَامَ بِتَسْمِيَةِ الوَلَدَيْنِ: أَحْمَدَ وَمُحَمَّد، وَجَلَسَ فِي المُضِيفَةِ يَسْتَقْبِلُ المُهَنِّئِينَ مِنَ النَّاحِيَةِ كُلِّهَا، وَبِجِوَارِهِ صَدِيقُهُ صَالِحٌ.

***

قَرَّرَ العُمْدَةُ أَنْ يُقِيمَ لَيْلَةً لِلَّهِ فِي يَوْمِ السُّبُوعِ؛ مَدِيحٌ وَذِكْرٌ وَطَعَامٌ لِلْجَمِيعِ وَلَابُدَّ مِنْ عَمَلِ صُوَانٍ فَخْمٍ، فَأَتَى بِرِجَالِ الفَرَّاشَةِ لِتَعْلِيقِ الزِّينَةِ، وَأُعِدَّ المَسْرَحُ مِنْ عَرَبَتَيْنِ كَارُو، وَافْتَرَشُوا أَرْضَ الجَرْنِ بِالسَّجَّادِ وَالحَصِيرِ المَصْنُوعِ مِنْ نَبَاتِ السَّمَّارِ وَقَامُوا بِتَعْلِيقِ الكُلُوبَاتِ وَوَضْعِهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَكَذَلِكَ إِنَارَةِ الطَّرِيقِ المُؤَدِّي إِلَى الجَرْنِ أَيْ الصُّوَانِ، وَجُهِّزَتْ أَمَاكِنُ صُنْعِ الشَّايِ وَالقَهْوَةِ، وَوُضِعَتْ بِهَا مَجْمُوعَةٌ مِنْ وَابُورِ جَازٍ مَارْكَةِ (بْرِيمُوس)، وَكَانَ هَذَا الوَابُورُ عُنْوَانَ التَّرَفِ، بِخِلَافِ الرّاكِيات المُشْتَعِلَةِ بِالخَشَبِ وَكَانَ الطَّبَّاخُونَ مُنْهَمِكِينَ فِي طَهْيِ الأَكْلِ لِلنَّاسِ، وَقَدْ قَامَ العُمْدَةُ بِذَبْحِ عِجْلَيْنِ مِنْ أَجْلِ حَفْلِ السُّبُوعِ.

***

اِمْتَلَأَ الصُّوَانُ عَنْ آخِرِهِ، وَوُضِعَتْ طَبَالِي الأَكْلِ، وَرُصَّ عَلَيْهَا الطَّعَامُ بِكَثْرَةٍ، فَقَدْ أَتَتِ النَّاحِيَةُ كُلُّهَا، وَأَكَلَ الجَمِيعُ حَتَّى اسْتَكْفَوْا. وَظَلَّ المُنْشِدُ يُنْشِدُ حَتَّى الفَجْرِ، وَالجَمِيعُ فِي سَعَادَةٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُمْ مَنْ تَمَايَلَ عَلَى إِنْشَادِ الشَّيْخِ، وَمِنْهُمْ مَنْ رَقَصَ فَرَحًا بِالأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَدَارَتْ صَوَانِي الشَّايِ وَالقَهْوَةِ عَلَى الجَمِيعِ، وَأَيْضًا الشِّيشَةُ لَا تُنْسَى، فَهِيَ أَهَمُّ شَيْءٍ، وَمَا دَامَتِ الشِّيشَةُ مَوْجُودَةً

فِي الأَفْرَاحِ وَلَيَالِي السَّعَادَةِ، فَالحَشِيشُ أَيْضًا مَوْجُودٌ وَبِكَثْرَةٍ؛ لِأَنَّ عَدَمَ وُجُودِهِ يَعْنِي البُخْلَ وَعَدَمَ تَقْدِيرِ المَدْعُوّينَ؛ فَمِزَاجُ النَّاسِ هَامٌّ وَمَطْلُوبٌ لِإِسْعَادِهِم، وَالكُلُّ إِمَّا يَشْرَبُهُ مَعَ الشِّيشَةِ، أَوْ مَلْفُوفًا مَعَ السَّجَائِرِ. وَلَا خَوْفَ مِنْ وُجُودِ الحَشِيشِ هَكَذَا عَلَنًا، فَهُمْ فِي حِمَايَةِ العُمْدَةِ صَدِيقِ الشُّرْطَةِ وَالنُّوَّابِ، وَوَقَفَ صَالِحٌ وَالعُمْدَةُ يَسْتَقْبِلَانِ المُهَنِّئِينَ وَيُرَحِّبَانِ بِالضُّيُوفِ، وَيَأْمُرَانِ الغُفْرَ بِتَقْدِيمِ وَاجِبِ الضِّيَافَةِ لِكُلِّ مَنْ أَتَى مُتَأَخِّرًا بَعْدَ الأَكْلِ، فَكَانَ يُقَدَّمُ لَهُ الطَّعَامُ، فَالْكُلُّ لَابُدَّ أَنْ يَأْخُذَ وَاجِبَهُ.

***

جَلَسَ العُمْدَةُ، وَبِجِوَارِهِ صَالِحٌ، وَحَوْلَهُ جَلَسَ كِبَارُ النَّاحِيَةِ مِنْ عُمَدٍ وَأَغْنِيَاءَ، وَعُضْوُ مَجْلِسِ النُّوَّابِ، وَالمَأْمُورُ؛ فَالمَأْمُورُ – مَثَلًا – لَهُ مَعَ القَرْيَةِ حِكَايَاتٌ، وَأَخَذَ يَتَحَدَّثُ مَعَ العُمْدَةِ وَصَالِحٍ وَكُلِّ مَنْ فِي مَجْلِسِهِمْ، وَيَشْرَحُ لَهُمْ بُطُولَاتِهِمْ فِي إِنْهَاءِ قِصَّةِ الجِنِّيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَسْكُنُ البِئْرَ، وَكَيْفَ تَمَّ إِنْهَاءُ قِصَّتِهَا بَعْدَ صِرَاعٍ دَامٍ مَعَهَا، أَخَذَتْ فِي طَرِيقِهَا أَرْوَاحًا بَرِيئَةً، وَحَكَى عَنِ الحَرِيقِ الَّذِي حَدَثَ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُصَدِّقُ هَذِهِ الخُرَافَاتِ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ جَرَّبَ بِنَفْسِهِ فِي وَاقِعَةِ الحَرِيقِ.

وَكَانَ المُنْشِدُ عَلَى المَسْرَحِ فِي حَالَةِ اِندِمَاجٍ، وَالجَمِيعُ يَتَمَايَلُ، وَصَوَانِي الشَّاي وَالقَهْوَةِ وَالشَّرْبَاتِ تَدُورُ عَلَى الجَمِيعِ بِلَا تَوَقُّفٍ

***

اِنْدَمَجَ صَالِحٌ مَعَ المُنْشِدِ مِثْلَ الجَمِيعِ، وَعَاشَ لَحْظَتَهُ مُتَنَاسِيًا أَشْبَاحَهُ. وَكَانَتِ القِصَّةُ الَّتِي يُنْشِدُهَا هِيَ قِصَّةَ العَارِفِ بِاللَّهِ السَّيِّدِ البَدَوِيِّ، وَالكُلُّ اِنْدَمَجَ مَعَ المُنْشِدِ بَلْ دَخَلَ فِي أَحْدَاثِ القِصَّةِ. وَإِذَا بِصَالِحٍ يَرَى عَلَى المَسْرَحِ نَفْسَ الحُورِيَّةِ الَّتِي رَآهَا قَبْلَ ذَلِكَ فِي صُوَانِ عَزَاءِ زَوْجَتِهِ؛ تِلْكَ الحُورِيَّةُ صَاحِبَةُ العُيُونِ الزَّرْقَاءِ، وَشَعْرُهَا كَسَبَائِكِ الذَّهَبِ، ذَاتُ الجَمَالِ الخَلَّابِ الَّذِي يُسْكِرُ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ فَقَطْ؛ فَمَالَ عَلَى العُمْدَةِ هَامِسًا: شَايِفِ اللِّي أَنَا شَايِفُهُ عَلَى المَسْرَحِ؟.

ـ آه، المُنْشِدُ مِلَعْلِع.

ـ أَقْصِدُ الحُورِيَّةَ الَّتِي جَنْبَه الَّتِي كَانَتْ فِي عَزَاءِ زَيْنَب، فَاكِرْهَا؟

ـ مَعْقُولَةٌ يَا صَالِح؟ (ثُمَّ ضَاحِكًا) دِي خيالات الوَحْدَةِ، اِسْمَعْ كَلَامِي وَاتْجَوَّزْ.

ـ أَنَا شَايِفُهَا... وَبِتِضْحَكْ كَمَان.

ـ وَحِّدِ الله... خَلِّينَا هِنَا، إِحْنَا مَا صَدَّقْنَا خَلَّصْنَا مِنَ الجِنِّيَّةِ.

ـ لِيه؟ أَنْتَ نَسِيتَ الَّذِي خَرَجَ مِنَ الحِيطَةِ؟

- وَحِّدِ اللهَ... رَبُّنَا يَجْعَلْ كَلَامَنَا خَفِيفًا عَلَيْهِمْ.

وَجَاءَهُ صَوْتُ الحُورِيَّةِ عَذْبًا لذيذا: يَا صَالِحُ، لَنْ يَرَانِي أَحَدٌ سِوَاكَ، وَقَدْ جِئْتُ إِلَيْكَ أَنْتَ فَقَطْ لِأُسَاعِدَكَ.

صَمَتَ صَالِحٌ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا، وَهِيَ تَبْتَسِمُ لَهُ، وَقَدْ أَسْكَرَهُ جَمَالُهَا.

(٤)

مَرَّ أكثرُ من ستَّةِ أشهرٍ على بَدْءِ ظهورِ الأشباحِ لصالحٍ في منزلِه. وتعوَّدَ صالحٌ على رؤيتِها في البيت. أمّا مَن يجِدُه ينامُ بجوارِه في الهواء، فقد أصبح يزورُه أسبوعيًّا بلا توقُّف، وفي جدولِ مواعيدَ ثابت. فكان صالحٌ ينظرُ إليه بلا خوف، فقد تعوَّدَ عليه، ولأنَّه غيرُ مؤذٍ، إنّما يفعلُ ذلك ليُخيفَه، وآخرُ مرّةٍ جاءَه كانت منذ أسبوع، وحينما استدارَ صالحٌ في نومتِه ونظرَ إلى هذا الشبحِ النائمِ بجوارِه في الهواء، من غير خوف، ابتسمَ له صالحٌ وقد تجَرَّأَ عليه، بل وقامَ بترقيصِ حاجبَيْه استخفافًا به، ممّا أثارَ غضبَ الشبح، فنظرَ إلى صالحٍ نظرةً كلُّها نارٌ وغيظ، وفجأةً تحوَّلَ إلى ثعبانٍ ضخمٍ بقطرٍ يصلُ إلى عشرين سنتيمترًا. فصرخَ صالحٌ وقفزَ خارجَ الحجرةِ وخارجَ البيتِ كلِّه، إلى ملاذِه الوحيدِ جلسةِ الجُمَّيزة، وكان يحكي للعمدةِ كلَّ ما يراه في سهراتِ الجُمَّيزةِ التي لا تنقطع، فهي التنفُّسُ الوحيدُ لهم جميعًا.

***

تزيَّنَتِ القريةُ لاستقبالِ حفلِ المولدِ النبويِّ الشريف، وأتى رجالُ الفراشةِ ليفعلوا كما فعلوا يومَ سُبوعِ التوأم، من زينةٍ وكلِّ ما يتعلّقُ بها، كيومِ السُبوعِ تمامًا بلا نُقصان. وقامَ العمدةُ بذبحِ

عِجلَيْن لهذا اليوم، ورفضَ أن يُخرِجَ أهلُ القريةِ أيَّ طعام، كما يحدثُ – كعادةِ أهلِ ريفِنا الجميل – في كلِّ المناسبات، عزاءً كان أو أفراحًا أو حفلاتٍ، وكانت تُسمَّى "صَواني العَشاء". وقال إنَّه سيقومُ بهذا كلِّه وحدَه. وطلبَ منه صالحٌ أن يتحمَّلَ ثمنَ عِجلٍ منهما، ليقدِّمَه رحمةً ونورًا على روحِ زوجتِه زينب، وحبيبتِه التي خطفَها الموتُ منه وتركَه وحيدًا؛ فلم يستطعِ العمدةُ أن يرفض، ووافقَ، ودمعتْ عيناه على أختِه الغالية، ورفضَ أن يُغضِبَ صديقَ عمرِه، وأصرَّ على أنَّه سيتحمَّلُ الأضحيتَيْن معًا هِبةً لروحِ أختِه، فهو عَينُ أعيانِ الناحيةِ كلِّها، وغيرُ معقولٍ أن يساعدَه أحد. وقال له: ماشي يا صالح، والعِجلُ الثاني أيضًا على روحِ زينب، فالليلةُ كلُّها على روحِها، فهي حبيبةُ روحي ووحيدتي.

مع غروبِ الشمسِ بدأتِ الأنوارُ تُضاء، وبدأتِ الولائمُ تُعَدُّ مع قدومِ الوفودِ من كلِّ اتِّجاه، فهذا يومُ إطعامِ الطعامِ في مولدِ سيِّدِ الأنام، وكانتِ السعادةُ تكادُ أن تقفزَ من الوجوه، وها هو وفدٌ يرتدي جلبابًا أبيضَا، ويتشحُ بوشاحٍ أخضرَ من كتِفِه إلى خاصرتِه، مكتوبٌ عليه (الطريقة اللحيوية)، وكان قائدُهم هو سالمُ الشايب، زوجُ سعادِ صابر، التي أخرجَ صالحٌ منها الجانَّ،

وذاقتِ القريةُ بسببِها الأمرَّيْن من الجنيَّةِ ساكنةِ البئر، وبسببِها فقدَ صالحٌ زوجتَه. وكان مع سالمَ في قيادةِ الطريقةِ محروسُ الضبع، الذي تحوَّل بفضلِ صالح أفندي أيضًا إلى شخصٍ آخرَ يفعلُ الخيرَ فقط، وطلَّقَ الشرَّ طلاقًا بائنًا. رحَّبَ بهم العمدةُ وصالح، وإنْ كان صالحٌ أسعدَه اسمُ الطريقة، فاسمُ (الطريقة اللحيوية) نسبةً إلى لقبِه، وهذا دليلٌ على التقدير.

سأله صالحٌ: لِمَ أطلقتُم اسمي على الطريقةِ الخاصَّةِ بكم؟.

ردَّ سالمُ الشايب: إنَّ هذا أقلُّ تقديرٍ لرجلٍ يعرفُ اللهَ ويعملُ الخير، وكان سببًا في إنقاذِ زوجتي من الجانِّ، أي من الموت. وليس هذا فقط، لقد قامت زوجتي بحفظِ (جزء عم) كاملًا، لنصيحتِك لها بقراءةِ القرآن وترديدِه دائمًا، وهي كلَّ يومٍ تقرأه وهي تُعِدُّ الطعام، وأثناءَ شغلِ البيت لا يُفارِقُ القرآنُ لسانَها، وقبل أن تنامَ تقرأُ المعوِّذتَيْن؛ فأصبحت حياتُنا كلُّها قرآنًا، وحفظَنا اللهُ بهذا القرآن، وأنا قمتُ بتكوينِ هذه الطريقةِ لكي نذكرَ اللهَ دائمًا، فبعدَ العملِ، وبعدَ صلاةِ العشاء، نجتمعُ في بيتي أو بيتِ أحدِ الإخوة، ونقيمُ حلقةَ الذِّكر، ونذكرُ اللهَ، وبفضلِ الشيخِ محروسِ الضبع، نحفظُ على يديه الأدعية. ولقد أطلقتُ اسمَك عليها، وستكونُ أنت القائدَ لنا.

رحَّبَ صالحٌ والعمدةُ بالفكرةِ والطريقةِ، وبدأت حلقةُ الذِّكر على صوتِ المُنشدِ العزب، خاصةً وأنَّ مكبِّرَ الصوتِ وصلَ صوته إلى القرى المجاورة.

(٥)

اشْتَدَّتْ حلْقَةُ الذِّكْرِ تَحْتَ قيادَةِ مَحْرُوسِ الضَّبْعِ، ووَصَلَتْ إلى ذُرْوَتِها، واشْتَرَكَ فِيهَا مُعْظَمُ الحُضُورِ مِن رِجالٍ وأطْفالٍ، ولَعْلَعَ المُنْشِدُ وانْدَمَجَ، وفَجْأَةً دَوَّتْ صَرْخَةٌ قَطَعَتْ ذَلِكَ الانْدِمَاجَ وأوْقَفَتِ المُنْشِدَ، وتَلَتْهَا ارتطامه بِالأرْضِ، وما إن ذَهَبُوا إلى مَن سَقَطَ، حَتَّى تَلَتْهَا صَرْخَةٌ أُخْرَى وارْتِطَامٌ آخَرُ بِالأرْضِ، وإذا بِمَن سَقَطَا أرْضًا هُمَا ابْنُ صَالِحٍ وابْنُ العُمَدَةِ، صَالِحٌ وإبْرَاهِيمُ الطِّفْلَانِ، فانْزَعَجَ الجَمِيعُ عَلَيْهِمَا، وانْدَفَعَ العُمَدَةُ وَصَالِحٌ إلى أولادِهِمَا، وقَلْبُهُما يكادُ أن يَقِفَا.

قامَ الناسُ بإجْلاسِ الطِّفْلَيْنِ، واقتربَ صالحٌ والعُمَدَةُ ومحروسُ الضَّبْعِ منهما لِيَرَوْا ما حَدَثَ. وإذا بهما ينظُران وقد جَحَظَتْ عيناهُما واحمرَّت، وكأنَّها عَيْنَا جانٍّ، ويأتيان بحركاتٍ غريبةٍ، ويلتفتان في كلِّ اتِّجاهٍ، ويخرُج منهما أصواتٌ غريبةٌ، يعرفُها صالحٌ ومحروسُ الضَّبْعِ جيِّدًا، وسمعَها قبل ذلك كثيرًا من الجانِّ الذي يَمُسُّ الإنسانَ في جلساتِ العلاجِ أثناء إخراجِه، ثم بدأ التَّهديدُ المباشرُ لصالحٍ من الأولادِ: يا صالح، بيننا وبينكَ ثأرٌ كبيرٌ لن نتركَه.

تحدثا بصوتٍ أَجَشٍّ، صوتِ رجلٍ كبيرٍ وليس صوتَ أطفالٍ، وسطَ ذُهولِ الجميعِ مما يحدث. أسقَطَ ذلك في يدِ صالحٍ والعُمَدَةِ، فهما فُلَذاتُ أكبادِهما، إنَّها خِسَّةٌ من الجانّ أن يستخدمَ الأطفال.

وضعَ صالحٌ يديه على رأسَيِ الأولادِ وبدأ يقرأُ القرآنَ، الصَّمدِيَّةَ وآيةَ الكرسي والمعوّذتين، وبدأ محروسُ الضَّبْعُ والجميعُ يرددون خلفه بصوتٍ عالٍ، فهزّت الأصواتُ المكان، ومن كثرة الأصواتِ العاليةِ والقراءةِ، هبَّ الطفلان واقفينَ في تصرُّفاتٍ لا إرادية، وجريا بسرعةٍ مذهلةٍ تجاهَ الترعة؛ فالترعةُ قريبةٌ من الجُرنِ لا تزيد عن مائةِ مترٍ، وكلُّ الناسِ تجرِي خلفَهُما، ولم يلحقْ بهما أحدٌ، فقد كانا الجانُّ هو الذي يجرِي، وليس الأطفال.

وصل الولدانِ إلى الترعة، والكلُّ خلفَهُما، فقفَزا في الترعة وسطَ ذُهولِ الجميع، وصالحُ أفندي والعُمَدَةُ لا يُصدِّقان ما يحدث، كابوسٌ كبيرٌ يعيشان فيه، بلوةٌ جديدةٌ حَلَّت عليهما، وإذا بالأولادِ لم يسبَحوا أو يغوصوا، لقد سارَا الولدانِ على الماء، سارَا فوق الماء وكأنَّهُ أرضٌ، أو كأنَّه مجمَّدة؛ فهلَّلَ الناسُ: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، مدد يا أولياءَ اللهِ الصالحينَ الأطفالَ البِرَّة، مدد يا أهلَ الخطوة، هذه أفعالُ أولياءِ الله.

راحَ الأولادُ يقطعانِ الترعة ذهابًا وإيابًا بعرضِ القرية، والناسُ تجرِي معهما، لكن على الأرض، وهم يُصيحون: الله أكبر، الله أكبر، أولياءُ اللهِ أهمّ.

ثم عبرَ الولدانِ إلى الجانبِ الآخرِ من الترعة، وسقطَا على الأرضِ في حالةِ إغماء، وقفَزَ الناسُ إلى الترعة في تدافعٍ كبير، وعبروا إلى الجانبِ الآخر، وحملوهما وعادوا بهما، والكلُّ يُصيح: الله أكبر، الله أكبر، أولياءُ اللهِ المبارَكِين.

وراحَ الناسُ يقبّلونَ أيديَ الطفلَيْنِ وأرجلهما، ويمسحون عليهما تبركًا بهما، لقد سارَا على الماء مثل الأنبياءُ وأولياءُ الله، وحملهما الناسُ على الأكتافِ وذهبوا بهما إلى المسرح، وأجلسوهما على كرسيين بجانبِ المنشدِ الذي استقبلهم بسعادة.

وقفَ صالحٌ والعُمَدَةُ ينظران إلى ما يحدث، فهما في كابوسٍ مستمرّ لا ينتهي، وكأنَّ على رَأْسَيْهِما الطير، ولا تفسيرَ لتتابعِ الأحداث، إنَّها أصعبُ من الشبحِ الذي خرج ودخل لهما من الحائط، والذي نامَ على الهواء بجانب صالحٍ وتحول إلى ثعبان حدثَ أو يحدثُ لهما، ولماذا الناسُ تفعلُ معهما كلَّ هذا؟ هل لأنَّهما أولادُ العُمَدَةِ وصالحُ أفندي؟ لم يستوعبا ولم يتذكرا شيئًا مما حدث لهما من السيرِ فوق الماء، فهما كانا مغيبَين.

نظرَ صالحٌ إليهما والدهشةُ تتملكه، وفجأةً وجد الحوريةَ تجلسُ بجوارهما، كما جلست يوم السُبوع وعلى المسرح أيضًا، صاحبةُ العيونِ الزرقاء والشعر الأصفر والوجه الأبيض، والقدم المشوّق، وهم على وشك أن يقولوا للعُمَدَةِ عما يرونه، ولكنه جاءَه صوتُها عذبا: يا صالح، لن يرانِي أحدٌ سواك، وقد جئتُ إليك لأساعدكَ، وسوف أساعدكَ في طرد الجانّ من الأولاد، فهما لهما ثأرٌ معك، وهما جانٌّ شرير، ولكن مساعدتي بشرط، وغدًا سآتي إليك وأبلغكَ بشرطي. واختفت، وخيمَ على صالحٍ الذهول والحزنُ من تتابع الأحداث، وكأن العالمَ كله ضده.

***

دخلَ صالحٌ حجرتهُ بعدَ انتهاءِ ليلةِ المولد، وما به من همٍّ وغمٍّ يجعله لا يرى أمامَه أن تتحدثَ إليه الجنيةُ وتهمس له بأذنِها، فيسمعها هو فقط، وهي على بُعدٍ كبيرٍ، أي أنها ليست بجواره، ويأتي الصوتُ هذه المسافة له وحده، وأن يتحدّاهم الجانّ في سفورٍ، ويسيرَ بالأطفالِ على الماء، فهو يُخرج لهما لسانَه كيدًا ويفتنُ الناسَ بالأطفال، إنه شيءٌ كبير، نامَ صالحٌ من كثرة التعب، وغطَّ في نومٍ عميق، فالجسدُ متعبٌ والعقلُ منهكٌ، والقلبُ أصابه الهوان، رأى صالحٌ في منامه زوجتَه حبيبتهُ

زينب، رآها آتيةً إليه في فستانٍ أبيضَ جميلٍ تملأهُ الورود، وعلى رأسها تاجٌ مرصعٌ بالألماس، وخلفها وحولها كمٌّ من الجوارِي الجميلات، وهي تركبُ كارَتَهُ مطرَّزةً بالورود، يجرُّها حصانٌ بأجنحة، ووقفت أمامَه وقالت: افعلْ كلَّ شيءٍ لإنقاذ ابننا مهما كلفك، ابعدْ هذا الجانَّ الشريرَ عن ابننا، مهما كان الثمن، لكي تريحني يا صالح، يا حبيبي.

استيقظَ صالحٌ وهو سعيدٌ بما رأى، وردّد: حاضر يا زينب، سأفعل مهما كان الثمن.

(٦)

انتشرت معجزة سير الأولاد على الماء في القرى والنجوع، ووصلت إلى المدن بسرعة البرق. وأصبحت حديث الساعة، فقد كان الحدث فريدا من نوعه وخارقا وغريبا. وأن يراه الناس بأعينهم فهذا هو الاعجاز، ولم يحدث هذا لهم قبل ذلك قط. فقد كان السير على الماء ما هو إلا قصص يروى لهم. محض قصص وأساطير الأولين ولم يراها أحد، أما ما حدث للأولاد الأن فقد رآه جمع غفير وفى حفل كبير؛ فأصبحت أحداثه موثقة بشهود عيان. فانتشرت القصة كانتشار النار بالهشيم، وصارت القرية مزارا للجميع وكأنهم يحجون إليها، وأتت الأفواج إلى القرية وإلى بيت إبراهيم العمدة وصالح اللحيوي كمريدين للأطفال المعجزة أولياء الله الصالحين محملين بالهدايا، وهذا ما أغضب صالح والعمدة وحاولا إقناع الناس بأن الأطفال بهم مس من الشيطان وما يحدث لهما هي لعبة من الجان يريدون فتنة الناس وإبعادهم عن طريق الله. ولكن هيهات أن يقتنع أحد. فهذا الحدث قد رأوه الناس بأعينهم؛ أي أنه رأى العين وليست حكايات وخرافات وأساطير؛ فما رأوه بأعينهم كان أكبر من اقتناعهم بأنه فعل جان. حتى أن محروس الضبع قال لإبراهيم

وصالح ليهدئهما: ليتني كنت أنا مكان الأولاد. كنت سأصبح أغنى رجل في البر كله.

إنها حقا فتنة كبيرة تعرض لها العمدة وصالح، وكانا بقدر الإمكان كلما وجدا أحدا يأتي لزيارة الأولاد كانوا يصدانه ويعيدانه من حيث جاء بما يحمل من هدايا، ولكن هذه الحادثة كانت فتحة خير لأهالي القرية والخفر، فكانوا إذا رأوا أحد الوفود قادم بالهدايا في غياب العمدة وصالح أفندي، أقنعوا الناس بأن ما جاءوا إليه صحيحا، وأن أهل الأطفال يخفوهما خوفا عليهما من الحسد، ويأخذون منهم الهدايا على أنهم سوف يوصلونها إلى الأطفال، وإذا ضبط العمدة أو صالح أحد من هؤلاء وهو يقوم بالنصب على الوفود فكان يومه أسود، ويعاقب أشد العقاب واذا كان من الخفر يرفد من الوظيفة.

***

جلس صالح اللحيوي في غرفته وطلب من الست أم جمعة الخادمة فنجان قهوة، وجلس يفكر فيما يحدث لهم، إن الأحداث تسير من سيئ إلى أسوأ، كل يوم يأتي بكارثة جديدة ولا شيء يحل. ثم ماذا بعد. وماذا يفعل وكيف ينقذ الأولاد ويخرج الجان، أكثر من مرة يحاول إخراجه لكن كلها بائت بالفشل، وهو من

هو في هذا المجال. كل جان قابله أخرجه ووفقه الله في مهمته لأنه يعمل الخير فقط. كيف يفشل مع ابنه؟. أيعقل هذا وقال: يبدو أن باب النجار مخلع.

ثم من هذه الحورية التي أتت إليه وقالت عندها الحل وجاءت لتساعده؟. تلك الجنية الساحرة الجمال ذات العيون الزرقاء والشعر الأصفر وكأنها من عفاريت أوروبا، ولماذا اختارته هو؟ وما هو الشرط الذي سوف تطلبه مقابل إخراج الجان من الأطفال؟. إذاً هي تعرف أن هذا الجان قويا، لذلك أتت وسوف تضع شروطها. هذا أكيد. أو هي من صنعت هذه المشكلة وجاءت تحلها بشروطها لآنه كما قالوا في المثل: من يحضر العفريت يصرفه. هل تريده تابعا لها؟ أم تريده يكف عن إخراج الجان من البشر ماذا تريد؟ ومن هي؟ وما قدرتها؟

غمرت المكان رائحة عطر جميلة تنتشي النفس من شدتها وأريجها، أحس أن أحد يقف أمامه، رفع رأسه وإذا به يجد فنجان القهوة أمامه، وأن الواقفة أمامه والتي أحضرت القهوة ليست أم جمعة الشغالة، بل هي تلك الجنية الساحرة التي سحره جمالها ووعدته بالحل فقال لها: أنت؟ كيف جئت؟ ومن أتى بالقهوة؟.

ابتسمت له وقالت: لقد جئت بها والخادمة نائمة بالخارج حتى أنهي معك هذا اللقاء.

ابتسم من فرط جمالها وسعادته به: ماذا تريدين مني؟ ومن أنت؟

- أنا "كاليسا" ابنة أحد ملوك الجان، وأنا مسلمة مثلك وأحب الخير، وأنا أعرفك منذ زمن بعيد، وقد أحببتك بعد أن أنهيت على الجنية الملعونة ساكنه البئر وقتلتها.

فرد صالح: لم أقتلها.

- إنك قتلتها حينما تشكلت كحية، فضربتها بالبندقية فماتت.

- اذا كانت ماتت، فمن أحرق القرية إذا؟

- هذا هو الجزء الثاني من الحكاية، فالذي أحرق القرية هو أخوها (هيثمور) وهو الذي يسكن جسد ابنك، ووالد هيثمور هو أحد من ألف كتاب (شمس المعارف) الذى عندك والشهير عندكم وقد مات، يعنى الشر متأصل فيهم ووراثة، وهم ثلاثة من قاموا بتأليف الكتاب. والثاني هو والد (سلهوب) الجان الذي كان يسكن جسد سعاد وأنت أخرجته منها، وسلهوب هذا يسكن جسد صالح ابن العمدة، أما الثالث لحسن حظك فليس له أولاد ومات أيضا والثلاثة هم الذين ألفوا الكتاب (لأحمد البوني) وقد ألفوا

الجزء الخاص بالجان فقط. إن هيثمور وسلهوب جان شرير وقوي ولا يعرفان إلا الدمار، لذلك جئت لأنقذك أنت والأولاد من أفعالهما إن أردت ولك حرية الاختيار. فرد صالح في هدوء، وقال لها: وما هو شرطك؟.

- تتزوجني.

صعق من سماع شرطها حتى أحس أن هناك كارثة جديدة قد حلت عليه، أحس أن عقلة توقف أو خارج الخدمة، وكأن أحد ضربه على رأسه فوضع رأسه فوق كفية. وأخفى وجهه بهما وهو يفكر. ثم ماذا وإلى أين ومتى تنتهى كل هذه الأحداث؟ فقالت له: كما ترى أنا جميلة جدا وأستطيع أن أجعلك تعيش كأحد ملوك الأرض، سأكون كل يوم بشكل جديد والشكل الذي تحبه. ولدي إمكانيات كبيرة لا يمكن أن تتخيلها، سأجعلك أغنى رجل في العالم كله.

ثم اردفت: وستنتهى قصة الطفلين وكل ما يحدث لك سينتهي فقط إذا وافقت على زواجي.

- ما تطلبينه مفاجأة لى، لم يدر بخيالي أصلا، ثم إنه حرام شرعا وأنت تقولين إنك مسلمة، ألا تعرفين ذلك؟

- (ضاحكة) أتعرف عدد حالات زواج إنس وجن كم؟ إنها كثيرة جدا لا تحصى.

- ورغم ذلك لا أعرف حالة واحدة.

- عدم معرفتك لا تعني عدم وجودها.

- إنه حرام.

- إنه زواج شرعي وسأجعلك ملك للبشر كلهم.

- أنا لا أريد أن أكون ملك ولا غيره؟

- ستتمتع بالجمال، كل امرأة جميلة أعجبتك سأتشكل بشكلها لك، أي ملكة جمال عندكم سأكون هي إن أحببت.

- وماذا أقول لله؟ إنه حرام شرعا.

- هذا زواج يا صالح، وستكون أسعد رجال الإنس وأغناهم؛ فالذهب الذى يباع عندكم بالجرام عندنا نبنى به القصور مثل الطوب عندكم.

- أتبنون القصور بالذهب؟ (ضاحكا) هل أنتم تزرعونه؟

- نحن نصنعه، حجر نقرأ علية عزائم معينه يتحول لذهب. وسوف أعلمك هذه العزائم.

ابتسم صالح من حديثها الذى استطاع أن يلعب بعقله. كلام لم يسمع مثله؟ كيف الحجر يتحول ببعض الكلمات إلى ذهب؟ ولكنه يخاف الله.

- إنه حرام وأنا اخاف الله. أنا عمري ٤٠ سنة، يعني على الأكثر يتبقى لي ٢٠ أو ٢٥ سنة أعيشهم بصحة. أأبيع بهم الأخرة؟. الحياة الأبدية التي لا نهاية لها؟. إني أخاف الله.

- عموما إذا وافقت عليك أن تنادي (كاليسا يا بنت شاهيندار أنا في انتظارك) ستجدني أمامك، أخلص لك الأولاد من الجان وتصبح أغنى وأكبر رجال الإنس سعادة.

ثم اختفت من أمامه.

(٧)

أَخَذَ صَالِحٌ كِتَابَ (شَمْسِ الْمَعَارِفِ) لَعَلَّهُ يَجِدُ فِيهِ الْخَلَاصَ فَمُؤَلِّفِيَّه أَوْلَادِهِمُ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ جَسَدَ الْأَوْلَادِ وَيَفْعَلُونَ بِنَا الْأَفَاعِيلَ، وَصَعِدَ إِلَى سَطْحِ بَيْتِهِ، بَدَلًا مِنْ مَجْلِسِ الْجُمَيْزَةِ حَتَّى لَا يُزْعِجَهُ أَحَدٌ وَيَسْتَطِيعَ الْقِرَاءَةَ بِرَاحَتِهِ. فَالْمُشْكِلَةُ كَبِيرَةٌ، وَهُوَ لَدَيْهِ غُرْفَةٌ عَلَى سَطْحِ الْبَيْتِ، وَهِيَ مَا تُعْرَفُ فِي الرِّيفِ بِاسْمِ (الْمَقْعَدِ)، وَبِهَا شُبَّاكٌ كَبِيرٌ يُطِلُّ عَلَى الْتِّرْعَةِ، وَأَمَامَهَا تَكْعِيبَةُ عِنَبٍ بِعَرْضِ الْبَيْتِ.

ظَلَّ يَقْرَأُ فِي الْكِتَابِ مِنْ أَذَانِ الظُّهْرِ إِلَى مَغِيبِ الشَّمْسِ فِي كَيْفِيَّةِ تَحْضِيرِ وَصَرْفِ وَإِحْرَاقِ الْجَانِّ. وَقَامَ بِعَمَلِ عَلَامَاتٍ عَلَى بَعْضِ الصَّفَحَاتِ الَّتِي أَحَسَّ أَنَّهَا قَدْ تُسَاعِدُهُ وَتَأْتِي بِالْمَرَادِ، وَبِهَا الطَّلَاسِمُ وَالرُّسُومَاتُ الْمَعْرُوفَةُ بِالْأَخْتَامِ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِهَا: الْأَخْتَامُ الدَّائِرِيَّةُ وَالْمُثَلَّثَةُ وَالْمُرَبَّعَةُ وَغَيْرُهَا مِنَ الْأَشْكَالِ الْغَرِيبَةِ. وَظَلَّ يَقْرَأُ حَتَّى سَمِعَ صَوْتَ الْمُؤَذِّنِ لِلْمَغْرِبِ عَلَى الْمَأْذَنَةِ، وَجَاءَهُ صَوْتُ الْخَفِيرِ مُحَيْسِنَ يُنَادِيهِ لِأَنَّ الْعُمَّدَةَ يُرِيدُهُ.

***

تَحَوَّلَ مَجْلِسُ الْجُمَيْزَةِ المبهج إِلَى مَجْلِسٍ كَئِيبٍ. هَجَرَهُ الضَّحِكُ وَأَصْبَحَتِ الْبَسْمَةُ عَزِيزَةً عَلَيْهِمْ، وَأَصْبَحَ الْجَالِسُونَ فِيهِ

سَاهِمِينَ، وَلَفَّ قُلُوبَهُمْ السَّوَادُ، وَكَلَّتِ الْعُقُولُ عَنْ التَّفْكِيرِ، نَارٌ اشْتَعَلَتْ بِهِمْ، وَأَصْبَحَ إِطْفَاؤُهَا أَمَلًا صَعْبَ الْمَنَالِ فِي مَجْلِسِ الْجُمَيْزَةِ.

قَصَّ صَالِحٌ عَلَى صَدِيقِهِ الْعُمَدَةِ كُلَّ شَيْءٍ عَنِ الْجِنِّيَّةِ الْعَاشِقَةِ صَاحِبَةِ الْجَمَالِ الصَّارِخِ، وَكَأَنَّهَا مِنْ حُورِ الْعَيْنِ، وَمَا دَارَ بَيْنَهُمَا، وَذَكَّرَهُ بِهَا: تِلْكَ الَّتِي حَاوَلَ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى كُرْسِيِّهَا بِمَعَازِي زَيْنَبَ أُخْتِهِ، وَالَّتِي أَتَتْ فِي سُبُوعِ التَّوْأَمِ وَحَفْلِ الْمَوْلِدِ النَّبَوِيِّ وَلَمْ تُصَدِّقْنِي. دَهِشَ مِنْ كَلَامِ صَالِحٍ عَلَى جَمَالِهَا الصَّارِخِ. وَحَدَّثَهُ عَنْ كَيْفِيَّةِ صِنَاعَةِ الذَّهَبِ بِكَلِمَاتٍ فَقَطْ، بَلْ وَأَنَّ بِيَدِهَا مَفَاتِيحَ فَتْحِ بَابِ الْخَلَاصِ مِنْ كُلِّ أَزْمَاتِهِمَا، وَالْمُقَابِلُ بَسِيطٌ جِدًّا: الْمُقَابِلُ زَوَاجُهَا مِنْهُ. نَظَرَ إِلَيْهِ الْعُمَدَةُ مُسْتَغْرِبًا مَا يَقُولُهُ صَالِحٌ، قَائِلًا لَهُ: الَّذِي تَقُولُهُ هُوَ قِصَصُ أَلْفِ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ، وَهَذَا ضَرْبٌ مِنَ الْخَيَالِ.

- وَلَكِنَّهَا الْحَقِيقَةُ كَامِلَةٌ يَا إِبْرَاهِيمُ، وَهِيَ فِي انْتِظَارِ رَدِّي، بَلْ وَقَالَتْ لِي كَيْفَ أُحْضِرُهَا بِثَلَاثِ كَلِمَاتٍ فَقَطْ، مَا أَنْ أَقُولَهَا تَأْتِي فِي التَّوِّ وَاللَّحْظَةِ.

- مَا هِيَ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ؟

- أَخَافُ أَنْ أَقُولَهَا فَتَحْضُرَ مِنْ فَوْرِهَا إِجْبَارِيًّا، لأَنِّي قَرَأْتُ الْيَوْمَ كَثِيرًا فِي كِتَابِ شَمْسِ الْمَعَارِفِ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ إِذَا قُلْتَ عِبَارَاتِ تَحْضِيرِ الْجَانِّ حَتَّى وَلَوْ لَمْ تَقْصِدْ، فَيَحْضُرُونَ.

- وَمَاذَا قَرَأْتَ؟.

- قَرَأْتُ الْكَثِيرَ، هُنَاكَ طَلَاسِمُ وَهُنَاكَ أَخْتِامٌ دَائِرِيَّةٌ وَمُثَلَّثَةٌ وَمُرَبَّعَةٌ وَأَشْكَالٌ كَثِيرَةٌ مَلِيئَةٌ بِالْأَحْرُفِ وَالْكَلِمَاتِ وَالْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ. إِذَا رَسَمْتَهَا عَلَى الْأَرْضِ تَحْجُبُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْجَانِّ، وَلَهَا اسْتِخْدَامَاتٌ كَثِيرَةٌ. وَهُنَاكَ شَرْحٌ كَيْفَ تُحْضَرُ الْجَانُّ وَكَيْفَ يُصَرَّفُونَ، وَكَيْفَ تُحْرَقُ الْجَانُّ الْمُتَلَبِّسُ بِالْإِنْسِ أَشْيَاءٌ كَثِيرَةٌ، وَقَدْ وَضَعْتُ عَلَامَاتٍ عَلَى الصَّفَحَاتِ الَّتِي سَوْفَ نَسْتَخْدِمُهَا، وَإِنْ شَاءَ اللَّهُ سَيُسَاعِدُنَا الْمَوْلَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى شِفَاءِ الْأَوْلَادِ، وَالْكَارِثَةُ الْكُبْرَى عِنْدَنَا أَنَّ الْجَانَّ الَّذِي يَمَسُّ الْأَوْلَادَ هُمَا جَانٌّ شِرِّيرٌ، وَوَالِدَيْهِمَا هُمَا مَنْ قَامُوا بِتَأْلِيفِ كِتَابِ شَمْسِ الْمَعَارِفِ. أَرَأَيْتَ حَظَّنَا؟ نَقَعُ فِي مَنْ قَامُوا بِتَأْلِيفِ أَخْطَرِ كُتُبِ السِّحْرِ، كِتَابٌ مُجَرَّدُ قِرَاءَتِهِ خَطِرٌ وَمُمِيتٌ، إِنَّهَا مُعْرَكَةٌ وَلَيْسَتْ بِالسَّهْلَةِ، حَيَاةٌ أَو مَوْتٌ.

أَشَارَ الْعُمَدَةُ لِلْحَفِرَ فَأَتَوا مُسْرِعَين بَعْدَ أَنْ أَنْهَى الْحِوَارَ السِّرِّيَّ مَعَ صَالِحٍ، وَجَلَسَ مُحَيْسِنٌ وَشَعْلَانُ لِتَجْهِيزِ رَاكِيَةِ النَّارِ لِيَصْنَعَا لَهُمَا الشَّايَ وَالْقَهْوَةَ وَالشِّيشَةَ، وَأَقْبَلَ الْأَوْلَادُ وَجَلَسَا مَعَهُمَا.

(٨)

سَمِعَ الجالسونَ عند الجُمَيْزَةِ جَلَبَةً كَبيرةً وأصواتًا عالِيَةً آتِيَةً عن بُعْدٍ، وتَقْتَرِبُ من القَرْيَةِ، وبَدَأَتِ الأصواتُ تَتَضِحُ شيئًا فشيئًا. أَحَسَّ صالِحٌ بِحُزْنٍ كَبِيرٍ؛ إنَّهُ مَوْكِبُ الغَلابَةِ المَفْتُونينَ بِالأَطْفالِ وما فَعَلَهُ الجانُّ بِهِما، فلا أَمَلَ في هؤُلاءِ الأَغْبِياءِ.

الأصواتُ اقْتَرَبَتْ جِدًّا، واقْتَرَبَ المَوْكِبُ:

لا إلهَ إلَّا اللهُ، الأَوْلادُ أَحْبابُ اللهِ.

لا إلهَ إلَّا اللهُ، إبْراهِيمُ وَلِيُّ اللهِ.

لا إلهَ إلَّا اللهُ، وصالِحٌ وَلِيُّ اللهِ.

الجميعُ في ذُهُولٍ مِمَّا يَسْمَعُونَ، لقد أَصْبَحَ لِلأَوْلادِ مُريدونَ وزُوَّارٌ يَأْتُونَ إِلَيْهِمْ في مُظاهَراتِ حُبٍّ، ومُحَمَّلِينَ بِالنُّذُورِ وَالهِبَاتِ، وغَدًا يُقِيمُونَ لَهُما مَوالِدَ، مَوْلِدَ الشَّيْخِ إبْراهِيمَ ومَوْلِدَ الشَّيْخِ صالِحٍ. إنَّها الفِتْنَةُ تُطِلُّ بِعَيْنَيْها عَلَيْهِمْ، وغَدًا تَلْتَهِمُهُم. وقُلوبُ النّاسِ تُفْتَنُ وتَنْحَرِفُ عنِ الحَقِّ، فَلا بُدَّ مِنْ وَضْعِ حَدٍّ لِهَذا التَّجاوُزِ، وأَنْ تَنْتَهِيَ هذِهِ المَهْزَلَةُ؛ فَهِيَ ضِدُّ الدِّينِ والشَّرْعِ، ونَحْنُ نَحْفَظُ القُرْآنَ ونَعْرِفُ حُدودَ اللهِ. نَظَرَ العُمْدَةُ إلى صالِحٍ وقالَ لَهُ: ما رَأْيُكَ في هذَا الضَّلالِ؟

- لا بُدَّ وأنْ يَنْتَهِيَ، ويَكْفِينَا ما نَحْنُ فِيهِ، إنَّ أَوْلادَنا في مُصِيبَةٍ كَبِيرَةٍ، ولا بُدَّ أنْ تَنْتَهِيَ هذِهِ الأَفْعالُ؛ إنَّها ضِدُّ الشَّرْعِ وَالدِّينِ، وَهذَا لا يَرْضَاهُ اللهُ.

- سَأُنْهِيهِ لَكَ الآنَ.

مَدَّ العُمْدَةُ يَدَهُ، وَأَخَذَ البُنْدُقِيَّةَ مِنْ عَلَى كَتِفِ الخفِيرِ، فَفَزِعَ صالِحٌ مِمَّا حَدَثَ وَقالَ في رُعْبٍ: هَتِعْمِلْ إِيهْ يا عُمْدَةُ؟

- لا تَخَفْ، أَنا مِشْ صَغِيرٍ، هِيَ حَرَكَةُ تَهْدِيدٍ فَقَطْ تُنْهِي هذَا المَوْضوعَ لِلأَبَدِ.

اقْتَرَبَ المَوْكِبُ إِلَى أنْ أَصْبَحَ أَمامَهُم، بِهُتافَاتِهِم وَطَبْلِهِم وَرَقْصِهِم في صَوْتٍ واحِدٍ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، إبْراهِيمُ وصالِحٌ أَوْلِياءُ اللهِ.

رَفَعَ العُمْدَةُ يَدَهُ في إِشارَةٍ لِلوَقْفِ بِالسُّكُوتِ، لِأَنَّهُ سَيَتَكَلَّمُ، والْيَدُ الأُخْرَى تَحْمِلُ البُنْدُقِيَّةَ، وتَخَيَّلَ الجَميعُ أَنَّ العُمْدَةَ سَوْفَ يُحَيِّيهِمْ بِضَرْبِ طَلَقاتٍ في الهَواءِ، فَصاحَتِ النّاسُ تُرَحِّبُ بِالعُمْدَةِ: مَرْحَبًا بِالعُمْدَةِ، عَيْنُ أَعْيانِ المُدِيرِيَّةِ، ووالِدُ وَخالُ أَوْلِياءِ اللهِ الصّالِحِينَ.

فَجْأَةً دَوَّتْ ضِحْكَةٌ مُدَوِّيَةٌ سَمِعَها اثْنانِ فَقَطْ، هُما العُمْدَةُ وَصالِحٌ، آتِيَةٌ مِنْ عَلَى بَيْتِ صالِحٍ، فَنَظَرَ الاثْنانِ إِلَى جِهَةِ الضِّحْكاتِ، وَكانَتِ الكارِثَةُ الَّتِي لا مِثيلَ لَها، وَرُبَّما كَذَّبُوا أَعْيُنَهُمْ.

ضِحْكاتٌ كُلُّها شَماتَةٌ وَسُخْرِيَّةٌ، ضِحْكاتٌ تَقُولُ: إنَّهُمْا لَنْ يَسْتَطِيعُا فِعْلَ أَيِّ شَيْءٍ، وَأَنَّ نِهايَتَهُمْا قَدْ حانَتْ، لِيُسَدِّدُا ثَمَنًا عَلَيْهِما، وَقَدْ حانَ وَقْتُ سَدَادِهِ وَهُوَ قَتْلُ جِنِّيَّةِ البِئْرِ وَإِخْراجُ جانِّ سُعادَ. نَظَرَ العُمْدَةُ وَصالِحٌ إِلَى بَعْضِهِما، وَإِلَى سَطْحِ المَنْزِلِ، حَيْثُ وَقَفَ جِنِّيانِ، كُلٌّ مِنْهُما لَهُ قَرْنانِ، وَأَعْيُنٌ حَمْراءُ تَخْرُجُ لَهَبًا، وَشَعْرٌ كَأَنَّهُ سِلْكٌ مِنَ الحَديدِ، وَوَجْهٌ مُخِيفٌ. فَسَأَلَ صالِحٌ العُمْدَةَ بِعَيْنَيْهِ وَلَيْسَ بِلِسانِهِ حَتَّى لا يَسْمَعَهُمُ النّاسُ: هَلْ تَراهُمْ؟ فَهَزَّ رَأْسَهُ بِنَعَمْ. وَجاءَ صَوْتُ الجانِّ لَهُما فَقَطْ، وَضَحِكاتٌ عالِيَةٌ تَكادُ تَصُمُّ آذانَهُما فَقَطْ.

أَحَسَّ العُمْدَةُ وَصالِحٌ أَنَّهُما لَنْ يَقْدِرا عَلَيْهِما، وَسَوْفَ يُدَمِّرانِ الأَطْفالَ، وَيُحِيلانِ حَياتَهُم إِلَى جَحيمٍ، وَسَوْفَ يَفْتِنونَ النّاسَ في دِينِهِم. وَلَنْ يَسْتَطِيعَا أَنْ يَرُدَّا النّاسَ أَوْ يُخْرِجاهُمْ مِنْ بَحْرِ الفِتْنَةِ، وَالحَلُّ أَنَّهُ لا حَلَّ. سَيَمُوتانِ كَمَدًا، وَسَوْفَ يُوصِلُونَهُما لِهذَا لا مَحالَةَ. وَقالَ الجِنِّيانِ لِصالِحٍ: لَنْ تَنْجَحَ في طَرْدِنا بِكِتابِ شَمْسِ المَعارِفِ، نَحْنُ أَصْحابُ هذَا الكِتابِ، وَنَعْرِفُ كُلَّ حَرْفٍ فِيهِ، وَأَعْلَمُ الخَلْقِ بِهِ، وَسَوْفَ تَرَوْنَ الآنَ بَعْضَ التَّحَدِّي البَسيطِ. وَضَحِكُوا في هِسْتِيرِيَّةٍ، وَاخْتَفَوْا.

لَمْ يَسْمَعِ النّاسُ الحَديثَ الَّذي سَمِعَهُ صالِحٌ وَإبْراهِيمُ مِنَ الجِنِّيَّيْنِ، وَلَمْ يَتَوَقَّفِ الوَفْدُ عَنِ الإنْشادِ لِلأَوْلادِ، وَالجَلَبَةُ جَعَلَتِ الجَميعَ لَمْ يُرَكِّزُوا في صَمْتٍ وَنَظَراتِ العُمْدَةِ وَصالِحٍ لِسَطْحِ البَيْتِ. وَراحُوا يُقَبِّلُونَ أَيادِيَ وَرَأْسَ الأَوْلادِ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِما، وَخَرَجَ أَهْلُ القَرْيَةِ عَلَى هذِهِ الجَلَبَةِ وَهذَا الصِّياحِ، وَانْضَمُّوا إِلَيْهِم.

بَدَأَ صالِحٌ يَتَحَدَّثُ إِلَى النّاسِ: لا بُدَّ أَنْ تَتَّقُوا اللهَ، وَأَنْ يَزْدادَ إيمانُكُمْ بِهِ، وَما تَفْعَلونَهُ هُوَ فِتْنَةٌ لَكُمْ في دِينِكُمْ، وَما تَفْعَلونَهُ هُوَ خُروجٌ عَنِ الشَّرْعِ وَالدِّينِ، وَيُغْضِبُ اللهَ، فَهُمْ أَطْفالٌ، وَلَيْسُوا أَوْلِياءَ اللهِ، وَإِنَّ ما يَحْدُثُ هُوَ رِجْزٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ. وَهؤُلاءِ الأَطْفالُ مَرْضى، وَهُمْ مَمْسوسونَ مِنَ الجانِّ، فَالجانُّ يَلْبَسُهُم وَيَسْكُنُ جَسَدَيْهِما وَنَحْنُ نُحاوِلُ جاهِدينَ أَنْ نُخْرِجَ الجانَّ وَيَتِمَّ شِفاؤُهُما، أَفيقوا، وَعُودوا إِلَى اللهِ، يَرْحَمْكُمُ اللهُ.

لَمْ يَقْتَنِعِ النّاسُ بِكُلِّ ما قالَهُ صالِحٌ، ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهُ يُريدُ أَنْ يَحْرِمَهُمْ مِنْ هذَا العَمَلِ الصّالِحِ الَّذي يُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، وَهُوَ التَّقَرُّبُ مِنْ أَوْلِياءِ اللهِ الصّالِحِينَ. فَزادَ صِياحُهُمْ وَإِنْشادُهُمْ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، الأَوْلادُ أَحْبابُ اللهِ!.

لَمْ يَتَحَمَّلِ العُمْدَةُ غَباءَ النّاسِ وَاسْتِمْرارَهُمْ في الإِنْشادِ، وَتَمَتُّعَهُمْ بِهذَا الجَهْلِ العَظيمِ، فَوَقَفَ لِيَخْطُبَ فيهِم أَيْضًا: أَفيقوا أَيُّهَا النّاسُ! هذَا الطَّريقُ يَقودُكُمْ إِلَى الشِّرْكِ بِاللهِ، أَنْ تُمَجِّدوا أَطْفالًا وَتَقُولونَ إِنَّهُما أَوْلِياءُ اللهِ؟ فَهذا كُفْرٌ!.

لَكِنَّ النّاسَ صاحوا بِالإِنْشادِ لِلأَطْفالِ أَكْثَرَ، وَكَأَنَّهُمْ لا يَسْمَعُونَهُ، فَأَمْسَكَ العُمْدَةُ بِالبُنْدُقِيَّةِ وَصاحَ: اللّي هِيجِي هِنا عَشَانِ الأَوْلادْ وَيِهْتِفْ لَهُمْ، هاقْتُلُه!.

ضَرَبَ طَلْقَةً مِنَ البُنْدُقِيَّةِ في الهَواءِ، فَتَفَرَّقَ النّاسُ اسْتِعْدادًا لِلْفِرارِ إِلَى حَيْثُ جاءُوا، لَكِنْ قَبْلَ أَنْ يَذْهَبَ النّاسُ، رَفَضَ الجِنِّيانِ أَنْ تُقْتَلَ الفِتْنَةُ وَيَرْحَلَ النّاسُ وَيَنْتَصِرَ العُمْدَةُ وَصالِحٌ، فَحَضَرا مِنْ فَوْرِهِما عَلَى الأَطْفالِ، وَإِذا بِالأَطْفالِ تَتَحَوَّلُ نَظَراتُهُمْ، وَتَخْرُجُ مِنْهُمْ أَصْواتٌ غَريبَةٌ، وَتُنادِي عَلَى النّاسِ، وَتَسْتَعْرِضُ قُواهُمْ: نَحْنُ أَوْلِياءُ اللهِ، وَيَأْتِينَا الوَحْيُ، وَمَنْ يَتَّبِعْنا فَالْجَنَّةُ مَثْواهُ.

لَطَمَ صالِحٌ وَالعُمْدَةُ خُدودَهُما مِمَّا سَمِعا: يا نَهارْ أَسْوَدْ! هِي وَصَلَتْ لِكِدَه؟ وَصَلَتْ لِلوَحْيِ؟!.

لَكِنَّ النّاسَ بدأوا يَتَجَمَّعُونَ، وَأَصْواتُهُمْ تُزَلْزِلُ المَكانَ: لا إِلهَ إِلَّا اللهُ! الأَطْفالُ أَوْلِياءُ اللهِ!.

أَطْلَقَ العُمْدَةُ طَلْقَةً ثانِيَةً في الهَواءِ لِيُفَرِّقَ النّاسَ، وَفي هذِهِ اللَّحْظَةِ ثارَ الجِنّيانِ ثَوْرَةً عارِمَةً، وَإِذا بِالأَطْفالِ يَتَوَجَّهُونَ إِلَى راكِيَةِ النّارِ، وَيَحْمِلانِ الفَحْمَ المُتَوَقِّدَ بِأَيْدِيهِما دُونَ أَنْ تُحْرِقَهُما النّارُ، وَيَقْذِفانِ بِهِ صالِحًا وَالعُمْدَةَ، وَالجَميعُ في ذُهُولٍ.

وَتَقَهْقَرَ العُمْدَةُ وَصالِحٌ، وَدَفَعا النّارَ عَنْ نَفْسَيْهِما، وَتَقَدَّمَ الخفيرانِ مَحِيسِنٌ وَشَعْلانُ لِمَسْكِ الأَطْفالِ وَتَكْتِيفِهِما، وَلَكِنْ كانَتِ المُفاجَأَةُ أَنْ دَفَعَ كُلُّ طِفْلٍ مِنْهُما الخفيرَ الْمُوكَّلَ بِهِ، فَإِذا بِالخفيرِ يَطيرُ كَالكُرَةِ في الهَواءِ مِنْ دَفْعَةِ الطِّفْلِ لَهُ، وَيَسْقُطُ في التُّرْعَةِ وَسْطَ تَهْلِيلِ النّاسِ: اللهُ أَكْبَرُ! اللهُ أَكْبَرُ!.

وَقَفَ العُمْدَةُ وَصالِحٌ صامِتَيْنِ، وَكَأَنَّهُما مُغَيَّبانِ عَمَّا يَحْدُثُ، وَكَأَنَّ عَلَى رَأْسَيْهِما الطَّيْرُ لا يَسْتَطِيعانِ فِعْلَ أَيِّ شَيْءٍ. أَقْبَلَ النّاسُ عَلَى الطِّفْلَيْنِ يُقَبِّلُونَ أَيْدِيَهُما وَرُؤُوسَهُما وَأَقْدامَهُما، وَفَجْأَةً فَرَّ الأَطْفالُ مِنَ النّاسِ إِلَى التُّرْعَةِ لِتَزْدادَ الفِتْنَةُ وَتَتَمَرْكَزَ في قُلوبِ النّاسِ، وَهذَا مُرادُ الجِنِّيَّيْنِ، وَكَرَّرا نَفْسَ ما حَدَثَ يَوْمَ حَفْلَةِ مَوْلِدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَسارا عَلَى الماءِ، وَالنّاسُ تَجْري بِمُحاذاةِ التُّرْعَةِ مَعَ الأَطْفالِ، وَالبَعْضُ الآخَرُ قَفَزَ في التُّرْعَةِ يُحاوِلُ أَنْ يَلْمَسَهُما وَيَتَبَرَّكَ بِهِما، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعوا اللِّحاقَ بِهِما، فَالَّذِي يَسيرُ عَلَى الماءِ وَيَجْري لَيْسا الطِّفْلَيْنِ، بَلْ هُما الجِنِّيَّانِ مَنْبَعُ الشَّرِّ

كُلِّه: هِيثْمور وَسِلْهوب، وَهُما أَبْناءُ مُلوكِ الشَّرِّ وَالنّارِ، فَخَرَجَ النّاسُ مِنَ التُّرْعَةِ وَراحوا يَجْرونَ بِجِوارِ التُّرْعَةِ مَعَ الأَطْفالِ. وَسارا الأَطْفالُ حَتّى نِهايَةِ القَرْيَةِ، ثُمَّ عادَا مَرَّةً أُخْرَى وَهُما يَجْرِيانِ فَوْقَ الماءِ، حَتّى وَصَلا إِلَى مَجْلِسِ الجُمَيْزَةِ، وَخَرَجا إِلَيْهِ، وَسَقَطا بِجِوارِ والِدَيْهِما عَلَى الأَرْضِ مُغْمًى عَلَيْهِما.

أَمَرَ العُمْدَةُ الخفْرَ أَنْ يَحْمِلُوهُما إِلَى البَيْتِ، وَأَمَرَهُم أَنْ يَصْرِفوا النّاسَ، فَقامَ الخفْرُ بِتَنْفيذِ المَطْلوبِ وَتَمَّ صَرْفُ النّاسِ، وَجاءَ صَوْتٌ أُنْثوِيٌّ جَميلٌ كَأَنَّهُ مُوسيقَى مِنْ عَلَى بَيْتِ صالِحٍ يُنادي: يا صالِحُ...

نَظَرَ صالِحٌ إِلَى اتِّجاهِ الصَّوْتِ، وَإِذا بِالجِنِّيَّةِ الحَسْناءِ واقِفَةً عَلَى سَطْحِ مَنْزِلِهِ، وَقالَتْ لَهُ: ما رَأْيُكَ فِيما حَدَثَ؟.

نَظَرَ صالِحٌ إِلَى العُمْدَةِ وَسَأَلَهُ: هَلْ تَرى شَيْئًا فَوْقَ بَيْتِي؟

- لا، لا أَرى شَيْئًا.

فَقالَتْ لَهُ: لا يَرانِي أَحَدٌ سِواكَ.

- إِنْ شاءَ اللهُ، رَبِّي يُعِينُني. فَزَواجي مِنْكِ حَرامٌ شَرْعًا.

فَضَحِكَتْ في سُخْرِيَّةٍ قائِلَةً: بَراحْتَك.. أَنْتَ مَنْ سَوْفَ يَسْتَنْجِدُ بِي. أَنْتَ لَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِما، فَهُما جِنِّيّانِ قَوِيّانِ يا صالِحُ.

- لَقَدْ أَخْرَجْتُ سِلْهوبَ مِنْ سُعادَ قَبْلَ ذَلِكَ.

- نَعَمْ، بِسَبَبٍ واحِدٍ يا صالِحُ لَمْ تَعْرِفْهُ أَنْتَ، سُعادُ كانَتْ تَرْفُضُهُ، وَحاوَلَ مَعَها كَثيرًا، في اليَقَظَةِ وَالمَنامِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ، كانَتْ تَرْفُضُ اللِّقاءَ الجِنْسِيَّ، لِذَلِكَ حِينَما ضَغَطْتَ أَنْتَ عَلَيْهِ خَرَجَ.

- لِيَكُنْ، وَلَكِنْ زَواجي مِنْكِ حَرامٌ شَرْعًا، وَلا أُريدُ أَنْ أُغْضِبَ اللهَ.

اخْتَفَتِ الجِنِّيَّةُ الحَسْناءُ، وَأَسْلَما صالِحٌ وَالعُمْدَةُ جَسَدَيْهِما لِلأَرْضِ، وَناما بِجِوارِ الجُمَيْزَةِ، فَلَمْ يَقْدِرا عَلَى الحَرَكَةِ.

(٩)

تَسِيرُ الأُمُورُ مِنْ سَيِّئٍ إِلَى أَسْوَأَ. وَتَحَوَّلَتْ حَيَاةُ صَالِحٍ وَالْعُمْدَةِ إِلَى جَحِيمٍ. حَيَاةٌ بِطَعْمِ الْمَوْتِ، وَضَاقَ صَدْرُهُمَا كَمَدًا، وَضَاقَ صَدْرُهُمَا حَتَّى أَصْبَحَ التَّنَفُّسُ وَكَأَنَّهُمَا لَا يَسْتَطِيعَانِهِ، وَأَصْبَحَ الْهَوَاءُ فَاسِدًا يَحْمِلُ الْمَوْتَ فِي طَيَّاتِهِ، وَالْمُفَاجَآتُ أَحَاطَتْهُمَا وَلَا تَعْرِفُ سِوَاهُمَا. أَيَّامُهُمَا كُلُّهَا كَوَارِثُ، وَكُلُّ يَوْمٍ جَدِيدٍ هُمَا عَلَى مَوْعِدٍ مَعَ كَوَارِثَ جَدِيدَةٍ. يَوْمٌ جَدِيدٌ هُوَ هَمٌّ جَدِيدٌ، وَكَوَارِثُهُمَا لَا حَلَّ لَهَا.

أَصْبَحَتِ الْمَشَاكِلُ مُتَشَابِكَةً كَشَلَّةِ خَيْطٍ مُتَدَاخِلَةٍ لَا يُمْكِنُ فَكُّهَا، بَلْ يَجِبُ قَطْعُهَا، وَلَكِنْ كَيْفَ؟ صَالِحٌ الَّذِي يَحُلُّ كُلَّ مَشَاكِلِ النَّاسِ وَيَصْرِفُ الْجَانَّ مِنَ الْأَبْدَانِ الْبَشَرِيَّةِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصْرِفَ الْجَانَّ مِنَ الْأَوْلَادِ، لَقَدْ قَامَ بِعَمَلِ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِ جَلَسَاتٍ وَلَكِنْ بَاءَتْ كُلُّهَا بِالْفَشَلِ، فَكُلَّمَا ضَغَطَ عَلَى الْجَانِّ هَرَبَ الْجَانُّ وَأَفَاقَ الطِّفْلُ. فَالْجَانُّ يَتَعَامَلُ مَعَهُ بِخُبْثٍ، فَيَهْرُبُ قَبْلَ أَنْ يُقَيِّدَهُ صَالِحٌ.

حَاوَلَ هُوَ وَالْعُمْدَةُ، وَحَاوَلَ مَعَهُمَا أَيْضًا مَحْرُوسُ الضَّبْعِ، لَكِنْ بِلَا فَائِدَةٍ، جَانٌّ مُتَمَرِّسٌ يُلَاعِبُهُمْ، وَكُلَّ مَرَّةٍ يُهَدِّدُهُمْ بِأَنَّهُ سَيَقْتُلُ الْأَوْلَادَ، أَوْ عَلَى صَالِحٍ الِانْتِحَارُ وَالْمَوْتُ كَمَا قَتَلَتِ الْجِنِّيَّةُ أُخْتَهُ سَاكِنَةَ الْبِئْرِ، وَحِينَئِذٍ فَقَطْ يَتْرُكُونَ الْأَوْلَادَ. لَقَدِ اتَّحَدَا الْجِنِّيَّانِ

ضِدَّهُمَا، وَهَذِهِ كَارِثَةٌ جَدِيدَةٌ أَنْ يَتَّحِدَ الْجَانُّ. لَقَدْ أَصْبَحَ صَالِحٌ وَالْعُمْدَةُ سَبَبًا فِي اتِّحَادِ الْجَانِّ، وَهُمْ لَمْ يَتَّحِدُوا قَطُّ قَبْلَ ذَلِكَ، وَدَائِمًا أَعْدَاءٌ.

حَاوَلُوا كَثِيرًا طَرْدَ الْجَانِّ، وَلَكِنْ كُلُّهَا بَاءَتْ بِالْفَشَلِ. وَلَمْ يَبْقَ أَمَامَ صَالِحٍ سِوَى أَنْ يَقْرَأَ فِي كِتَابِ شَمْسِ الْمَعَارِفِ كَثِيرًا، وَأَنْ يَحْفَظَهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، رَغْمَ أَنَّهُ يَعْلَمُ جَيِّدًا أَنَّ الْجِنِّيَّ يَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ عَنْ هَذَا الْكِتَابِ، فَهُمَا أَبْنَاءُ مُؤَلِّفِ هَذَا الْكِتَابِ، يَعْلَمُ جَيِّدًا أَنَّ هَذَيْنِ الْجِنِّيَّيْنِ كُفَّارٌ مَلَاعِينُ، وَأَنَّ الْخَلَاصَ مِنْهُمَا أَصْبَحَ ضَرْبًا مِنَ الْخَيَالِ.

وَتَغَيَّرَ الْعُمْدَةُ مَعَ صَالِحٍ، وَأَصْبَحَ يُلْقِي بَعْضَ الْجُمَلِ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْهُ غَضَبًا، وَتُعَبِّرُ عَمَّا بِدَاخِلِهِ مِنْ نَارٍ تُحْرِقُ قَلْبَهُ مِنْ أَجْلِ وَلَدِهِ الْوَحِيدِ وَابْنِ أُخْتِهِ، وَهُوَ أَمَانَةٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، لِأَنَّ أَبَاهُ هُوَ مَنْ فَعَلَ بِهِمْ كُلَّ هَذَا بِعَمَلِهِ فِي مَجَالِ الْجَانِّ. فَيَقُولُ مَثَلًا: هَنِعْمِلْ إيه يَا صَالِح؟ أَنْتَ مَنْ جَلَبْتَ لَنَا الْجِنَّ وَمِشْ عَارِفْ تُخْرِجُهُ.

ثُمَّ يَقُولُ أَيْضًا: كَانَ يَوْمًا أَسْوَدَ يَوْمَ مَا أَخْرَجْنَا الْجِنَّ مِنْ سُعَادَ، أَعَادَ لَنَا الْجِنِّيَّةَ سَاكِنَةَ الْبِئْرِ ثَانِيَةً، وَسَكَنَتْ جَسَدَيْ أَوْلَادِنَا وَحَطَّمَتْهُمَا.

***

وَكَانَ صَالِحٌ يَلُوذُ بِالصَّمْتِ وَلَا يَرُدُّ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ هُوَ السَّبَبُ فِي هَذَا، وَأَنَّ الْخِدْمَاتِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا هِيَ الَّتِي جَلَبَتْ عَلَيْهِ كُلَّ هَذِهِ الْمَصَائِبِ، فَيَلُوذُ بِالصَّمْتِ، وَيَعْلَمُ جَيِّدًا أَنَّ كُلَّ الْأَعْمَالِ الَّتِي قَامَ بِهَا – وَرَغْمَ أَنَّهَا كُلَّهَا أَعْمَالُ خَيْرٍ – إِلَّا أَنَّهَا السَّبَبُ فِيمَا حَدَثَ لَهُمْ. وَيَعْتَرِفُ أَنَّهُ خَسِرَ كَثِيرًا؛ خَسِرَ زَوْجَتَهُ وَرَفِيقَةَ عُمْرِهِ، وَهَذَا ابْنُهُ أَيْضًا يَنْتَهِي أَمَامَهُ، هُوَ وَصَالِحُ ابْنُ خَالِهِ. فَقَدْ بَدَأَ الْوَلَدَانِ لَا يَأْكُلَانِ وَيَقِلُّ وَزْنُهُمَا وَيَضْعُفَانِ بِسَبَبِ المسوها هُوَ الْعُمْدَةُ بَدَأَ يُهَاجِمُهُ وَيُحَمِّلُهُ الْمَسْؤُولِيَّةَ كُلَّمَا رَآهُ، وَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ الرَّدَّ، فَإِنَّ الْعُمْدَةَ – وَهُوَ صَدِيقُ عُمْرِهِ وَتُوأَمُهُ – بَدَأَ يَفْقِدُهُ، هَلْ بَعْدَ هَذَا الْعُمْرِ يَخْسَرُهُ؟ نَعَمْ، لَهُ كُلُّ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ مِنْ أَجْلِ ابْنِهِ، وَلَكِنْ أَيْضًا ابْنِي مُصَابٌ مِثْلُهُ. إِنَّ الْحَيَاةَ أَظْلَمَتْ فِي عَيْنِ صَالِحٍ، ظَلَامٌ دَامِسٌ.إِنَّهُ الْآنَ يَتَمَنَّى أَنْ يَشْفِيَ اللهُ الْأَوْلَادَ، وَلَنْ يَعُودَ إِلَى هَذِهِ الْخِدْمَاتِ مَرَّةً ثَانِيَةً، وَلَكِنْ كَيْفَ الْوُصُولُ إِلَى هَذَا؟ إِنَّهُ أَصْبَحَ مِنَ الْمُسْتَحِيلَاتِ، لِذَلِكَ أَصْبَحَتْ جَلَسَاتُ الْجُمَيْزَةِ كَئِيبَةً، يَقِلُّ فِيهَا الْكَلَامُ، وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ لَا يَأْتِي الْعُمْدَةُ إِلَى مَجْلِسِ الْجُمَيْزَةِ مُتَحَجِّجًا بِأَعْمَالِ الْقَرْيَةِ وَالْوُفُودِ الَّتِي تَأْتِي إِلَيْهِ لِمَصَالِحِ لَهُمْ، وَصَالِحٌ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَتَهَرَّبُ مِنْهُ حَتَّى لَا يَصْطَدِمَ بِهِ.

***

بَعْدَ أَنْ عَادَ صَالِحٌ مِنْ عَمَلِهِ أَمَامَ الْمَحْكَمَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَتَنَاوَلَ غِذَاءَهُ الَّذِي أَعَدَّتْهُ لَهُ الْخَادِمَةُ أُمُّ جُمْعَةَ وَشَرِبَ الشَّايَ، أَخَذَ كِتَابَ شَمْسِ الْمَعَارِفِ الَّذِي أَصْبَحَ لَا يُفَارِقُهُ وَقَدْ قَرَأَ فِيهِ كَثِيرًا جِدًّا، وَصَعِدَ إِلَى سَطْحِ الْمَنْزِلِ فِي الْمَقْعَدِ الْعُلْوِيِّ لِيَتَصَفَّحَ الْكِتَابَ لَعَلَّهُ يَجِدُ الْحَلَّ.

وَاخْتَارَ سَطْحَ الْبَيْتِ لِيَهْرُبَ مِنْ مَجْلِسِ الْجُمَيْزَةِ وَيَبْعُدَ عَنْ نَظَرَاتِ الْعُمْدَةِ الَّذِي صَارَ يُؤَنِّبُهُ عَلَى مَا حَدَثَ لَهُمْ بِسَبَبِهِ. وَهُوَ حَزِينٌ عَلَى مَا صَارَ بَيْنَهُمَا مِنْ بُعْدٍ وَجَفَاءٍ وَتَحَفُّزٍ دَائِمٍ مِنَ الْعُمْدَةِ تُؤَامِ رُوحِهِ الَّذِي كَانَا إِذَا افْتَرَقَا يَمُوتَانِ. وَصَالِحٌ لَا يَلُومُ الْعُمْدَةَ، فَلَا يُوجَدُ مَنْ هُوَ أَغْلَى مِنَ الْابْنِ فِي الدُّنْيَا. وَمِنْ تَصَفُّحِ كِتَابِ شَمْسِ الْمَعَارِفِ وَجَدَ صَالِحٌ طَرِيقَهُ لِتَحْضِيرِ جَانٍّ قَوِيٍّ وَشَرِيرٍ يَسْتَطِيعُ تَنْفِيذَ أَيِّ طَلَبٍ مَهْمَا كَانَ، وَهُوَ أَحَدُ جَبَابِرَةِ الْجَانِّ، وَيَسْتَطِيعُ صَرْفَ أَيِّ جَانٍّ يَلْبَسُ إِنْسَانًا وَيَسْكُنُ جَسَدَهُ مَهْمَا كَانَتْ قُوَّتُهُ. وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْسُمَ الطَّلْسَمَ كَمَا هُوَ فِي الْكِتَابِ، وَيَحْفَظَ كُلَّ الْكَلِمَاتِ الَّتِي سَيَقُولُهَا لِتَحْضِيرِ الْجَانِّ، وَاشْتَرَى مَا يَلْزَمُ مِنْ بَخُورٍ وَخِلَافِهِ كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ بِالْكِتَابِ.

كَانَ صَالِحٌ يُقْبِلُ عَلَى قِرَاءَةِ الْكِتَابِ بِنَهَمٍ؛ فَإِنَّ ابْنَهُ مَرِيضٌ، وَكُلَّ يَوْمٍ عَنْ يَوْمٍ يَزْدَادُ سُوءًا هُوَ وَابْنُ خَالِهِ، وَلَا طَرِيقَ إِلَى الْخُرُوجِ

مِنْ هَذِهِ الْأَزْمَةِ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ هَذَا الْكِتَابِ وَمَا فِيهِ مِنْ أَسْرَارٍ كَبِيرَةٍ. وَإِنَّ هَذَا الْكِتَابَ مَنْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَفْهَمَهُ جَيِّدًا يَسْتَطِعْ أَنْ يَمْلِكَ قُوَّةً لَا حُدُودَ لَهَا.

وَتَمَنَّى صَالِحٌ أَنْ يَمْلِكَ هَذِهِ الْقُوَّةَ لِيَشْفِيَ الطِّفْلَيْنِ فَقَطْ، وَبَعْدَهَا سَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ خُرُوجًا نِهَائِيًّا بِلَا عَوْدَةٍ، بَلْ وَسَيُحْرِقُ الْكِتَابَ نَفْسَهُ وَالْكُتُبَ الَّتِي وَرِثَهَا عَنْ وَالِدِهِ فِي السِّحْرِ، وَمُعْظَمُهَا كُتُبٌ مَكْتُوبَةٌ بِخَطِّ الْيَدِ بِالْحِبْرِ وَالزَّعْفَرَانِ، وَلَمْ يَكْتَفِ صَالِحٌ بِالْقِرَاءَةِ فَقَطْ، وَلَكِنْ ذَهَبَ إِلَى الشَّيْخِ نُورٍ النُّوبِيِّ بِقَهْوَةِ "دَعْبَسْ" أَمَامَ الْمَحْكَمَةِ الشَّرْعِيَّةِ، فَبَيْنَهُمَا حُبٌّ وَصَدَاقَةٌ. وَقَصَّ عَلَيْهِ كُلَّ شَيْءٍ عَنْ غَضَبِ الْعُمْدَةِ مِنْهُ مِنْ أَجْلِ مَا حَدَثَ لِابْنِهِ وَمَوْتِ أُخْتِهِ زَوْجَةِ صَالِحٍ، وَكَانَ رَدُّ نُورٍ النُّوبِيِّ أَنَّهُ لَابُدَّ أَنْ يَتَحَلَّى بِالصَّبْرِ وَالْحَذَرِ وَهُوَ يَقْرَأُ فِي كِتَابِ شَمْسِ الْمَعَارِفِ، وَأَنْ يَكُونَ حَذِرًا جِدًّا إِذَا أَرَادَ أَنْ يَسْتَخْدِمَهُ، وَعَلَيْهِ بِالصَّبْرِ وَلَا سِوَاهُ حَتَّى يَسْتَطِيعَ أَنْ يُخْرِجَ الْجِنِّيَيْنِ مِنَ الطِّفْلَيْنِ، وَلَمْ يَكْتَفِ صَالِحٌ بِهَذَا، بَلْ ذَهَبَ إِلَى الْأَزْهَرِ وَحْدَهُ، فَاسْتَعَانَ بِشُيُوخِهِ وَحَكَى لَهُمْ أَيْضًا. وَكَانَ رَأْيُهُمْ نَفْسَ رَأْيِ نُورٍ النُّوبِيِّ أَنْ يَحْذَرَ هَذَا الْكِتَابَ الْمَلْعُونَ، وَبِالصَّبْرِ وَالْقُرْآنِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُخْرِجَ الْجِنَّ، وَسَيَجِدُ فِي

الْكِتَابِ وَسِيلَةً لِإِخْرَاجِ الْجِنِّيَيْنِ وَالسَّيْطَرَةِ عَلَيْهِمَا، وَلَكِنِ الْحَذَرَ ثُمَّ الْحَذَرَ.

****

نادى الخفيرُ شَعلان على صالحٍ قائلًا: يا صالح أفندي، فيه ناس عايزاك.

فنظر إليه من فوق سطح منزله، فرأى رجلًا واقفًا بجوار ركوبته، فعلم أنه غريبٌ وليس من أهل القرية، فأشار بيده أنه نازل. جلس صالحٌ والرجلُ في مجلسِ الجميزة، وإذا بالعمدةِ يأتي إليهما بعدما رأى صالحًا وضيفَه، فألقى السلامَ وجلس، وبعد السلامات والترحيب، بدأ الرجلُ يعرض مشكلته عليهما، أنّه من كفر سالم، وعنده ابنٌ يبلغ من العمر خمسًا وعشرين سنة، وقد أصابه مسٌّ من الجان، فيأتي بحركاتٍ وأصواتٍ غريبة، ويريد مساعدتَه في شفاء ابنه وإخراج هذا الجان من جسده، وهو على استعدادٍ لفعل أيِّ شيءٍ يطلبه، وقد أرسله إليه محروس الضبع، لأنَّ محروسَ الضبع فشل في إخراج الجان.

ضحك العمدةُ بسخرية، ووجَّه كلامَه إلى صالحٍ وكأنه يُؤنِّبه: هتُخرِج الجن من ابنه يا صالح؟.

نظر صالحٌ إلى العمدة وخفَض رأسَه إلى الأرض ولم يرد، مما أثار استغرابَ الرجل من الحوار بينهما ومن ردِّ فعل صالح، إذ لاذ بالصمت، وأكمل العمدةُ حديثَه موجِّهًا كلامَه للرجل: لا تغضب مني يا رجل، فعندنا ابنُ صالح أفندي وابني، قد مسَّهما جنيان وسكنا جسديهما منذ أكثر من شهر، ولم يستطع صالح أن يُخرِجَ منهما الجان... الظاهر باب النجار مخلَّع!

توقَّع العمدةُ أنَّ صالحًا سوف تغضبه هذه الكلمات ويرد عليه، لكن كانت المفاجأة أن صالحًا اعترف بصحة كلام العمدة وقال بهدوء: صحيح.. نحن عندنا مشكلة أكبر مما تتخيَّل، وباب النجار مخلَّع فعلًا.

فقام الرجلُ وانصرف في هدوء.

(١٠)

وَقَفَ العُمدَةُ لِيَذهَبَ إلى مُضِيفَتِهِ بَعدَ رَحِيلِ الضَّيفِ، وَاعتِذارِ صَالِحٍ لَهُ عَدمَ قُدرَتِهِ عَلَى المُسَاعَدَةِ، فَقَد أَصبَحَتِ الجَلسَةُ بَينَهُ وَبَينَ صَالِحٍ بِهَا جَفَاءٌ كَبِيرٌ، وَأَصبَحَ صَالِحٌ يَتَحَاشَى العُمدَةَ وَكَلَامَهُ السَّامَّ، وَكَانَ يَقُولُ: إنَّ كَلَامَهُ أَصبَحَ كَالدِّبشِ.

فَوَجَدَ عَن بُعدٍ وَفدًا قَادِمًا إلَى القَريةِ لِلأَولادِ، وَأَصوَاتُ الإنشَادِ تَملَأُ المَكَانَ، وَالوَفدُ كَبِيرٌ هَذِهِ المَرَّةَ، وَبِهِ نَاسٌ لَيسُوا فَلَّاحِينَ، بَل بِهِ أَفَندِيَّةٌ يَرتَدُونَ البَنطَلُونَ وَالقَمِيصَ وَالطَّربُوشَ، وَفُودٌ خَارِجِيَّةٌ، لَقَد أَصبَحُوا مِنَ المَشَاهِيرِ، أَحَسَّ أَنَّ الأَرضَ تَمِيدُ بِهِ.

وَفدٌ جَدِيدٌ آخَرُ! أَلَن تَنتَهِي هَذِهِ الوُفُودُ وَيَنتَهِي هَذَا الجَهلُ المُسَيطِرُ عَلَى عُقُولِ النَّاسِ؟ وَفُودٌ وَمَدِيحٌ وَإنشَادٌ!.

لَقَد لَفَت فَضِيحَتُنَا المَدرِيَّةَ كُلَّهَا، وَالكُلُّ عَرَفَ بَلِيَّتَنَا فِي أَولَادِنَا عَلَى أَنَّهَا مِنةٌ مِنَ اللهِ، وَأَنَّهُمَا أَولِيَاءُ اللهِ، وَتَأتِينَا الوُفُودُ مِن كُلِّ مَكَانٍ، فَضِيحَتُنَا قُنبُلَةٌ وَانفَجَرَت فِينَا فَقَط! وَوَسَطَ هَذَا الوَفدِ كَانَت فِرقَةُ سَالِمِ الشَّايِبُ بِزِيِّهَا وَوِشَاحِهَا وَدُفُوفِهَا وَتَمَايُلِهَا، وَالكُلُّ يَتَمَايَلُ مَعَهُم، فَكُلُّ وَفدٍ كَانَ سَالِمُ الشَّايِبُ وَطَرِيقَتُهُ مَعَهُم بِكُلِّ أَدَوَاتِهِم، وَكَأَنَّهُ هُوَ مَن يَسُوقُ لِلأَولَادِ وَيَأتِي بِالوُفُودِ.

تَمَلَّكَ الغَضَبُ مِنَ العُمدَةِ، وَصَاحَ بِأَعلَى صَوتِهِ فِي الخفرِ، وَأَخَذَ يُوَزِّعُ الأَدوَارَ مُحَيسِنٌ وَشَعلَانُ يَحمِلَانِ السِّلَاحَ وَيَضرِبَانِ فِي الهَوَاءِ لِإرهَابِ النَّاسِ وَتَفرِيقِهِم، وَبَاقِي الخفرِ يَحمِلُونَ الشُّومَ وَيَضرِبُونَ فِي النَّاسِ مُبَاشَرَةً وَبِلَا رَحمَةٍ، وَأَخَذَ العُمدَةُ يَصِيحُ فِي الخفرِ بِغَضَبٍ: اِضرِبُوهُم جَامِد! اِفتَحُوا دِمَاغَهُم! عَايِز أَشُوف دَمَّ حَتَّى تَنتَهِي هَذِهِ المَسرَحِيَّةُ، وَيَخَافُوا أَن يُكَرِّرُوهَا مَرَّةً ثَانِيَةً، وَلَا يَأتُوا قَرِيَتَنَا حَتَّى وَلَو مُجَرَّدَ العُبُورِ مِن أَمَامِهَا.

فَزِعَ صَالِحٌ وَقَالَ لِإبرَاهِيمَ: بَلَاش دَمّ، إحنا مِش نَاقِصِين!.

فَأَجَابَهُ إبرَاهِيمُ: الكَيلُ طَفَحَ يَا صَالِحُ!.

كَانَ الغَضَبُ يَكَادُ أَن يَقفِزَ مِن وَجهِ العُمدَةِ، وَكَانَت عَينَاهُ تَخرُجَانِ شَرَرًا. فَقَد وَصَلَ الغَضَبُ إِلَى مُدَاهُ. وَبَدَأَ الخفرُ يُنَفِّذُونَ الأَوَامِرَ، وَوَقَفَ مُحَيسِنٌ وَشَعلَانُ عَلَى مُقْرَبَةٍ مِن مَجلِسِ الجُمَّيزَةِ، وَبَدَآ يَسِيرَانِ فِي اتِّجَاهِ الوَفدِ قَبلَ دُخُولِهِ لِلقَرِيَةِ شَاهِرَينِ السِّلَاحَ وَجَاهِزَينِ لِلضَّربِ، وَدَخَلَ بَاقِي الغُفرِ فِي تَحَفُّزٍ حَامِلِينَ الشُّومَ. وَقَبلَ أَن يَلتَحِمَ الفَرِيقَانِ، يَبْدُو أَنَّ الجَانَّ كَانَ لَهُ رَأْيٌ آخَرُ، مِثلَ الوَاقِعَةِ الأَخِيرَةِ حِينَ أَمسَكَ النَّارَ وَأَلقَاهَا عَلَى صَالِحٍ وَالعُمدَةِ، وَضَرَبَ الخفرَ وَقَذَفَهُم فِي التُّرعَةِ، وَكَأَنَّهُم دُمَى بِيَدِهِ، وَالسَّيرُ عَلَى المَاءِ... لَن يَسمَحَ الجَانُّ بِفَوزِ الإنسِ عَلَيهِمَا وَإِنهَاءِ الفِتنَةِ

الَّتِي بَدَأَهَا، وَخُصُوصًا الجِنِّي هَيثُمُور، فَهُوَ شِرِّيرٌ بِطَبعِهِ، وَإِنَّهُ مُحِبٌّ لِلنَّارِ وَالدَّمَارِ، وَيَوَدُّ أَن يَفتِنَ النَّاسَ فِي دِينِهِم، يُرِيدُ أَن يَصِلَ النَّاسُ إِلَى عِبَادَةِ الطِّفلَينِ، فَهُمَا دَائِمًا يُوصِلَانِ مَن يَلمِسُ جَسَدَهُمَا إِلَى عِبَادَتِهِمَا، وَإِن كَانَت أُنثَى فَمُوَاقَعَتُهَا، وَطَاعَةُ الأُنثَى لَهُ حَتَّى العِبَادَةِ.

فَجأَةً ظَهَرَ الطِّفلَانِ وَهُمَا يَجرِيَانِ فِي اتِّجَاهِ الوَفدِ، وَيَمُرَّانِ عَلَى مَجلِسِ الجُمَّيزَةِ وَكَأَنَّهُمَا لَا يَرَيَانِ أَحَدًا، وَهُمَا يَأتِيَانِ بِأَصوَاتٍ غَرِيبَةٍ وَيَصِيحَانِ: اتركوهم.. أحبابنا اتركوهم. مريدينا اتركوهم.

تسمر صالح والعمدة من شدة ما يريان. إنه عجب العجاب فالقصة بلا نهاية، الفيلم الهزلي مستمر ويلعب بهم وبعقولهم. لم يفعلا أي شيء، وإنما السؤال ماذا يريد الجان منهما؟ لماذا يأتي في هذا التوقيت ليشعل فتنة الدين؟ إنها الحرب الضروس بيننا، هلل الناس وتعالت الأصوات تمجيدا للأطفال: لا إله الا الله. الأولاد أحباب الله. لا اله الا الله إبراهيم ولي الله. لا إله الا الله وصالح ولي الله.

هاج صالح والعمدة: أضربوهم خلصونا منهم. دا كفر.

وإذا بكارثة أكبر تقع على رأس العمدة وصالح لم يتوقعاها أو حتى تمر ببالهما ولو رويت لهما لن يصدقاها، إذا بالطفلين يطيران في الهواء وسط صراخ الناس وتهليلهم ورقصهم مما يحدث، حتى الخفر رقصوا مع الناس من هول المفاجأة، وهل هناك مفاجأة مثل هذه؟. هل هناك حدث يقترب ولو على بعد مسيرة أعوام من هذا الحدث؟ أن يطيرا في الهواء!! إنها ذروة الفتنة في الدين، فالناس تكاد أن تسجد للأطفال مما يرونه.

أَفَاقَ العُمدَةُ مِمَّا يَرَى، وَأَمسَكَ عَصًا، وَأَخَذَ يَضرِبُ فِي الخفرِ الَّذِينَ انْدَمَجُوا مَعَ النَّاسِ فِي الرَّقصِ فَرَحًا بِطَيَرَانِ الأَطفَالِ فِي الهَوَاءِ، صَائِحً: فُوق يَا حِمَارُ إِنتَ وَهُوَّ، وَاضرِبُوا الحَمِيرَ اللِّي مِثلُكُم!. بَدَأَ الخفرُ يَضرِبُونَ النَّاسَ بِالشُّومِ وَيُفَرِّقُونَهُم، وَلَكِن هَيهَاتَ أَن يَرحَلُوا وَيَترُكُوا مَشهَدَ الأَطفَالِ فِي الهَوَاءِ، وَإِذَا بِمُحَيسِنِ الخفِيرِ تَخرُجُ طَلَقَةٌ مِن بُندُقِيَّتِهِ عَفوًا مِن اهتِزَازِهَا بِيَدِهِ، وَتَلَاهَا شَعلَانُ بِطَلَقَةٍ مِن بُندُقِيَّتِهِ فِي الهَوَاءِ، ظَانًّا أَنَّ مُحَيسِنَ أَطلَقَهَا قَاصِدًا لِتَفرِيقِ النَّاسِ، وَمَعَ دَوِيِّ الرَّصَاصِ تَفَاجَأَ الجَمِيعُ بِسُقُوطِ الطِّفلَينِ عَلَى الأَرضِ مَغشِيًّا عَلَيهِمَا، فَحَمَلَهُمَا الخفرُ إِلَى مَجلِسِ الجُمَّيزَةِ، وَتَفَرَّقَ النَّاسُ وَعَادُوا إِدرَاجَهُم بَعدَ ضَربِ الخفرِ لَهُم بِالشُّومِ، عَادُوا وَهُم يُنشِدُونَ نَفسَ النَّشِيدِ.

جَلَسَ العُمدَةُ وَصَالِحٌ بِجِوَارِ الأَولَادِ، وَقَالَ صَالِحٌ لِلعُمدَةِ: لَاحَظتُ حَاجَةً غَرِيبَةً يَا عُمدَةُ.

رَدَّ وَهُوَ مَا زَالَ غَاضِبًا وَفِي أَوْجِ غَضَبِهِ: غَرِيبَةٌ إِزَّاي؟ وَإِيهِ هِيَّ؟.

قَالَ صَالِحٌ: أَوَّلُ الجَانّ مَا سَمِعَ صَوتَ الرَّصَاصِ هَرَبَ، وَوَقَعَ الأَطفَالُ عَلَى الأَرضِ، لَم يُنزِلْهُمَا حَتَّى لِلأَرضِ بِأَمانٍ، بَل فَرَّ بِجِلدِهِ خَوفًا مِنَ الرَّصَاصِ.

فَقَالَ العُمدَةُ: يَعنِي إِيه؟ نَقتُلُ الأَولَادَ؟ نِضرِبُهُم بِالرَّصَاصِ؟.

قَالَ صَالِحٌ: لَا.. نفكر بس. إِحنَا وَجَدنَا حَاجَةً الجَانُّ يِخَافُ مِنهَا وَيَهرُبُ مُسرِعًا.

فَقَالَ العُمدَةُ: أَنَا عِندِي حَاجَةٌ أَفضَلُ.. أَسأَلُ الجِنِّيَّةَ السَّاحِرَةَ لَو كَانَت تُوَافِقُ أَن تَتَزَوَّجَنِي أَنَا مُقَابِلَ شِفَاءِ ابنِي وَابنِ أُختِي.

هَزَّ صَالِحٌ رَأسَهُ آسِفًا وَقَالَ: يَعنِي مِش ابنُ أَخُوك؟! اِسأَلْهَا إِنتَ يَا عُمدَةُ، أَنَا هَكتُب لَك جُملَةَ استِدعَائِهَا.

فَقَالَ العُمدَةُ: لَا... هِيَّ بِتِسمَع كَلَامَك إِنتَ، لِأَنَّهَا بِتِحبَّك إِنتَ. اِعرِض عَلَيهَا.

(ثُمَّ مُوَجِّهًا كَلَامَهُ لِلغُفرِ) شِيلُوا الأَولَادَ وَوَدُّوهُم البَيتَ.

وَذَهَبَ العُمدَةُ تَارِكًا صَالِحًا جَالِسًا وَحدَهُ.

(١١)

انتشرتْ واقعةُ طيرانِ الأولادِ في الهواءِ، مثلما انتشرَ سيرُهما على الماءِ، وعبَرَتِ القُرى والنواحي إلى المدنِ مثلَ بَنْها، المدينةِ الأمِّ عندَهم، وغيرها.

انتشرَ الخبرُ كانتشارِ الفيروساتِ في البشر، وكأنّها كوليرا جديدةٌ أصابتِ الناسَ ولكنْ بلا علاجٍ؛ كوليرا على هوى وحُبِّ الناس، كوليرا لم يستطيعوا مقاومتَها، بل أحبُّوها وروَّجوا لها، وجُنَّ الناسُ ممّا رأوا، وسكنتْ هذه الفتنةُ عقولَ وقلوبَ الناس، وأصبحوا مرضى بابنَيْ صالحٍ والعمدةِ، وتوالتِ الوفودُ على القريةِ بلا توقُّفٍ من كلِّ حَدَبٍ وصَوبٍ، بل وذهبَ العُمَدُ والأعيانُ وكبارُ القومِ في الناحيةِ كلِّها إلى بيتِ العمدةِ بعدَ طيرانِ الأولادِ وتحليقِهم في الهواءِ، ليسلِّموا ويأخذوا البركةَ من الطفلَيْنِ أولياءِ اللهِ الصالحين. الكلُّ يُردِّد: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وكانتْ حُجَجُهم فيما بينهم أنّها عبَرتِ كل القصصَ والحكايات الخياليةَ والأساطيرَ المتراكمةَ عندنا.

الآن هناك أُناسٌ عاديون فعلوا هذه المعجزات، السيرُ على الماءِ والطيرانُ في الهواءِ، والغريبُ والمثيرُ هنا أنّهم أطفالٌ؛ أطفالٌ يسيرون على الماءِ ويطيرون في الهواءِ، وهذه أشياءُ لا يتمُّ

التدريبُ عليها ولا تعلُّمُها، فكانت بالنسبةِ لهم معجزاتٍ أكبرَ من الخيالِ وأكبرَ من استيعابِ عقولِهم؛ فقد أفقدتْهم عقولَهم، وعاشوا دَراويشَ للأطفال؛ فهم – ولا شكَّ – مُقرَّبون إلى اللهِ الذي منحَهم هذه القدرةَ عن غيرهم واختصَّهم بها. وهذه القدرةُ الخارقةُ لا تأتي صُدفةً أو بلا هدفٍ، إنّها إشارةٌ من الله، والتي لم يمنحْها لسواهم. بل وقالوا: إنّ الأنبياءَ أنفسَهم لم يسيروا على الماءِ ولم يطيروا في الهواءِ.

لذلك كان الأطفالُ بالنسبةِ للناس شيئًا كبيرًا وخطيرًا جدًّا، وهذا ما أحزنَ صالحًا والعمدةَ وكادا أنْ يموتا كمدًا.

***

كان على العمدةِ أنْ يستقبلَ العُمَدَ والأعيانَ أمثالَه، والنائبَ البرلمانيَّ، وناسًا من الحزبِ، ومأمورَ القسمِ الذي شاهدَ قبلَ ذلك حريقَ القريةِ وقال: إنّه شُغلُ عفاريت. ولم يستطعِ العمدةُ أنْ يفكِّرَ مجرّدَ التفكيرِ في أنْ يردَّ هؤلاءِ الكبارَ عن زيارةِ الأولادِ؛ فهذا الردُّ حتمًا سيُغضبُهم، وسوف يخسرُهم، وتكون مقاطعةً، وكلٌّ منهم يحتاجُ الآخرَ، ولم يستطعْ أنْ يردَّ هداياهم، لأنّه لو استقبلَهم وردَّ هداياهم لأعطى ذلك النتيجةَ نفسَها، وهي عدمُ

تقديرِهم، وردُّ الهديةِ عند الكبارِ صعبٌ جدًّا، يعني الندّيةَ والتكبر والخصامَ نتيجةً لذلك الردِّ.

وجدَ العمدةُ عنده كومًا من الغلّاتِ من الأعيانِ والعُمَدِ فقط، لأنّه كان يردُّ ويُفرّقُ وفودَ عامّةِ الناس، وأمّا أموالُ الكبارِ التي يُعطونَها للأطفالِ بعد أنْ يقوموا بالسلامِ عليهم وتقبيلِ رؤوسِهم وأيديهم، فهي أموالٌ ليست بالقليلة، فقد بلغَ دخلُ الطفلَيْنِ خلال شهرين بلغَ دخلُ الطفلَيْنِ من هذه الأحداثِ ما لا يقلُّ عن خمسمائةِ جنيهٍ، وفي ذلك الوقتِ وبهذا المبلغِ يستطيعُ المرءُ شراءَ عشرةِ أفدنةٍ، لكنَّ إبراهيمَ الرفاعيَّ يخافُ اللهَ، ويخافُ أنْ يتحمَّلَ فتنةَ الناسِ في دينِهم، وهو ليس بحاجةٍ إلى الأموال، فليس عنده قلّةٌ منها، بل عنده من الأموالِ والأطيانِ الكثيرُ، إنّما كان يتّقي اللهَ في كلِّ شيءٍ، ويخافُ على الأولادِ أن يَضيعوا منه بسببِ هذه الفتنةِ وهذا المالِ الحرام، كما أفتاه قلبُه، وأنْ يؤدّيَ ذلك إلى ضَّعفِ الإيمان للناسِ وإلى التَّهلكةِ، ويكونَ هو السببَ بعدم منعه. وهذه الأموالُ الحرامُ، كيف يقبلُها، وإنْ كانتْ أموالًا لم يُسرقْها أو يأخذْها غَصبًا أو نَصْبًا، بل أعطاها الناسُ للأطفالِ عن طيبِ خاطرٍ.

لكنّ الكارثةَ أنّه إذا رفضَ الأموالَ والهدايا غضبوا منه، إلّا أنّها جاءت بسببِ ضعفِ الإيمانِ وتقديسِ الأطفالِ. فهي مثلُها مثلُ ما كان يُقدَّمُ على الأنصابِ التي كانت تُقدِّمُها الكفّارُ للأوثانِ؛ فهي حرامٌ وكريهةُ الرائحةِ.

***

عادتِ الوفودُ إلى قُراها، وانقسمَ الحوارُ بينهم إلى ثلاثةِ آراءٍ:

الرأي الأول أنّ العمدةَ يخافُ الحسدَ ويحاولُ أنْ يحميَ الأولادَ منّا، ويدّعي أنّ بهما مَسًّا من الجان، وأنّ هذه الأعمالَ ليستْ خارقةً كأولياءِ اللهِ الصالحين، وأين الصلاحُ في أطفالٍ سنُّهم عشرُ سنواتٍ ولم يبلغا الحُلُمَ بعدُ؟! ويقول هذا خوفًا عليهما، مثل: "يا ناسُ، إنّهما مرضى". وهذه محاولةٌ منه لحمايتِهما من الحسد.

الرأي الثاني آخرونَ يقولون: إنّه يريدُ أنْ يمنعَنا من لقائِهما حتى لا نأخذَ البركاتِ ويغفرَ اللهُ لنا خطايانا بتقرّبِنا إليهما بالعطايا التي نعطيها لهما، فنأخذُ بها حسناتٍ ويدخلُنا اللهُ الجنّة.

إنّه أنانيٌّ يريدُ كلَّ الخيرِ له وحدَه، ولا يريدُ الخيرَ للآخرين.

الرأي الثالث لا، بل يخافُ الحكومةَ أنْ تأتيَ وتحاولَ أنْ تُنهي هذه التجمّعاتِ حول الأطفالِ حتى لا يحدثَ بلبلةٌ وجمهرَةٌ، وقد

يأخذونَ منه العموديّةَ، ولم يُصدّقْ أحدٌ من الوفودِ العمدةَ فيما قالَه عن مرضِ الأطفال، ومهما يقول، فإنّ الناسَ تُحبُّ أنْ تُصدّقَ هذه الأشياءَ الخارقة، وكأنّها تبحثُ عن أشياءَ تُقوّي إيمانَها، أشياءَ لا يفعلُها الناسُ ولكنّهم دائمًا يبحثونَ عن معجزاتٍ – ولو كانت زائفةً – وإنْ لم يجدوها صنعوها بأنفسِهم ولأنفسِهم. والغريبُ أنّهم يُصدّقونَها! فلا غرابةَ أنْ يُصدّقَ الناسُ أنّ فرعونَ إله، ولكنّ الغريبَ حقًّا أنْ يُصدّقَ فرعونُ نفسَه ويُصدّقَ أنّه إله، وهو من صنعَ الأكذوبةَ وصدّقَها.

لقد قال والدَا الطفلَيْنِ إنّهما مرضى، ولكنّ الناسَ صنعتِ الأسطورةَ وصدّقتها.

(١٢)

دَخَلَ مَحروسُ الضَّبْعُ على العُمدةِ في مُضيفَتِه، مَركَزِ الحُكمِ بالقريةِ، في زيارةٍ أُخُوِّيَّةٍ، فهُما أصدقاءُ، وبينَهُما جَلساتٌ لإخراجِ الجانِّ، وأرادَ أن يقومَ بجولةِ صُلحٍ وتهدِئةٍ بينَهُ وبينَ صالحٍ، بعدَما حَكى صالحٌ لمَحروسَ كيفَ سارتِ الأُمورُ بينَهُ وبينَ العُمدةِ، وأنَّ العُمدةَ قد تغيَّرت لهجتُه معه، ويَحمِلُه مسؤوليةَ موتِ أُختِه، وحَريقِ القريةِ، وموتِ الغَفيرِ دَقدق، والشيخِ عويس شيخِ الجامعِ، ومَسِّ الأولادِ. وقالَ لمَحروسَ: لَقَد حَمَلني اللَّيلةَ كُلَّها، وأنَّ كُلَّ هذا حَدَثَ بِسَبَبِ دُخولي عالَمَ الجِنِّ، وأنا مَن أتيتُ بِكُلِّ هذه الكَوارِثِ، وعَلَيَّ إصلاحُها.

جَلَسَ مَحروسُ مع العُمدةِ وفَتَحَ المَوضوعَ، وتَرَكَ العُمدةَ يَروي له كُلَّ ما يُريد، تَرَكَهُ يَتَحَدَّثُ كَيفَما شاءَ، ولم يُقاطِعْهُ؛ ليُخْرِجَ كُلَّ ما يَجولُ بِنَفسِه وبِخاطِرِه، يُخْرِجُ كُلَّ ما في جَوفِه، وحَكى له أنَّ كُلَّ ما نَحنُ فيه، وكُلَّ ما نُعانيه، بِسَبَبِ جَلساتِ إخراجِ الجانِّ. لَقَد جَلَبَ علَينا صالحٌ كُلَّ هذا الدَّمارَ والخَرابَ، وها هيَ الأَطفالُ مَرضى؛ فالمَرَضُ السُّفليُّ يَكادُ أن يَفتِكَ بِهِما، وكُلَّ يومٍ تَسوءُ صِحَّتُهُما، ويَضْمُرُ جَسَدُهُما مِمَّا بِهِما مِن مَسٍّ. فماذا نَفعَلُ، وكُلُّ هذا بِسَبَبِ صالحٍ وجَلساتِه؟.

بَدَأَ مَحروسُ الضَّبْعُ يَتَحَدَّثُ، واستخدَمَ عقلَهُ جَيّداً، فرتَّبَ أَفكارَهُ ورتَّبَ عِباراتِه، وبدأَ يَتَحَدَّثُ حَديثاً هادِئاً، فهُو حَبيبٌ لِلِاثنَينِ، فراحَ يُدَغدِغُ عواطِفَ العُمدةِ على صَديقِ عُمرِه، وقالَ له: بِصَراحةٍ يا عُمدة، لو أَحَدٌ قالَ لي إنَّ الشَّمسَ أَشرَقَت مِنَ المَغرِبِ وغابَت في المَشرِقِ سوف أُصَدِّق، ولكِن أن يقولَ إنَّ هُناك خِلافاً بَيْنَ صالحٍ والعُمدةِ، فهَذا لَن أُصَدِّقَهُ لِأَنَّهُ مُستَحيلُ الحُدوثِ. فالعَلاقةُ بَينَكُما أَقرَبُ مِنَ الأُخوَّةِ، وأَكبَرُ مِنَ الصَّداقةِ، عَلاقةٌ نَظيفةٌ طاهِرةٌ، كَيفَ تَهُزُّها حَركاتُ الجانّ، ونَحنُ نَعلَمُ أَنَّ الجانَّ أَقسَى مِنَّا في هذا. إنَّهُ يَستَطيعُ الطَّيرانَ في الجَوِّ، والسَّيرَ على الماءِ، ويَستَطيعُ فِعلَ كُلِّ شَيءٍ وأَيِّ شَيءٍ.

لِماذا نَجعَلُهُم يُفَرِّقونَ بَينَنا؟ عَلَينا أَن نَضَعَ يَدَنا في أَيدي بَعضِنا، ونُفَكِّرَ كَيفَ نَخرُجُ مِن هذِه الكارِثةِ، وأَنتُما أَهلٌ لَها أَنتَ تَحُلُّ مَشاكِلَ النَّاحيةِ كُلِّها، وصالِحٌ يُخرِجُ الجانَّ مِن كُلِّ الأَجسادِ لِلَّهِ وَحدَهُ، حُبّاً لِلَّهِ وحُبّاً في فِعلِ الخَيرِ.

لَكِن هذانِ الجِنّيانِ ـ وأَنا أَعلَمُ الكَثيرَ عَنهُما ـ فَهُما هيثمور وسَلهوب، مِن أَخطَرِ أَنواعِ الجانّ الشِّريرِ؛ فلابُدَّ أَن تَضَعا أَيدِيَكُما مَعاً، وَتَتَّحِدانِ لِإخراجِ الجانّ، فالجَانُّ يُريدُ فِتنَةَ النَّاسِ في دِينِهِم، وأَنتَ أَعلَمُ بِهذا ويُريدُ أَن يُفَرِّقَ بَينَكُما، لِأَنَّكُما مَن تَصنَعونَ

الخَيرَ في النَّاسِ كُلِّها بِلا تَفرِقَةٍ، وهُو يَكرَهُ الخَيرَ وَفاعِلِيهِ؛ لِأَنَّهُ جانٌّ شِريرٌ.

أَمَّا يا جَنابَ العُمدةِ عنِ المالِ الَّذي جاءَكَ، وَهذِهِ الغِلالُ، وأَنا أَعلَمُ أَنَّكَ لَستَ في حاجَةٍ إِلَيها، وأَنتَ تَقولُ إِنَّها مالٌ حَرامٌ، فَوَزِّعها على الفُقَراءِ، فَهُم في حاجَةٍ إِلَيها. وهيَ لَيسَت حَراماً؛ لِأَنَّها آتِيَةٌ بِإرادَةِ النَّاسِ وَحُبِّهِم، إِنَّكَ لَم تُجبِر أَحَداً على ذلك، ولَم تَغتَصِبها، وإِذا رَدَدتَها، سَوفَ يَغضَبُ الأَعيانُ، وتَكونُ فُرقَةً. وإِذا كُنتَ تَرى أَنَّها لِلأَولادِ، وأَنَّهُم افتُتِنوا فيهِما، فإِن تُعطِيها لِلمُحتاجينَ، فَفيها كُلُّ الخَيرِ. وبِها... يَشفِي اللهُ الأَولادَ، كما قالَ رَسولُنا الكَريمُ: «داوُوا مَرضاكُم بالصَّدَقَةِ». وَعَلَينا أن نُعالِجَ الأَطفالَ بَدَنِيّاً، نُرسِلُهُم إلى الطَّبيبِ في الوِحدةِ الصِّحِّيَّةِ، بَل ويَأتي الطَّبيبُ إِلَيهِما هُنا، حتّى لا يَراهُم أَحَدٌ بالوِحدةِ الصِّحِّيَّةِ. يَأخُذانِ عِلاجاً فاتِحاً للشَّهِيَّةِ لِيَأكُلا حتّى لا يَفقِدا أَوزانَهُما، عَلَينا أن نَسيرَ في الاِتِّجاهَينِ، ونَجلِسَ ونُفَكِّرَ ماذا نَفعَلُ، خاصَّةً وأَنَّ صالِحاً عِندَهُ أَشياءُ كَثيرةٌ وَجَدَها في كِتابِ شَمسِ المَعارِفِ، وأَنا ذاهِبٌ إِلَيهِ الآنَ لِأُناقِشَهُ فيها، وَعَلَيكَ أن تُقَرِّرَ يا حَضرَةَ العُمدةِ ما أَنتَ فاعِلٌ، فَنَحنُ في حاجَةٍ إِلَيكَ. ثُمَّ ضَحِكَ مَحروسُ الضَّبعِ وقالَ: تَعرِفُ يا عُمدة، أَنا لَو مَكانَكَ كُنتُ أَستَخدِمُ ما يَحدُثُ

لِصالِحي، أَنا لا أَقصِدُ المالَ أَو الغِلالَ فَقَط، ولَكِنَّكَ لَو تَقَدَّمتَ لِانتِخاباتِ مَجلِسِ النُّوّابِ سَتَأخُذُ المَرتَبَةَ الأُولى، وَسَتَمسَحُ مَن يُنافِسُكَ، حَتّى لَو كانَ رَئيسَ الحِزبِ نَفسَهُ، وَسَتَجِدُ نَفسَكَ نائِباً في البَرلَمانِ بِسَبَبِ هذَينِ الطِّفلَينِ، وَحُبِّ النّاسِ لَهُما، سَتَحصُدُ الأَصواتَ حَصداً كَحَصادِ الأَرزِ.

فَضَحِكَ العُمدةُ بِصَوتٍ عالٍ وقالَ: نُفَكِّرُ يا مَحروسُ في المَوضوعِ دَه، أَنتَ باينٌ عَلَيكَ مِش بَتُخرُجُ العَفارِيت، دَه أَنتَ عِفرِيتٌ أَصلاً، رُوح نادِي صالِح.

***

خَرَجَ مَحروسُ الضَّبعِ في خِفَّةٍ، تَقفِزُ الفَرحَةُ مِن عَينَيهِ لإحضارِ صالِحٍ أَفَندِي، ويَتِمُّ الوِفاقُ بَينَهُما، فَقَد أَحرَزَ نَصراً كَبيراً.

وَصَلَ إلى بابِ المُضيفَةِ، فَوَجَدَ صالِحاً جالِساً بِجِوارِ الجُمَيِّزَةِ، وَبِجانِبِهِ الطِّفلانِ يَلعَبانِ الكُوتشينَةَ، وَيَتَحَدَّثُ مَعَ الغَفيرِ شَعلان، ويَشرَبانِ الشّايَ، وَالرّاكِيَةُ مُشتَعِلَةٌ، فَأَشارَ إلى العُمدةِ لِيَرى، فَأَتَى وَشاهَدَ وَابتَسَمَ، وَقالَ لَهُ: تَعالَى نَروحْ نُقعُدْ مَعاه، القاعِدَةُ بَدَأَت بَدري اليَوم.

(١٣)

جَلَسَ الثَّلاثَةُ: صَالِحٌ، وَالْعُمْدَةُ، وَمَحْرُوسٌ، وَلَمْ يَتَعَاتَبْ أَحَدٌ. فَمَا بَيْنَهُمْ تَكْفِيهِ نَظْرَةٌ فَقَطْ أَوْ بَسْمَةٌ وَيَنْتَهِي كُلُّ شَيْءٍ، فَمَا بَيْنَهُمْ أَكْبَرُ مِنَ الْعِتَابِ، وَجَلَسُوا جَلْسَةَ عَمَلٍ بِمَا تَعْنِيهِ الْكَلِمَةُ مِنْ مَعْنًى؛ لِذَلِكَ رَتَّبَ صَالِحٌ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي سَوْفَ يَتَحَدَّثُ فِيهَا وَيُنَاقِشُهُمْ فِيهَا تَرْتِيبًا رَائِعًا حَتَّى تَكُونَ الْمُنَاقَشَةُ مُفِيدَةً، وَأَصَرَّ أَنْ أَيَّ مَوْضُوعٍ لَنْ يَتَحَمَّلَهُ مُنْفَرِدًا، وَلَابُدَّ مِنْ مُوَافَقَةِ الْعُمْدَةِ عَلَيْهِ؛ فَقَدْ خَافَ أَنْ تَزِيدَ الْكَوارِثُ، فَرُبَّمَا يَأْتِي الْجَانُّ بِأَشْيَاءَ جَدِيدَةٍ غَيْرِ السَّيْرِ عَلَى الْمَاءِ أَوِ الطَّيَرَانِ فِي الْهَوَاءِ، وَيَكُونُ هُوَ السَّبَبَ؛ فَلَابُدَّ أَنْ نُلْغِيَ تُهْمَةَ "مَنْ الْمَسْئُولُ؟" وَأَنْ تَكُونَ الْمَسْئُولِيَّةُ مُجْتَمِعَةً.

وَتَحَدَّثَ مَحْرُوسٌ قَائِلًا: إِنَّنَا فِي مَرْكَبٍ وَاحِدٍ، وَلَابُدَّ لَنَا أَنْ نَقُومَ بِالتَّجْذِيفِ مَعًا حَتَّى نَصِلَ إِلَى بَرِّ الْأَمَانِ، وَلَابُدَّ أَنْ تَكُونَ الْقِيَادَةُ مُجْتَمِعَةً، وَأَنْ يَكُونَ هُنَاكَ نِقَاشٌ فِي أَيِّ خُطْوَةٍ، حَتَّى تَكُونَ الْمَسْئُولِيَّةُ وَاحِدَةً لِلْجَمِيعِ، وَالْحِمْلُ وَاحِدًا، وَكُلُّ وَاحِدٍ عَلَيْهِ أَنْ يَتَحَمَّلَ الْمَسْئُولِيَّةَ، وَلَا يُلْقِي عَلَى الْآخَرِ اللَّوْمَ. وَقَالَ جُمْلَةً حَاكِمَةً: فَلَا لَوْمَ بَعْدَ الْيَوْمِ.

جَلَسَ الْعُمْدَةُ يَسْتَمِعُ وَلَمْ يُبْدِ أَيَّ رَأْيٍ، وَفَضَّلَ الِاسْتِمَاعَ أَوَّلًا، ثُمَّ قَالَ لِصَالِحٍ: قُلِ الْأَفْكَارَ الَّتِي عِنْدَكَ يَا صَالِحُ، نَدْرُسْهَا وَنَرَى الْأَفْضَلَ وَنَبْدَأْ بِهِ.

بَدَأَ صَالِحٌ يَتَكَلَّمُ، وَعَرَضَ أَفْكَارَهُمْ عَلَيْهِمْ بِهُدُوءٍ وَتَأَنٍّ، وَكَانَ كُلَّمَا أَلْقَى فِكْرَةً طَلَبَ مِنْهُمْ دِرَاسَتَهَا قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ بِفِكْرَةٍ جَدِيدَةٍ، وَأَوَّلُ مَا بَدَأَ بِهِ صَالِحٌ، وَقَبْلَ أَنْ يَتَحَدَّثَ عَنِ الطُّرُقِ الثَّلَاثَةِ، قَدَّمَ وَرَقَةً لِلْعُمْدَةِ وَقَالَ لَهُ: هَذِهِ هِيَ الشِّفْرَةُ الَّتِي تُحْضِرُ بِهَا الْجِنِّيَّةَ الْحَسْنَاءَ (كَالِيسَا)، وَإِنْ نَجَحْتَ وَتَزَوَّجْتَهَا يَا عُمْدَةُ، فَسَوْفَ تُرِيحِينَا مِنْ كُلِّ مَا نُعَانِيهِ، وَتُخْرِجُ لَنَا الْجِنَّيْنِ مِنَ الْأَوْلَادِ مُقَابِلَ زَوَاجِكَ مِنْهَا.

فَكَانَ رَدُّ الْعُمْدَةِ: تَمَامٌ، وَأَتَمَنَّى مِنَ اللَّهِ أَنْ تُوَافِقَ، وَنَنْتَهِيَ مِنْ هَذَا الْكَابُوسِ، وَلَا مَانِعَ أَنْ أُضَحِّيَ بِنَفْسِي مِنْ أَجْلِ الْأَوْلَادِ.

وَبَدَأَ صَالِحٌ يَطْرَحُ الْأَفْكَارَ، وَعَنِ الْفِكْرَةِ الْأُولَى أَنَّهُمْ يَذْهَبُونَ إِلَى شُيُوخِهِمْ بِجَامِعِ الْأَزْهَرِ، وَيَأْخُذُونَ الْأَطْفَالَ مَعَهُمْ، وَيَرَوْا رَأْيَهُمْ، وَيَدْرُسُونَ رَأْيَ الشُّيُوخِ مَعًا، وَبَعْدَهَا يُقَرِّرُونَ مَعًا مَاذَا يَفْعَلُونَ.

الطَّرِيقَةُ الثَّانِيَةُ هِيَ أَنْ يُنَفِّذَ مَا قَرَأَهُ فِي كِتَابِ شَمْسِ الْمَعَارِفِ.

هُنَاكَ طَرِيقَةٌ لِتَحْضِيرِ جَانٍّ كَبِيرٍ، وَهُوَ أَحَدُ مُلُوكِ الْجَانِّ مِنْ

أَصْحَابِ الْقُوَّةِ وَالنُّفُوذِ، وَنَطْلُبُ مِنْهُ إِخْرَاجَ الْجِنَّيْنِ، وَنَرَى مَاذَا هُوَ فَاعِلٌ.

وَأَمَّا الطَّرِيقُ الثَّالِثُ فَهُوَ يَحْتَاجُ نِقَاشًا كَبِيرًا، لَوْ تَذْكُرُ يَا عُمْدَةُ، مَا إِنْ سَمِعَ الْجِنَّيَانِ صَوْتَ الرَّصَاصِ حَتَّى فَرَّا، وَتَرَكَا الْأَوْلَادَ يَسْقُطُونَ عَلَى الْأَرْضِ، وَقُلْتُ لَكَ إِنَّهُمَا يَخَافَانِ الرَّصَاصَ، لِذَلِكَ فَرَّا بِنَفْسِهِمَا. فَرَدَّ الْعُمْدَةُ: يَعْنِي نُمَوِّتُهُمَ؟

فَقَالَ صَالِحٌ: بَلَاشْ تَهَكُّم، أَنَا لَمْ أَقُلْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ مَا حَدَثَ مَعِي وَأَنَا أُحَضِّرُهُ لِأُخْرِجَهُ مِنْ جَسَدِ ابْنِي إِبْرَاهِيم، طَلَبَ مِنِّي أَنْ أَسْجُدَ لَهُ لِيَتْرُكَ ابْنِي، وَهُوَ الْجَانُّ "هِيثْمُور" ابْنُ مَلِكِ الشَّرّ.

فَرَدَّ الْعُمْدَةُ وَمَحْرُوسٌ مَعًا: يَا سَنَةً سُودَة! سُجُود؟!.

فَقَالَ صَالِحٌ: أَهْ، سُجُود. سَأَقُومُ بِتَحْضِيرِهِ، وَعِنْدَ طَلَبِهِ أَنْ أَسْجُدَ لَهُ، سَأَقُولُ لَهُ: "مُوَافِقٌ" عَلَى أَنْ يَخْرُجَ، وَأَسْجُدُ لَهُ، فَلَا يَجِبُ أَنْ أَسْجُدَ لَهُ وَهُوَ دَاخِلُ ابْنِي، لِأَنَّهُ سَيَكُونُ سُجُودًا لِابْنِي، لِبَشَرٍ مِثْلِي، وَأَوَّلَ مَا يَخْرُجُ يَكُونُ الْغَفِيرُ جَاهِزًا بِالْبُنْدُقِيَّةِ وَيَضْرِبُهُ.

فَقَالَ مَحْرُوسٌ وَالْعُمْدَةُ: إِنَّ الْجِنِّيَّ لَنْ يَخْرُجَ وَنَرَاهُ عَلَى صُورَتِهِ.

فَقَالَ صَالِحٌ: وَهَذَا مَا أُرِيدُهُ، أَنْ يَتَشَكَّلَ فِي إِنْسَانٍ وَنَضْرِبَهُ.

تَمَنَّى الْعُمْدَةُ وَمَحْرُوسٌ أَنْ يَحْدُثَ هَذَا، وَلَكِنَّهُ أَمَلٌ بَعِيدُ الْمَنَالِ، فَهُوَ رُبَّمَا يَسْمَعُنَا الْآنَ وَيَعْرِفُ مَا نُخَطِّطُ لَهُ، إِنَّهُ جَانٌّ.

فَقَالَ صَالِحٌ: لَوْ تَذْكُرُونَ حِينَ تَشَكَّلَتِ الْجِنِّيَّةُ صَاحِبَةُ الْبِئْرِ فِي شَكْلِ حَيَّةٍ، أَوَّلُ مَا أُصِيبَتْ بِالرَّصَاصَةِ فِي ذَيْلِهَا مَاتَتْ، وَكُلُّنَا نَعْرِفُ أَنَّ الْحَيَّةَ لَا تَمُوتُ بِذَيْلِهَا، وَلَكِنْ بِكَسْرِ رَأْسِهَا.

فَقَالَ لَهُ الْعُمْدَةُ: يَعْنِي نَقْتُلُ الْأَوْلَادَ؟

فَرَدَّ صَالِحٌ قَاطِعًا: وَهَلْ أَنَا مَجْنُونٌ؟ الرَّأْيُ صَعْبٌ، وَلَكِنْ يَكُونُ آخِرَ اخْتِيَارٍ. نَضْرِبُ فِي كَفِّ الْقَدَمِ الْأَيْسَرِ أَوْ أَصْغَرِ إِصْبَعٍ، وَيَكُونُ الدُّكْتُورُ جَاهِزًا مَعَنَا لِلْمُدَاوَاةِ، وَحِينَهَا سَيَمُوتُ الْجَانُّ، لِأَنَّهُ فِي الْجَسَدِ كُلِّهِ كَرُوحٍ وَلَيْسَ كَجَسَدٍ، وَسَوْفَ يُقْضَى عَلَيْهِ مَعَ أَوَّلِ جُرْحٍ.

فَقَالَ مَحْرُوسٌ: إِذًا لَوْ جَرَحْنَا الطِّفْلَ بِسِكِّينٍ سَيَمُوتُ الْجَانُّ؟

فَكَانَتْ فِكْرَةً بَدَتْ لَهُمْ، وَلَكِنَّ صَالِحًا قَالَ: لَا أَعْرِفُ مَاذَا تَكُونُ النَّتِيجَةُ، رُبَّمَا...

فَقَالَ الْعُمْدَةُ: أَرَى الزَّوَاجَ مِنْ (كَالِيسَا) أَهْوَنَ وَأَجْمَلَ، إِنْ لَمْ تَرْضَ بِي، فَتَزَوَّجْهَا أَنْتَ يَا صَالِحُ، فَهِيَ الْجِنِّيَّةُ السَّاحِرَةُ، وَاسْمُهَا يَدُلُّ عَلَى جَمَالِهَا، وَأَنْتَ قُلْتَ فِيهَا شِعْرًا، أَرْجُو مِنَ اللَّهِ أَنْ تُوَافِقَ، بَدَلَ ضَرْبِ الْأَطْفَالِ، وَغَدًا نَذْهَبُ لِمَشَايِخِنَا بِالْأَزْهَرِ الشَّرِيفِ، وَكُلُّهُ عَلَى اللَّهِ.

فَكَانَ رَدُّ صَالِحٍ أَنَّ هَذَا الزَّوَاجَ حَرَامٌ شَرْعًا، وَغَدًا نَعْرِفُ رَأْيَ الْمَشَايِخِ. فَوَافَقَهُ الْعُمْدَةُ قَائِلًا: إِنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ حَرَامٌ، وَلَكِنْ كَيْفَ نُنْقِذُ الْأَوْلَادَ؟ وَأَرْدَفَ: وَأَنَا أُوَافِقُ عَلَى هَذَا الْحَرَامِ مِنْ أَجْلِ الْأَوْلَادِ، بَسْ هِيَّ تُوَافِقْ.

***

طَرَقَاتٌ عَلَى بَابِ غُرْفَةِ صَالِحٍ. فَاسْتَيْقَظَ صَالِحٌ وَاعْتَدَلَ فِي سَرِيرِهِ، وَرَدَّ عَلَى الطَّارِقِ: ادْخُلْ.

وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ أَحَدٌ مَعَهُ فِي الْبَيْتِ، فَهَلْ أَحَدُ الْخفَرَاءِ جَاءَ وَمَعَهُ الْمِفْتَاحُ؟ فَالْعُمْدَةُ لَدَيْهِ نُسْخَةٌ مِنْ مِفْتَاحِ الْبَيْتِ، فَقَالَ: رُبَّمَا، وَانْتَظَرَ الْقَادِمَ، فَلَمْ يَدْخُلْ أَحَدٌ. فنادى ثَانِيَةً: ادْخُلْ!

فُتِحَ الْبَابُ، وَقَفَزَ صَالِحٌ وَاقِفًا عَلَى السَّرِيرِ مِنْ هَوْلِ الْمُفَاجَأَةِ، مَا هَذَا؟! إِنَّهَا زَيْنَبُ، زَوْجَتُهُ وَحَبِيبَتُهُ، وَعُمْرُهُ الَّذِي ضَاعَ وَتَسَرَّبَ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ كَمَا يَتَسَرَّبُ الْمَاءُ مِنْ بَيْنِهَا. أَمْعَنَ صَالِحٌ النَّظَرَ، وَدَقَّقَ نَظَرَهُ جَيِّدًا، وَفَرَكَ عَيْنَيْهِ بِيَدَيْهِ. فَابْتَسَمَتْ زَيْنَبُ وَقَالَتْ: نَعَمْ، أَنَا زَيْنَبُ، أَنْتَ نَسِيتَنِي؟

فَقَالَ صَالِحٌ: وَهُوَ مُمْكِنْ أَنْ أَنْسَاكِ؟! بَسْ إِزَّايْ تَكُونِي أَمَامِي لَحْمًا وَدَمًا مِشْ حُلْمًا؟.

فَشَرَحَتْ لَهُ زَيْنَبُ أَنَّهَا رُوحٌ وَنَفْسٌ وَجَسَدٌ، وَلَكِنْ هَذَا الْجَسَدُ الَّذِي يَرَاهُ الْآنَ كَانَ دَائِمًا دَاخِلَ الْجَسَدِ الَّذِي تَمَّ دَفْنُهُ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ عِبَارَةٌ عَنْ رُوحٍ وَنَفْسٍ وَجَسَدٍ.

يَأْتِي الْجَسَدُ مِنَ الْأَرْضِ بِالزَّوَاجِ بَيْنَ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ، وَفِي بَطْنِ الْأُمِّ تَنْزِلُ الرُّوحُ وَالنَّفْسُ بَعْدَ تَكْوِينِ الْجَنِينِ، وَحِينَ يَمُوتُ الْإِنْسَانُ تَصْعَدُ الرُّوحُ وَالنَّفْسُ أَوَّلَ شَيْءٍ كَمَا أَتَتَا آخِرَ شَيْءٍ، وَيُدْفَنُ الْجَسَدُ فِي التُّرَابِ لِأَنَّهُ مِنَ التُّرَابِ وَيَعُودُ إِلَى التُّرَابِ.

وَالنَّفْسُ تَأْخُذُ شَكْلَ الْجَسَدِ وَمَلَامِحَهُ، وَجَسَدُ الْإِنْسَانِ الَّذِي يُدْفَنُ مِثْلُ الْجُلْبَابِ، تَسْتَطِيعُ تَغْيِيرَهُ وَتَلْبَسُ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ جُلْبَابٍ، وَأَنْتَ كَمَا أَنْتَ، فَأَنَا الْآنَ رُوحٌ وَنَفْسٌ.

اِنْبَهَرَ صالِحٌ مِنْ هذا التَّفْسيرِ، فَهِيَ أَوَّلُ مَرَّةٍ يَسْمَعُهُ، وَعَلَيْهِ فَهِيَ حَقًّا زَيْنَبُ آتِيَةٌ مِنَ العالَمِ الآخَرِ، عالَمِ البَرْزَخِ، بِهذه الْمَعْلُوماتِ الْخارِقَةِ، وَسَأَلَتْهُ: ماذا فَعَلْتَ في مَوْضوعِ الأَوْلادِ؟ إِنَّ الجانَّ يُدَمِّرُهُما.

فَرَدَّ وَهُوَ يَكادُ أَنْ يَبْكِيَ مِنْ تَتابُعِ الأَحْداثِ: وَماذا أَفْعَلُ في هذه الْمُشْكِلَةِ؟ إِنَّها تَتَصاعَدُ بِشِدَّةٍ. أَشيري عَلَيَّ بِما تَمْلِكينَهُ الآنَ مِنْ مَعْلُوماتٍ وَكَشْفِ حُجُبٍ أَعْطاها اللَّهُ لِمَنْ في عالَمِكُمْ.

فَكانَ رَدُّها: عَلَيْكَ أَنْ تَسْتَعينَ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ، أَي مِنَ الْجانّ نَفْسِهِمْ. فَهُمْ بِيَدِهِمُ الْخَلاصُ، وَلا داعي لِلِاسْتِعانَةِ بِمُلوكِ الشَّرّ مِنْهُمْ، فَالشَّرُّ لا يَأْتي إِلّا بِشَرّ.

فَرَدَّ صالِحٌ: يَعْني أَعْمَلُ إِيه؟

ـ تَزَوَّجْ كاليسا، إِنَّها ابْنَةُ مَلِكِ الْجانّ، وَهِيَ أَميرَةٌ تُحِبُّ الْخَيْرَ وَتَكْرَهُ الشَّرَّ، وَفي يَدِها الْخَلاصُ.

هُنا أَفاقَ صالِحٌ وَرَدَّ بِسُرْعَةٍ، وَكَأَنَّهُ أَمْسَكَ لِصًّا: إِذا أَنْتِ كاليسا!

فَضَحِكَتْ وَاخْتَفَتْ، وَدَبَّ في قَلْبِهِ سَعادَةٌ، وَقالَ لِنَفْسِهِ: إِنَّهُ لَوْ تَزَوَّجَ كاليسا يُمْكِنُهُ أَنْ يَرى زَيْنَبَ وَيَعيشَ مَعَها ثانِيَةً.

وَابْتَسَمَ في سَعادَةٍ لِرُؤْيَتِهِ زَيْنَبَ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ حَقيقَةً.

(١٤)

وَصَلَ الثَّلاثةُ إِلَى الأَزْهَرِ مَعَ صَلاةِ الظُّهْرِ وَمَعَهُمُ الطِّفْلانِ، وَفِي الطَّرِيقِ أَبْلَغَهُمُ العُمْدَةُ أَنَّهُ قَالَ الشِّفْرَةَ الخَاصَّةَ بِالجِنِّيَّةِ السَّاحِرَةِ كَالِيسَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ مَرَّةٍ وَلَكِنَّهَا لَمْ تَعْبُرْهُ، وَيَبْدُو أَنَّهَا مُغْرَمَةٌ بِكَ أَنْتَ يَا صَالِحُ، شَكْلُكَ مُسَيْطِرٌ جِدّاً. فَضَحِكَ الجَمِيعُ وَدَعَوُا اللهَ أَنْ يُوَفِّقَهُمْ فِي مَشْوَارِهِمْ هَذَا، وَقَصُّوا عَلَى المَشَايِخِ كُلَّ شَيْءٍ وَلَمْ يُخْفُوا أَيَّ شَيْءٍ.

تَأَسَّى المَشَايِخُ مِنْ هَوْلِ الأَحْدَاثِ وَأَنَّهَا جِدُّ خَطِيرَةٌ، فَالمَشْيُ عَلَى المَاءِ وَالطَّيَرَانُ فِي الهَوَاءِ أَمْرٌ لا يَأْتِي بِهِ إِلَّا جَانٌّ، فَهُوَ قَوِيٌّ وَشِرِّيرٌ، وَعَنْ أَنَّهُ إِذَا قَامُوا بِتَحْضِيرِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الجَانِّ، يُعْتَقَدُ أَنَّ مَلِكَ الجَانِّ يَمْتَلِكُ سُلْطَةً عَظِيمَةً عَلَى بَاقِي الجِنِّ، بِمَا فِي ذَلِكَ القُدْرَةُ عَلَى إِصْدَارِ الأَوَامِرِ لَهُمْ، وَيُقَالُ إِنَّ مَلِكَ الجَانِّ يَسْتَطِيعُ إِخْرَاجَ جِنٍّ مِنْ جَسَدِ إِنْسَانٍ إِذَا أَصْدَرَ أَمْراً لَهُ بِذَلِكَ؛ هَذَا لأَنَّهُ يُفْتَرَضُ أَنَّ الجِنَّ يَخْضَعُونَ لِسُلْطَةِ مَلِكِهِمْ وَلا يَسْتَطِيعُونَ عِصْيَانَ أَوَامِرِهِ.

لَكِنَّ ذَلِكَ يَعْتَمِدُ عَلَى طَبِيعَةِ الجِنِّيِّ المُسَيْطِرِ عَلَى الإِنْسَانِ وَمَدَى وَلائِهِ لِمَلِكِ الجَانِّ، فَقَدْ يَكُونُ الجِنِّيُّ عَاصِياً أَوْ تَابِعاً لِقُوَّةٍ أُخْرَى أَكْبَرَ أَوْ غَيْرَ تَابِعَةٍ لَهُ وَلا عَلاقَةَ بَيْنَهُمَا، مِمَّا يَجْعَلُ الأَمْرَ أَكْثَرَ

تَعْقِيداً، وَأَنَّ مَلِكَ الجَانِّ قَدْ يَتَدَخَّلُ فِي حَالاتٍ اسْتِثْنَائِيَّةٍ فَقَطْ، وَعَادَةً إِذَا كَانَ هُنَاكَ سَبَبٌ قَوِيٌّ يَدْعُو لِذَلِكَ، مِثْلَ عَقْدِ اتِّفَاقٍ بَيْنَ صَاحِبِ الطَّلَبِ وَالجَانِّ. تَنْفِيذُ أَوَامِرِهِ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ، مِثْلَ أَنْ يُرِيدَ الجَانُّ مُوَاقَعَةَ بَعْضِ نِسَاءِ البَشَرِ، وَهَذِهِ رَغْمَ بَشَاعَتِهَا وتحريمها إِلَّا أَنَّ هُنَاكَ مَا هُوَ أَفْظَعُ وَأَشْنَعُ: أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ السُّجُودَ لَهُ. فَقَالَ العُمْدَةُ: يَعْنِي أَمَّا أَنْ نَكُونَ قُوَّادِينَ أَوْ كُفَّاراً.

أَوْضَحَ الشَّيْخَانِ لَهُمْ أَنَّهُمَا يُعْرِضَانِ تَجَارِبَهُمَا الشَّخْصِيَّةَ، وَكُلُّهَا سَمْعِيَّةٌ مِنْ حِكَايَاتِ النَّاسِ لَهُمَا عَمَّا تَعَرَّضُوا لَهُ، وَاللُّجُوءُ إِلَيْهِمَا وَالسُّؤَالُ عَنْ رَأْيِ الدِّينِ فِي تَحْضِيرِ وَصَرْفِ الجَانِّ وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ وَهَلْ هَذَا حَرَامٌ شَرْعاً، وَنَحْنُ لَمْ نَدْرُسْ فِي الأَزْهَرِ السِّحْرَ أَوْ أَحْوَالَ الجَانِّ كَمَا تَعْلَمُونَ، وَالدَّلِيلُ إِنَّكُمْ تَأْتُونَ الآنَ لِتَسْأَلُوا عَنْ كَيْفِيَّةِ التَّصَرُّفِ فِي هَذِهِ القَضَايَا، فَلَوْ كُنْتُمْ دَرَسْتُمْ هَذَا لَمَا أَتَيْتُمْ لَنَا وَاكْتَفَيْتُمْ بِمَا تَعَلَّمْتُمْ، وَإِنْ وَقَفَ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ رَجَعْتُمْ لِلْكُتُبِ الَّتِي دَرَسْتُمُوهَا؛ فَالسِّحْرُ وَالاقْتِرَابُ أَوِ اللَّعِبُ مَعَ الجَانِّ حَرَامٌ شَرْعاً وَمُهْلِكٌ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى المَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ

بِهِ بَيْنَ المَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﷻ (البقرة: ١٠٢).

اِحْذَرُوا مِنَ اللَّعِبِ مَعَ الجَانِّ أَوِ الإِتْيَانِ بِخُطُوَاتٍ غَيْرِ مَحْسُوبَةٍ جَيِّداً، وَعَلَيْكُمْ أَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ الجَانَّ مَوْجُودٌ مَعَ الأَوْلَادِ طُولَ الوَقْتِ، فَهُوَ لا يَتْرُكُ مَنْ يَمَسُّهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ، لِذَلِكَ فَالمَمْسُوسُ لا يُصَلِّي، لَكِنْ قَدْ يَجْلِسُ بِجِوَارِ مَنْ يُصَلِّي، مِثْلَ جُلُوسِهِمَا مَعَنَا فِي الجَامِعِ الآنَ، فَهُمَا صَامِتَانِ وَوَجِمَانِ، وَعَلَى وَجْهَيْهِمَا تَكْشِيرَةٌ كَبِيرَةٌ لِجُلُوسِهِمَا فِي الجَامِعِ، المَكَانِ المُخَصَّصِ لِلْعِبَادَةِ بِكُلِّ أَنْوَاعِهَا صَلاةً وَقِرَاءَةَ القُرْآنِ وَالتَّعَلُّمِ، وَمَا إِنْ يَخْرُجَا سَيَتَغَيَّرَانِ وَتَعْلُو وَجْهَيْهِمَا السَّعَادَةُ، وَإِنْ قَامَ لِيُصَلِّي فَلا يَسْتَطِيعُ، لا يَقْرَأُ القُرْآنَ وَلا يَأْتِي بِحَرَكَاتِ الصَّلاةِ، وَيَحْضُرُ فِي الحَالِ إِذَا وَجَدَ شَيْئاً يَحْدُثُ أَوْ سَيَحْدُثُ لِمَنْ يَعِيشُ دَاخِلَهُ بِرُوحِهِ، مِثْلَ الصَّلاةِ أَوْ حَدَثٍ قَدْ يُفْقِدُهُ السَّيْطَرَةَ عَلَى مَمْسُوسِهِ، وَإِذَا أَحَدٌ اسْتَدْعَاهُ بِقِرَاءَةِ القُرْآنِ عَلَى حَبِيسِهِ لِتَحْضِيرِهِ، فَهُوَ يَسْتَطِيعُ العَيْشَ بِرُوحِهِ فِي أَكْثَرَ مِنْ مَكَانٍ: حَيَاتُهُ العَادِيَّةُ وَحَيَاتُهُ مَعَ مَنْ يَلْبَسُهُ.

وَإِيَّاكُمْ وَالزَّوَاجَ مِنَ الجَانِّ، إِنَّهَا حَيَاةٌ بَيْنَ عَالَمَيْنِ كُلُّهَا تَعَبٌ وَمَوَاجِعُ، وَنِهَايَتُهَا الدَّمَارُ، فَلَمْ تَنْجَحْ أَيُّ عَلاقَةٍ زَوْجِيَّةٍ قَبْلَ ذَلِكَ مِمَّا سَمِعْنَاهُ وَقَرَأْنَاهُ فِي هَذَا المَوْضُوعِ؛ فَكُنْ حَذِراً يَا صَالِحُ وَكُنْ

صَالِحاً، وَمَا نُقَدِّمُهُ لَكُمْ وَلِلأَوْلادِ هِيَ الرُّقْيَةُ الشَّرْعِيَّةُ فَقَطْ، وَقِرَاءَةُ آيَاتِ اللهِ عَلَى الأَطْفَالِ، هَذَا كُلُّ مَا لَدَيْنَا.

قَالَ صَالِحٌ وَالعُمْدَةُ تَعْبِيراً عَمَّا يَجُولُ بِدَاخِلِهِمَا لِشَيْخَيْهِمَا وَرِجَالِ الأَزْهَرِ الأَجِلاَّءِ: رِجَالُ الأَزْهَرِ الشَّرِيفُ شَرَفٌ لِلأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ كُلِّهَا.

- نَشْكُرُكُمَا عَلَى هَذَا، فَأَنْتُمْ أَوْلاَدُنَا.

- وَأَنْتُمُ الأَزْهَرُ، عمم عَلَى قِمَمٍ.

(١٥)

رُفِعَ أَذَانُ العَصْرِ مِنْ جَامِعِ الحُسَيْنِ، فَاتَّجَهُوا إِلَيْهِ وَصَلَّوْا فِيهِ العَصْرَ، وَتَذَكَّرُوا الزِّيَارَةَ السَّابِقَةَ الَّتِي سَارَتْ عَلَى نَفْسِ الخُطُوَاتِ، وَتَرَحَّمُوا عَلَى الشَّيْخِ عُوَيْسٍ، شَيْخِ جَامِعِ الرِّفَاعِي فِي قَرْيَتِهِمْ. وَلَمْ يُقِمِ الأَوْلَادُ الصَّلَاةَ، وَإِنَّمَا جَلَسُوا فِي الجَامِعِ فَقَطْ. ثُمَّ اتَّجَهُوا إِلَى زِيَارَةِ الضَّرِيحِ، وَلَمْ يَدْخُلِ الأَوْلَادُ الضَّرِيحَ أَيْضًا. ثُمَّ خَرَجَ الجَمِيعُ لِيَتَنَاوَلُوا الغَدَاءَ فِي مَطْعَمِ "الدَّهَّانِ" كَمَا فِي المَرَّةِ السَّابِقَةِ، وَأَكَلَ الأَوْلَادُ جَيِّدًا، وَكَأَنَّ الجَانَّ أَحَسَّ بِمَا يُؤَرِّقُ أَبَوَيْهِمَا مِنْ شَكْوَى ضَعْفِهِمَا، فَدَفَعَهُمَا إِلَى الأَكْلِ حَتَّى تَقِلَّ حِدَّةُ الحَرْبِ بَيْنَهُمَا، وَيَسْتَطِيعَ اسْتِخْدَامَ الأَطْفَالِ جَيِّدًا لِفِتْنَةِ النَّاسِ فِي دِينِهِمْ؛ فَهُوَ يُرِيدُ أَبْدَانًا قَوِيَّةً تَسْتَطِيعُ أَنْ تُنَفِّذَ مَطَالِبَهُ. فَقَدِ اتَّخَذَ "هَيْثَمُورُ" وَ"سَلْهُوبُ" قَرَارَ فِتْنَةِ النَّاسِ المُحِيطِينَ بِالأَطْفَالِ فِي دِينِهِمْ، وَكُلُّ مَا يَهُمُّ الجِنِّيَّيْنِ تَوْسِيعُ الدَّائِرَةِ قَدْرَ الإِمْكَانِ.

كَانَتْ تَرَابِيزَتُهُمْ خَارِجَ المَطْعَمِ فِي الشَّارِعِ كَمَا يُحِبُّ صَالِحٌ وَالعُمْدَةُ، وَاعْتَادُوا الجُلُوسَ هَكَذَا مُنْذُ كَانَا يَدْرُسَانِ بِالأَزْهَرِ. وَإِذْ أَمَامَهُمْ وَفْدٌ مِنَ الطُّرُقِ الصُّوفِيَّةِ يَسِيرُونَ فِي صَفَّيْنِ مُتَوَازِيَيْنِ بِرِدَائِهِمُ الأَخْضَرِ وَالوِشَاحِ الأَحْمَرِ، وَهُمْ يُنْشِدُونَ أَنَاشِيدَ فِي حُبِّ

رَسُولِ اللهِ ﷺ. نَظَرَ الأَوْلَادُ إِلَيْهِمْ، وَقَدْ ظَهَرَ عَلَى وَجْهَيْهِمَا السَّعَادَةُ وَالشَّوْقُ إِلَى الِانْدِمَاجِ وَالِانْخِرَاطِ مَعَ هَذِهِ الجَمَاعَةِ، مِثْلَمَا يَفْعَلانِ مَعَ وُفُودِ قَرْيَتِهِمْ وَمُرِيدِيهِمْ. وَنَظَرَ إِبْرَاهِيمُ وَصَالِحٌ وَمَحْرُوسٌ إِلَى الأَوْلَادِ، وَقَدْ أَيْقَنُوا أَنَّهُمْ قَادِمُونَ عَلَى مُشْكِلَةٍ كَبِيرَةٍ لا مَثِيلَ لَهَا، وَأَنَّهُمْ لَنْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَمْنَعُوا الأَطْفَالَ مِمَّا يُرِيدَانِ أَنْ يَفْعَلاهُ.

فَإِنَّ لَدَيْهِمَا قُوَّةً خَارِقَةً، وَقَدْ جُرِّبَتْ هَذِهِ القُوَّةُ قَبْلَ ذَلِكَ فِي الغَفِيرَيْنِ، وَأَلْقَيَا بِهِمَا فِي التُّرْعَةِ بِدَفْعَةِ يَدٍ بَسِيطَةٍ، إِذَنْ، مَنْ يُحَاوِلْ أَنْ يَمْنَعَهُمَا سَتَكُونْ نِهَايَتُهُ عَلَى أَيْدِيهِمَا، لِذَلِكَ قَرَّرُوا الانْصِرَافَ، وَأَنْ يَهْرُبُوا بِالأَوْلَادِ فَوْرًا إِلَى السَّيَّارَةِ مُبَاشَرَةً، وَلَكِنْ هَيْهَاتْ! فَقَدْ فَرَّ الأَوْلَادُ وَانْدَمَجَا مَعَ الجَمَاعَةِ الصُّوفِيَّةِ، نَظَرَ العُمْدَةُ إِلَى صَالِحٍ فِي أَسَى، قَائِلًا: فَضِيحَتُنَا أَصْبَحَتْ عَلَى المَشَاعِ، وَبَقَتْ عَالَمِيَّةً.

هَزَّ رَأْسَهُ هُوَ وَمَحْرُوسٌ قَائِلَيْنِ: رَبَّنَا يَسْتُرْهَا وَيُنْقِذْنَا.

صَنَعَتِ الجَمَاعَةُ الصُّوفِيَّةُ أَمَامَ سَاحَةِ الجَامِعِ ثَلاثَ دَوَائِرَ مُتَتَالِيَةً، يَتَوَسَّطُ الدَّائِرَةَ، وَفِي مُنْتَصَفِهَا يَقِفُ شَيْخُهُمْ، وَبَدَأَ يُطَوِّحُ جِزعَهُ يَمِينًا وَيَسَارًا وَهُوَ يُرَدِّدُ: اللهُ حَيٌّ!.

وَخَلْفَهُ الجَمِيعُ يَصْنَعُونَ مِثْلَهُ، وَاتَّسَعَتِ الدَّوَائِرُ بِانْضِمَامِ المُرِيدِينَ وَزُوَّارِ الجَامِعِ، وَمَنْ عَلَى المَقَاهِي وَالمَطَاعِمِ، إِلَى أَنْ جَاوَزَتْ عَشْرَ دَوَائِرَ، وَازْدَادَ الزِّحَامُ، وَحَمِيَ الوَطِيسُ، وَانْدَمَجَ الجَمِيعُ انْدِمَاجًا قَوِيًّا، قَرَّرَ الجِنِّيَّانِ "هَيْثَمُورُ" وَ"سَلْهُوبُ" أَنْ يَفْتِنَا كُلَّ هَذَا الجَمْعِ وَيُحَوِّلَاهُمْ إِلَى عَبِيدٍ لِلطِّفْلَيْنِ، فَهَؤُلَاءِ الفِرَقُ عُشَّاقُ الأَضْرِحَةِ وَالإِنْشَادِ حَوْلَهَا وَالتَّبَرُّكِ بِهَا، وَهُمْ أَسْهَلُ مَا يَكُونُ لِلْفِتْنَةِ؛ فَبِحَرَكَةٍ وَاحِدَةٍ سَيَتَحَوَّلُونَ إِلَى مُرِيدِينَ لِلأَطْفَالِ، وَالتَّبَرُّكِ بِهِمَا، وَتَقْبِيلِ رَأْسَيْهِمَا وَأَيْدِيهِمَا وَأَرْجُلِهِمَا أَيْضًا. وَقَفَ الطِّفْلَانِ خَلْفَ النَّاسِ، خَلْفَ آخِرِ دَائِرَةٍ، وَلَمْ يَكُنْ طَبْعًا الأَوْلَادُ هُم مَنْ يَقِفُ، بَلْ كَانَ الجَانَّ، وَقَرَّرَا أَنْ يَكُونَا فِي مُنْتَصَفِ الحَدَثِ، فِي مَرْكَزِ الدَّائِرَةِ، مَكَانَ قَائِد الفِرْقَةِ، فَصَعِدَا فِي الهَوَاءِ وَهُمَا وَاقِفَانِ دُونَ أَيِّ حَرَكَةِ طَيَرَانٍ أَوْ غَيْرِهَا، فَارْتَفَعَا عَنِ الأَرْضِ إِلَى أَعْلَى مَسَافَةِ ثَلَاثَةِ أَمْتَارٍ فِي الهَوَاءِ، وَسَارَا فِي الهَوَاءِ وَكَأَنَّهُمَا يَسِيرَانِ عَلَى الأَرْضِ، كَانَتْ أَرْجُلُهُمَا تَتَنَقَّلُ فِي الهَوَاءِ وَكَأَنَّهَا تَدُوسُ عَلَى هَوَاءٍ مُجَمَّدٍ، أَوْ يَسِيرَانِ عَلَى طَرِيقٍ مَخْفِيٍّ لا تَرَاهُ العَيْنُ، وَذَلِكَ وَسْطَ صُرَاخِ الجَمِيعِ مِنْ هَوْلِ المُفَاجَأَةِ، فَعَلَا الهُتَافُ: اللهُ أَكْبَرُ! اللهُ أَكْبَرُ!.

وَهَذَا التَّهْلِيلُ وَالهَوَسُ هُوَ مَا يُرِيدُهُ الجِنِّيَّانِ، أَمَّا صَالِحٌ وَرِفَاقُهُ فَقَدْ أُسْقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَأَكْثَرُ مَا صَنَعُوهُ أَنَّهُمْ تَقَدَّمُوا إِلَى الدَّائِرَةِ الأُولَى، وَكَانُوا يَقُولُونَ لِلنَّاسِ: «إِنَّهُمَا أَوْلَادُنَا»، فَيَتْرُكُهُمُ النَّاسُ يَمُرُّونَ مِنْ أَجْلِ عُيُونِ الأَوْلَادِ.

نَزَلَ الأَوْلَادُ إِلَى مُنْتَصَفِ الدَّائِرَةِ وَاقِفَيْنِ عَلَى أَقْدَامِهِمَا، وَمَدَّا يَدَيْهِمَا اليُمْنَى لِلشَّيْخِ قَائِدِ الطَّرِيقَةِ لِيُقَبِّلَهُمَا، فَأَقْدَمَ عَلَيْهِمَا فِي خِفَّةٍ وَسَعَادَةٍ، وَنَهَمَ القُبَلَاتِ مِنْ يَدَيْهِمَا نَهْمًا، وَسْطَ صُرَاخٍ وَتَهْلِيلٍ مِنَ الجَمْعِ الغَفِيرِ، مِمَّا يَرَوْنَهُ فَوْقَ مُسْتَوَى الخَيَالِ.

النَّاسُ أَصَابَهُمُ الجُنُونُ: أَطْفَالٌ يَسِيرُونَ فِي الهَوَاءِ وَكَأَنَّهُ أَرْضٌ! إِنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ وَأَصْحَابُ كَرَامَاتٍ، وَهَلْ هُنَاكَ كَرَامَةٌ مِثْلَ مَا يَفْعَلُهُ الأَوْلَادُ؟.

أَصْبَحَتْ دَائِرَةُ الذِّكْرِ فَرَحًا، رَقْصًا وَذِكْرًا وَتَمَايُلًا وَتَهْلِيلًا لِدَرَجَةِ الصُّرَاخِ، وَازْدَادَ اسْتِغْرَابُ صَالِحٍ وَرِفَاقِهِ أَيْضًا مِمَّا يَفْعَلُهُ الجَانُّ بِالأَوْلَادِ وَالحَرَكَاتِ الَّتِي لا تَنْتَهِي، وَالَّتِي سَتُؤَدِّي بِالأَوْلَادِ وَتَفْتِنُ النَّاسَ بِهِمْ، وَإِحْسَاسُ الخَوْفِ مِنَ الكَارِثَةِ الجَدِيدَةِ كَادَ يَطْحَنُ قُلُوبَهُمْ، أَمَّا الجِنِّيَّانِ فَوَجَدَا أَرْضًا خِصْبَةً لِزَرْعِ أَيِّ نَوْعٍ مِنَ الفِتَنِ مَا دَامَتْ هُنَاكَ أَفْعَالٌ خَارِقَةٌ غَرِيبَةٌ عَلَى النَّاسِ؛ فَالنَّاسُ دَائِمًا تَنْتَظِرُ أَيَّ مُعْجِزَةٍ وَمَنْ يُفَرِّقْ هَذَا الجَمْعَ؟ لا يُوجَدْ هُنَا غُفْرٌ

يُفَرِّقُهُمْ أَوْ أَحَدٌ يُخِيفُهُمْ، وَدَارَتْ حَرْبٌ جَدِيدَةٌ حَامِيَةُ الوَطِيسِ بَيْنَ الجَانِّ وَالنَّاسِ؛ حَرْبُ الفِتْنَةِ فِي الدِّينِ.

أَشَارَ الطِّفْلَانِ ـ أَوْ بِمَعْنًى أَصَحَّ الجِنِّيَّانِ ـ إِلَى قَائِدِ الطَّرِيقَةِ أَنْ يَتْرُكَ مَرْكَزَ القِيَادَةِ وَيَقِفَ فِي الصَّفِّ مَعَ المُرِيدِينَ، وَفِي خِفَّةٍ نَفَّذَ الأَمْرَ، وَهُوَ سَعِيدٌ بِهِمَا، وَاعْتَبَرَهُمَا فَوْزًا كَبِيرًا لِلطَّرِيقَةِ، وَرِزْقًا عَظِيمًا سَاقَهُ اللهُ إِلَيْهِمْ، وَبَدَأَ الجِنِّيَّانِ فِي صُورَةِ الطِّفْلَيْنِ يَخْطُبَانِ فِي النَّاسِ خُطْبَةً تَجْعَلُهُمْ دُمًى فِي أَيْدِيهِمَا، يَفْعَلانِ بِهِمْ كَيْفَمَا يَشَاءَانِ فقالا: أَرْسَلَنَا اللهُ إِلَيْكُمْ لِهَدَايَتِكُمْ، وَسَتَدْخُلُونَ الجَنَّةَ عَلَى أَيْدِينَا، فَنَحْنُ طَرِيقُكُمْ إِلَى الجَنَّةِ، وَالطَّرِيقُ الوَحِيدُ مِنْ خِلَالِنَا فَقَطْ، وَالجَنَّةُ مَثْوَاكُمْ، وَإِنْقَاذُكُمْ مِنَ النَّارِ وَمِنَ المَتَاهَاتِ الَّتِي تَعِيشُونَ فِيهَا يَكُونُ بِاتِّبَاعِنَا، وَقَدْ أَعْطَانَا اللهُ قُدُرَاتٍ خَاصَّةً لا يُعْطِيهَا إِلَّا لِمَنْ اخْتَارَهُمْ، وَنَحْنُ مِنَ المُخْتَارِينَ، وَسَتَرَوْنَ الآنَ مَا لا يُمْكِنُ أَنْ تَرَاهُ أَعْيُنُكُمْ لا قَبْلَ وَلَا بَعْدَ، اُنْظُرُوا إِلَيْنَا وَاحْكُمُوا بِأَنْفُسِكُمْ، وَنَفِّذُوا مَا نَطْلُبُهُ مِنْكُمْ. فَهَلَّلَ النَّاسُ بِالمُوَافَقَةِ، وَكَانَ رَدُّهُمُ الوَحِيدُ: نَحْنُ مَعَكُمَا، وَأَنْتُمَا أَوْلِيَاءُ اللهِ.

ـ اللهُ أَكْبَرُ! اللهُ أَكْبَرُ!

نَظَرَ صَالِحٌ وَالعُمْدَةُ وَمَحْرُوسٌ إِلَى بَعْضِهِمْ، مِمَّا يَسْمَعُونَ، لا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا كَلَامَ الأَوْلَادِ؛ إِنَّهُ كَلَامُ الجَانِّ "هَيْثَمُور"

وَ"سَلْهُوب"، وَهُمَا يَسْتَخْدِمَانِ الطِّفْلَيْنِ فِيمَا يُرِيدَانِ مِنْ فِتْنَةِ النَّاسِ فِي دِينِهِمْ، وَتَحْوِيلِهِمْ مِنْ أُنَاسٍ مُؤْمِنِينَ بِاللهِ إِلَى عَبَدَةِ البَشَرِ. وَلَكِنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ فِعْلَ شَيْءٍ مَعَ الجِنِّيَّيْنِ، وَقَدْ ضَاعَ مِنْهُمْ أَوْلَادُهُمْ. وَالكَوَارِثُ تَزْدَادُ، وَالحَلُّ يَبْعُدُ عَنْ خَيَالِهِمْ كَثِيرًا.

تقدَّم صالح وهو في شِدَّة الغضب، وقال للنَّاس: إنَّهما أبناؤنا، وإنَّهما مَرضى، وإنَّ بهما مَسًّا من الجان، وأنَّه هو الذي يجعلهما يسيران على الماء ويطيران في الهواء، وهما طفلان لا يَعلمان شيئًا عمَّا يحدُث لهما، والجَانُّ يَستخدمهما لِفتنتكم في دِينكم، ولا بُدَّ أن تتركوهم ولا تَتَّبعوهم، وإلا فسيكون مَثواكم النار وليس الجنة كما يَقولان لكم. ولكن النَّاس، هيهات أن يُصدِّقوه! فما إن سمعوا أنَّهما يَسيران على الماء ويطيران في الهواء، وقد رأوهما الآن يَطيران في الهواء، إلا وهَلَّلوا: الله أكبر! الله أكبر! إنَّهما أولياء الله!.

وهدَّد الناسُ صالح ومَن معه، فَلولا أنَّهم آباءُ هؤلاء الأولياء، لكان لهم معهم موقفٌ آخر على قولهم إنَّهم مرضى، وأنَّهم من الجانِّ وليسوا بشرًا، عاد صالح إلى الصفِّ بجوار العمدة ومحروس، ولم يَملك إلا الصَّمت، وهم ينظرون إلى ما تأتي به الأحداث وإلى أين يأخذهم هيثمور وسِلهوب، وتعالت أصوات

الناس مُزلزِلة المكان، وأصواتهم تَصل إلى كلِّ المنازل والطُّرق، وفُتِحت الشبابيك والمشربيات، وأطَلَّت النساء، وهَرول الرجال والأطفال إلى الساحة ليُشاهدوا ويَشتركوا مع الناس وهم يُهلِّلون للطفلين: أولياء الله! أنهما أولياء الله!.

وامتلأت الساحة عن بكرة أبيها بالناس وهم يُكبِّرون ويُهلِّلون للطفلين، والطفلان واقفان في وسط الدائرة، والكل يتمنَّى أن ينظر إليه أحدُهما، ويتمنَّى أن يمدَّ أحدُهما يده ليُقبِّلها، أو حتى يُقبِّل قدمه؛ فقد أصبحا في نظرهم أصحاب كرامات، فهما يسيران في الهواء، شيئًا لم يحدُث من قبل، ولم يفعله أحد قط.

وصالح والعمدة ومحروس يُراقبون ما يحدُث وكأنَّهم يعيشون في عالم "ألف ليلة وليلة"، كابوسٍ لم يَستفيقوا منه بعد، وأحسَّ هيثمور وسِلهوب أنَّ الوقت قد حان لتفجير القُنبلة الخاصَّة بهما، فاتَّجها إلى الناس وقالا: مَن يُريد أن يكون تابعًا لنا، فليُردِّد كما نقول، وسنُريكم الآن الكرامات التي أعطاها لنا الله؛ سنطير أمامكم في الهواء، ونَجلس في الهواء، ونَنام في الهواء، وما عليكم إلا أن تقولوا كما نقول، وتزورونا في بلدنا قرية الرِّفاعي إحدى قرى بَنها. من أراد البَرَكات، فليأتِ إلينا، وقولوا الآن خلفنا: مدد يا هيثمور! مدد يا سِلهوب!. والنَّاس

تُردِّد خلفهما: مدد يا هيثمور! مدد يا سِلهوب!. فلَطَم صالح ومَن معه خُدودهم من هَول الكارثة، كارثةٍ لم تخطُر لهم على بال. لقد أمَر الجانُّ الناسَ أن يُردِّدوا أسماء الجانِّ ويَسألوهما المَدَد، وهذا هو عينُ الكُفر!. كيف نَخلُص مِمَّا نحن فيه ونرحل؟ كيف يَنتهي الجنيَّان من عرض هذه المسرحية الهزلية؟.

أحسَّ الجنيَّان أنَّهما قد وصلا إلى قِمَّة ما أرادا، ففكَّرا أن يَختِما هذا المشهد بعملٍ لم يخطُر على بال أحد، ولن يراه أحد حتى في الأحلام؛ فإذا بهما يَختفيان فجأة عن الأنظار، وينظر الناسُ فلا يَرون لهما أثرًا، ولا يَعرفون أين ذهبا وكيف يجدونهما ثانية، وتعالت أصوات الناس تُطالبهما بالظُّهور والعودة: أنتم فين؟! رُحتوا فين؟! يا هيثمور! يا سِلهوب! أين أنتما؟!. فيأتي الصَّوت عاليًا: تَعالوا لنا في كَفر الرِّفاعي!.

كان الأبوان ينظران في ذُهول: أين ذهب الأطفال؟! أين اختفَوا؟! فإذا بصوتٍ يأتيهما وحدَهما في آذانهما هامسًا: نحن في السيارة. فذهَب صالح والعمدة ومحروس إلى السيارة، فوجدوا الطفلين على الكنبة الخلفية في غيبوبةٍ تامَّة مِمَّا حدث، فهما ضَحايا هذا الجان الكافر. فركب الجميع السيارة، وانطلقوا عائدين إلى القرية.

(١٦)

ٱلْطِّفْلَانِ مُلْقَيَانِ عَلَى كَنَبَةِ السيارة الخلفية فِي حَالَةِ إِعْيَاءٍ تَامَّةٍ، وَقَدْ أَسْلَمَا بَدَنَيْهِمَا لِنَوْمٍ عَمِيقٍ بَعْدَ هذا لمجهود الذي وَقَعَ عَلَيْهِمَا مِنِ استخدام ٱلْجِنِّيَيْنِ لَهُمَا، وَهُمَا يَسْتَعْرِضَانِ وَسْطَ ٱلنَّاسِ فِي ٱلسَّاحَةِ.

وَجَلَسَ مَحْرُوسُ ٱلضُّبْعِ عَلَى الكنبة بِجِوَارِهِمَا، وبدأوا طَرِيقَ العودة إِلَى القرية. وَكَانَ الحديث الدائر بَيْنَهُمْ: كَيْفَ وَصَلَ بِهِمُ الحال إِلَى هذا الحد؟ وَمَا هذا التطور السريع؟ هذا ٱلْجَانُّ لَا يَسْتَطِيعُ إِيقَافَهُ أَحَدٌ، وَلَا الوقوف أَمَامَهُ مَهْمَا كَانَتْ قُوَّتُهُ، وَلَا يُفَوِّتُ أَيَّ فُرْصَةٍ تُسْنَحُ لَهُ فِي إِغْوَاءِ الناس، بَلْ صَنَعُوا اتحادا ضِدَّنَا، وَكَوَّنُوا جَيْشًا مِنْ جِنِّيَّيْنِ شِرِّيرَيْنِ تَارِيخُهُمَا الأسري مُظْلِمٌ وَكُلُّهُ شَرٌّ، وَقَدْ وَرِثَا الشر عَنْ آبَائِهِمَا.

وَيَبْدُو أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِمَا أَحَدٌ، وَلَابُدَّ أَنْ نَعْتَمِدَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ جِنْسِهِمْ. وَوَجَّهَ العمدة كَلَامَهُ إِلَى صَالِحٍ قال العمدة: يَبدو يا صالح أنّ الموضوعَ بين يديك الآن، وأنتَ الوحيدُ القادِرُ على إنهاءِ القِصّةِ وإنزالِ كلمةِ النِّهاية.

فردَّ صالح: كَيفَ هذا؟

قال العمدة: الزَّواجُ مِن هذه الجِنّيّةِ السَّاحرةِ "كاليسا"، فهي ابنةُ "شاهيندار" كما كتبتَ لي في الورقة، ويبدو أنّ هذا الاسمَ اسمُ مَلِكٍ مِن ملوكِ الجانّ، وليستْ بالأمرِ الهيّن. وهي الأملُ الوحيدُ الباقي لنا.،وإنْ كُنتَ تقولُ إنّه ضدُّ الدِّين وحرامٌ شَرعًا، فنحنُ ـ كما ترى ـ بأيدينا نُساعِدُه على إضلالِ الناسِ وفِتنتِهم في دِينهم، والخروجِ مِن الدِّينِ ذاتِه، ودَفعِ الناسِ إلى الكُفر. ولقد رأيتَ ماذا فعلوا في وسطِ العاصمةِ القاهرة، أمِّ المدائِن، فما بالكَ بالقُرى والناسِ الغلابة؟ ثمَّ عرضَ محروسٌ عليهما أن يُحاوِلَ محاولةً قرأها في كتابٍ عنده مكتوبٍ باليَد، اسمُه (كتابُ السِّحرِ الأسود)، يبدو أنّ هذا الساحرَ أراد أن يُوثِّقَ ما قام به مع الجانّ الشريرِ الشقيّ. وقد قرأه محروسٌ وحفِظه عن ظهر قلبٍ من أجل الأولاد، ثم قال: وقد كتبتُ تعويذةَ التَّحضير لكَ يا صالح.
قال صالح: وماذا سيفعلُ هذا الكتابُ أو هذه التَّجرِبة؟ اشرحْ يا محروس.
فردَّ محروس: هناك جانٌّ شريرٌ كبيرٌ اسمه "غولنار"، لا يقدِرُ عليه أحد، سنقومُ بتحضيره حسبَ ما قالَ الكتابُ بالضبط، وبنفسِ خُطواتِ تجربةِ الساحرِ الشخصيّة، وهو سيقضي على هذَيْنِ الجِنّيَّيْنِ، وقد قال الساحرُ إنَّ الجانَّ غولنار جَانٌّ قويٌّ جدًّا،

وأيضًا مَغرورٌ جدًّا؛ فهو لا يُحبُّ أن يكونَ هناك أحدٌ أقوى منه، ويقول: "أنا مَلِكُ ملوكِ الشرّ. يريد أن يكونَ وحدَه فقط القويَّ ولا أحدَ سواه، ولا شيءَ يُريده سوى الانتقامِ ممَّن يُخالِفُه. وقال الكاتب: إنَّه لا يترُكُ شريرًا يَكبُرُ عليه حتى لا يأخذَ مكانَه، فمَن يُخالِفُه يُحرِقْه، مثل الفتُوَّةِ في عالَمِنا نحن؛ لا يُريدُ فتُوَّةً غيرَه، هو فقط، ومِن بعدِه الطوفان. فوافقاه، وقالا: على بركةِ الله، نعودُ وغدًا نبدأ.

قال محروس: حتى طريقةُ تحضيرِه لا تتطلّبُ طُقوسًا ولا بَخورًا ولا أيَّ شيء، فقط هذه الورقة.

أعطى محروسُ الورقةَ لصالح، فأخذها صالحُ وبدأ يقرأُها بصوتٍ خافتٍ لكنَّه مسموع، وفجأةً تغيَّرت ملامحُ الطفلَيْنِ عند سماعِ التَّعويذة، وظهرَ على وجهيهما غَضبٌ شديد، وخرجتْ من عينيهما نَظراتٌ تُرسِلُ الرُّعبَ إلى كلِّ مَن يجرؤ على النَّظرِ إليهما، لقد أصبحا مخلوقاتٍ مختلفةً تمامًا. لقد سَمِعا ما قالَه محروسُ الضَّبع، فأغضبَ ذلك الجِنّيَّيْنِ، فحضرا على الفورِ في جسدَيْ الطفلَيْنِ، وصَرَخا بصوتٍ مُدوٍّ: مَن يقولُ إنَّ غولنار قويّ؟! نحنُ أقوى وأشرُّ منه! والوَيلُ له ولِمَن يُسانِدُه! ثمَّ أَمسَكا

برقبةِ محروسٍ، وكادا أن يَزهقا رُوحَه، فصَرَخَ مُستغيثًا: النَّجدة! النَّجدة!.

وإذا بالجانّ "غولنار" يحضُرُ عند قراءةِ صالحٍ للتعويذة، رغم أنَّ صوته كان خافتًا إلّا أنَّه مسموع، صِياحٌ وصُراخٌ عمَّ المكان، وفجأةً اختفى الطريقُ من أمام العمدة، ووجدَ نفسَه يدخلُ في طريقٍ آخر غير طريقهم؛ طريقٍ جبليّ ضيّقٍ بين جبالٍ عاليةٍ شاهقة، وجدوا أنفسَهم في وادٍ مُحاطٍ بالجبالِ من كلّ اتجاه، لا مَخرَجَ ولا مَلاذ، لقد تمَّ حبسُهم داخلَ هذه الجبال، أصابهم التعجُّبُ والانزعاجُ ممَّا حدث، بل وكيفَ حدث؟ ومَن جاءَ بهم إلى هذا المكانِ المُقفِر؟.

بينَ دهشتِهم سَمِعوا ضَحكاتٍ عاليةً هَزَّت المكان، ودَوَّى صَداها بينَ الجبالِ الشاهقة، قَهقَهةً مُمزوجةً بزَئيرٍ كأنَّه زَئيرُ أسد، نَظَروا حولَهم متحيّرين: مِن أين جاءت هذه الجبال؟ ومَن أوصَلَهم إلى هذا المكانِ المُوحِش؟ لقد أصبحوا في عالَمٍ آخر، وكأنَّه عالَمٌ سُفليّ لا مَخرَجَ منه ولا مَلجأ لهم، والظَّلامُ حولَهم يزدادُ شِدَّةً، ويَزحَفُ عليهم زحفًا مُخيفًا، وصوتُ الرِّيَاحِ يَعصِفُ بينَ الجبالِ، فيأتي صَداهُ مُجَلجِلًا في المكان، رغم أنَّهم في فصلِ الرَّبيع، فصلِ النَّسيم لا فصلِ الرِّيَاح، والكُهوفُ على جانِبَي

الطَّريق تُصدِرُ مِن داخِلِها أصواتًا غامضةً مُرعِبة، وفجأةً توقَّفتِ السيّارة. فصَرَخَ العمدة: أينَ نحن؟! ومَن فعلَ بنا هذا؟! ثمَّ صرخَ مرعوبًا: لقد حَضَرَ الجانُّ على قراءةِ التَّعويذة يا صالح! إنَّنا مُحاصَرون! إحنا فين أصلًا؟!.

وهُنا ظهرَ الجانُّ "غولنار"، ورَدَّ بصوتٍ كالرَّعد: أنتم في وادي الجانّ... وادي غولنار!. ترَكَ الجِنِّيَّانِ محروسًا، واستعدّا لمُواجهةِ غولنار وما قد يحدُث، اقتربَ غولنار مِن السيّارة، كان شيئًا في مستوى الجبل، ضَخمًا لدرجةٍ تُوحي أنَّ أنفاسَه وحدها قد تَدهسُهم وتُطيحُ بالسيّارةِ بأكملها، كانت النَّارُ تخرُجُ مِن عينيه فتحرِقُ ما تُقابِلُه، وعَيْناهُ واسعتان كأنَّهما كَهفانِ مُظلِمان مفتوحان، حمراوانِ مُرعِبتان، وكلَّما اقتربَ منهم ازدادَ رُعبُهم. الجميعُ صامِت، لا يُصدِّقون ما يَرَون. همسَ أحدُهم: ماذا سيفعلُ بنا هذا الكائن؟! إنَّنا لا نَحتاجُ لكلِّ هذا لِننتهي! لو نَفخَ فينا بهواءٍ مِن مَنخَره فقط لقتلَنا! لِمَ جاءَ بهذه الصورةِ المُرعِبة؟! فردَّ محروسُ بصوتٍ مُرتجِف: رُبَّما ليُخيفَ "هيثمور" و"سَلهوب".

عِندها بدأَ غولنار يتكلَّم بصوتٍ مُفزِعٍ كأنَّه صَخرٌ يتصدَّع: أُخرُج يا هَيثمور! أُخرُج يا سَلهوب الآن وفورًا! وإلّا أحرَقتُكما!.

فصَرَخَ صالح والعمدة معًا: الجنيُّ جاي يُخرِج الجِنَّ مِن الأولاد... أم يُخرِجُنا نحنُ مِن الدُّنيا؟!.

وبدأ صالحُ ومحروسٌ يقرآنِ القرآنَ للحماية، بينما الموقِفُ يزدادُ سُوءًا؛ العاصِفةُ تشتدُّ، وأصواتُ الصَّراخِ والدَّويِّ تملأُ الوادي، والعَمدةُ يصرُخُ مرعوبًا. قال العمدة وهو يرتجف: ما هذا الذي يحدث؟! هل نحن نحلمُ أم أنّها حقيقة؟ ماذا قدَّمنا لنجنيَ كلَّ هذا الدمار؟ متى نفيقُ من هذا الكابوسِ الرهيب اللعين؟! الموتُ أفضلُ ممّا نحنُ فيه!.

كان صالحُ ومحروسُ ما زالا يقرآنِ القرآن، والعمدةُ يُردِّدُ خلفهما، والرهبةُ تملأُ المكان. اقتربَ الجانُّ "غولنار" من السيّارة وصاح بكلِّ قوّةٍ مُجلجلة: بأمري أنا،أنا غولنار، ملكُ الشرِّ الأعظم! أُخرُجْ يا هيثمور! وأنتَ يا سَلهوب، الآن وفورًا! وإلّا أحرقتُكما!. فجأةً طارَ الجنيّانِ من السيارة كأنَّهما صاروخانِ أُطلِقا من قاعدةٍ عسكريةٍ إلى الفضاء، وتركا الطفلَيْنِ مُلقَيَيْنِ على الكنبة، غائبَيْنِ عن الوعي كجُثَّتَيْن هامدتين.

نظر الجميعُ في ذهول إلى ما يحدث بينَ الجانِّ في الهواء، وكأنَّهم يُشاهِدون فيلمًا سينمائيًا، أحداثٌ لا يُمكن لعقلٍ أن يتخيَّلها، الجنيّان يطيرانِ في الهواء بحركاتٍ بهلوانيّةٍ، وأمامهما

في الجهة الأخرى غولنار يطير مثلُهما، الأصواتُ تعلو وتزلزل المكان، وكأنّها حربُ أصوات، بل حربُ اختراقِ حاجزِ الصوت الذي كادَ أن يُصمَّ آذانهم من صدى الصَّوت في الوادي، بينما الأولادُ نائمين لا يشعرون بشيء، وإذا بسحابةٍ سوداءَ كثيفةٍ تُغطّي الوادي تغليفًا مُحكمًا، فأصبح المكانُ ظلامًا دامسًا شديدَ السواد، لا يَرى أحدٌ يده من شدّة الظلام. لم يظهر إلّا بريقُ الأشعةِ الخارجة من الجانّ وهم يضربون بعضَهم بها.

لقد أصبح الصراعُ الآن سلاحًا جديدًا لم يره الجالسونَ في السيارة من قبل، بل ولم يسمعوا عنه أصلًا: أشعّةٌ ناريّة تخرج من الجان! الجنيّان يخرجان من أيديهما أشعّةً حمراء تنطلق نحو غولنار، فيصدّها غولنار بيدَيْه، ويُخرِج من فمِه دفعةً من النار تنطلق نحوهما، فيتفادَيانها بخِفّةٍ، مع طيرانٍ مُريعٍ في الهواء وحركاتٍ بهلوانيّةٍ خاطفة. كان صالحُ والعمدةُ يُراقبانِ المعركة الضَّروس في ذُهول، فقال صالحُ وهو يَختنقُ بالأنفاس: هل آنَ الأوانُ أن يَنتهي الجانُّ على بعضِه؟! أولادُنا بجوارِنا نائمين... لا بُدَّ أن نُقوّيَ غولنار بالطَّلاسم ليقضيَ على هيثمور وسَلهوب وينتهي الأمر! وبالفعل، بدأت تخرج أصواتُ الطَّلاسم

من السيّارة، كان محروسٌ يُردِّدُها بحماسٍ وقد حفِظ كلَّ ما يخصُّ غولنار من كتاب "السحر الأسود"، لتدعمه في حربه.

لكن هيثمور أحسَّ بما يجري، وشعر أنَّ مددًا لا ينقطعُ يتدفّقُ إلى غولنار من داخل السيارة؛ فثار وهدرَ بصوتٍ كالرَّعد، وتذكَّر كلامَ محروس عن غولنار، وفي قفزةٍ بهلوانيّةٍ خاطفةٍ وجد نفسَه أمام السيارة، فأرسل شعاعًا أحمرَ قاتلًا أصابَ محروسَ مباشرةً، فأرداه جُثّةً هامدة في ثانية، وسط ذهول صالح والعمدة.

وما إن صَمَت محروسٌ وانقطعت الطلاسم، حتى اختفى غولنار، واختفى معه هيثمور وسَلهوب، وفجأةً وجد العمدةُ وصالحٌ أنفسَهما على الطريق الصحيح طريق القرية، بل ووجدوا أنفسَهم واقفين أمام مقابر قريتهم – قرية الرفاعي.

الطفلانِ ما زالا نائمَيْن بجوارهما، بينما محروسُ جُثّةٌ هامدة.

صاح صالح والعمدة مذهولين: أين الجبال؟! أين الوادي المظلم؟! أين الجنيّان؟ أين غولنار؟! كيف جئنا إلى هنا؟! محروسُ مات، قتله هيثمور! ونحن، لماذا لم نمُت ونستريح؟!

ولطما وجوهَهما من شدّة ما ألمَّ بهما، ثم واصلا السير حتى وصلا القرية، أقبل الغُفر عليهم مسرعين، وحُمِلَت جثّةُ محروس

إلى المضيفة لإبلاغِ أهله وتسليمها لهم ليدفنوه غدًا يوم الجمعة، فيما حُمِلَ الطفلان إلى منامهما.

(١٧)

أصبحتِ الأُمورُ خارِجَ السَّيطرةِ تمامًا، والجَانُّ هو المسيطِرُ على مُجرَياتِ الأُمور؛ فلم يستطِع صالحٌ والعُمدةُ السَّيطرةَ على أيِّ شيءٍ، والأحداثُ تجري كضَربٍ مِن الخَيال. وما يمرُّ بهما ويعيشانِه، لو أنَّ أحدًا قصَّهُ عليهما ما صَدَّقاه، إنَّ حكاياتهما وما يَعيشانِه صارَ أقوى وأكبر وأفظَعَ ممّا يَحكيهِ الشَّيخُ نور النُّوبي في قهوةِ دَعبس، إنّها تَعبُرُ حُدودَ رواياتِ مقهى دَعبس، وتَعبُرُ حُدودَ رواياتِ الرَّبابة، إنَّهما أصبحا في عالَمِ الخَيال.

فأصبحت حكاوي عنترةَ بنِ شدّاد، وأبو زيدٍ الهلالي، والزَّناتي خليفة، كأنّها أضعفُ بكثيرٍ ممّا يَعيشانِه. لقد أصبحوا يَطيرونَ في الهواء، ويَسيرونَ على الماء، وأصبحت الحربُ بالأشعّةِ والأصواتِ المُرعِبة، بل واختراقُ حاجزِ الصَّوت، وكأنَّ الجانَّ يقودونَ طائراتٍ حربيّة. إنَّهم ليسوا في عالَمِ الخَيال، بل في عالَمِ المُحال.

***

اليومَ هو يومُ الجُمُعةِ، يومُ المريدينَ القادمِين إلى أولياءِ اللهِ الصالحين. جاءَ المريدونَ إلى جامعِ القريةِ لصلاةِ الجُمُعةِ والتبرُّكِ بالأطفالِ أولياءَ اللهِ الصالحين، والصلاةِ على محروسِ

الضَّبعِ الذي لفَّ خبرُ وفاتِه الناحيةَ كلَّها. وامتلأ المسجدُ بأهلِ القريةِ وقريةِ محروسِ الضَّبع، وكلِّ القرى المجاورةِ وأهلِ البندرِ أيضًا، وأتت فرقةُ محروسِ الضَّبع الصوفيةُ، التي كوَّنها سالمُ الشايبُ زوجُ سعادَ ـ سببُ كلِّ هذه البلاوي ـ جاءوا بزيِّهم الموحَّد، ومتشحِين بالوشاحِ المكتوبِ عليه (الطريقةُ اللَّحيويَّة)، وساروا في صفَّينِ وجلسوا في صدرِ المسجد.

وإذا بفوجٍ قادمٍ من القاهرةِ من منطقةِ الحُسين، حيث كانت تشهدُ مهرجانَ طيرانِ الأطفالِ بالأمس، ودعوتَهم للناسِ لزيارةِ القرية، واختفاءَ الأطفالِ المفاجئَ وهم في الهواء، جعل الناسَ تأتي زحفًا، وجاء الفوجُ الصوفيُّ القاهريُّ بملابسِه الموحَّدة والوشاحِ الأحمرِ المكتوبِ عليه (الطريقةُ الصوفية). لا يوجدُ موضعُ قدمٍ في القرية، امتلأت عن آخرِها، الشوارعُ حول المسجدِ مكتظَّةٌ بالناسِ الذينَ يفترشون الأرضَ جالسينَ للصلاة، ووصل الناسُ حتى شاطئِ الترعةِ وبعرضِ القريةِ كلِّها. فالوفودُ أتت إلى القريةِ لصلاةِ الجُمُعةِ مع الأولادِ والتقرُّبِ منهم والتبرُّكِ بهم.

وكانت تأتي إلى القريةِ أفواجًا، وكأنَّ القريةَ أصبحت وقفةَ عَرَفات، وجاء عمدٌ وأعيانُ القرى، وكلٌّ يمتطي جوادَه، فحركةُ

الأعيانِ والعمدِ والنوابِ أيضًا كانت بركوبِ الخيل، وكانوا يقولون: "ركوبُ الخيلِ عزٌّ". والكلُّ يتسابقُ في سَرْجِ الحصانِ؛ من يجعلْه مُفضَّضًا مطليًّا بالفضةِ أو بماءِ الذهب. وجاء المأمورُ بحصانِه الخاصِّ بالقسم، والذي يمرُّ به على القرى لتفقُّدِ الأمن. وكذلك النائبُ، فهو يمرُّ على القرى الخاصَّةِ بدائرتِه، ومن معه من عِصبةٍ بالخيل.

جلس نائبُ البرلمانِ والمأمورُ وأعيانُ وعمَدُ الناحيةِ الذينَ أتوا مع صالحٍ والعمدةِ بجوارِ الترعةِ في الهواء، يسمعون خطبةَ الجُمُعة. وقال النائبُ لصالحٍ: إنَّ أخبارَ أولادِك وصلت قيادةَ الحزبِ، وإنَّ سيرَهم على الماءِ وطيرانَهم في الهواءِ وصل حتى الوزارة، وربما علم به الملكُ نفسُه، والحزبُ يرشِّحك للبرلمان وكذلك العمدة، وبارك له المأمورُ على هذه الأخبار، ولكن العمدةَ وصالحًا كانا في عالمٍ آخرَ مُغيَّبينَ عمَّا يحدثُ لهما، فاكتفيا بالردِّ: كلُّ شيءٍ بأمرِ الله.

ابتسم صالحٌ ابتسامةَ سخريةٍ من الأقدارِ التي تعبثُ بهم، ومال على العمدةِ وقال: الوزارةُ تعرفُ أخبارَ أولادِنا، وربما الملكُ المُفدَّى نفسُه.

أمَّا النائبُ والمأمورُ والأعيانُ فاعتبروا إجابةَ: "كلُّ شيءٍ بأمرِ اللهِ" موافقةً؛ لأنَّهم رجالٌ أتقياء، وتربيتُهم للأولادِ أكبرُ دليلٍ على ذلك.

***

حَزِنَ صالحٌ على موتِ محروسِ الضَّبعِ حُزناً كبيراً، ذلكَ الرَّجُلُ الَّذي تَرَكَ كُلَّ شَرٍّ كان يَفْعَلُهُ مِن رَبْطِ رِجالٍ، وعَمَلِ أَعْمالٍ لِلتَّفْريقِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، أَوْ جَلْبٍ لِلْحَبيبِ، أَوْ كُلِّ ما يَحْدُثُ مِن هذِهِ الأَشْياءِ. وعادَ إلى اللهِ في تَوْبَةٍ نَصُوحٍ بِسَبَبِ ما يَفْعَلُهُ صالحُ اللَّحْيوي مِن خَيْرٍ.

حَزِنَ عليهِ، وقَضى لَيْلَتَهُ بِالأَمْسِ يَبْكِي بُكاءً شَديداً عليهِ، وَعَلى ما وَصَلَ الحالُ بِهِ مَعَ الجِنِّيَّيْنِ. وقالَ: إنَّ اللهَ كافَأَ مَحروسَ الضَّبْعَ بِأَنْ يُصَلِّيَ عليهِ كُلُّ هذا الحَشْدِ مِنَ النَّاسِ، يُصَلُّونَ عليهِ صَلاةَ جَنازَةٍ، وكأَنَّهُ تَكْريمٌ لَهُ، وَسَبَبٌ في غُسْلِهِ وَدُخُولِهِ في رَحْمَةِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ. خَرَجَتِ النَّاسُ بَعْدَ صَلاةِ الجَنازَةِ عَلى مَحروسَ الضَّبْعِ يَحْمِلُونَ الطِّفْلَيْنِ عَلى الأَعْناقِ في المُقَدِّمَةِ، والَّذينَ يَحْمِلُونَ الطِّفْلَيْنِ هُمُ الجَماعَتانِ الصُّوفِيَّتانِ، وَقَدْ وَضَعَ كُلُّ جَماعَةٍ وِشاحَها عَلى كُلِّ طِفْلٍ. فَأَصْبَحَ كُلُّ طِفْلٍ عَلَيْهِ وِشاحانِ: الطَّريقَةُ اللَّحْيَوِيَّةُ مِنَ الكَتِفِ اليَمينِ إلى الخَصْرِ

الأَيْسَرِ. والطَّريقَةُ الصُّوفِيَّةُ مِنَ الكَتِفِ الأَيْسَرِ إلى الخَصْرِ الأَيْمَنِ. وهُم يَسِيرانِ في صَفَّيْنِ مُتَوازِيَيْنِ، فَتَلاقى الوِشاحانِ عَلى صَدْرِ الأَوْلادِ مُتَقاطِعَيْنِ مِثْلَ عَلامَةِ (إكْس) الَّتي تُشيرُ إلى الخطأ وَالخَطَرِ، أَوْ مَمْنُوعِ المُرورِ، أَوْ عَلامَةِ المَوْتِ. وكانَتْ خَيْرَ تَعْبيرٍ عَنْ حالَةِ الأَوْلادِ، وكأَنَّ الوِشاحَيْنِ يُشيرانِ: هُنا خَطَرٌ كَبيرٌ، هُنا دَمارٌ شامِلٌ. والطِّفْلانِ عَلى الأَعْناقِ، وَلَكِنَّهُما سُعَدَاءُ بِهذا.

العبَثُ الذي يَرَونه ويُفعَلُ بِهما، فهُما لا يَعرِفان شيئًا ممّا يَحدُث لهُما، وأثناء حُضور الجانّ عليهِما يكونانِ مُغيَّبَين في حالةٍ تُشبِه الإغماء، وبعدَ انتهاء حالةِ المَسّ يقومانِ وكأنّهما كانا نائمَين. خرجَ رِجالُ الطُّرقِ الصُّوفيةِ في الصَّفَّينِ المُتوازيَين، وبينهما نَعشُ محروس الضَّبع، وأمامَ النَّعش الطِّفلانِ على الأعناق، وقام العُمدةُ والخاصةُ الجالسونَ معه، فرفعوا السَّبَّابةَ وتمتموا بالشهادة، وما إنِ اعتَدَلتِ الجنازةُ مُوازيةً للترعةِ في طريقِ المقابر، وخلفَها أُممٌ من البشر، حتّى رفَضَ الجنيّانِ أن تسيرَ الأمورُ هكذا بكلِّ هذا الهُدوءِ. وهل يَترُكُ الجنيّانِ هذه الفُرصةَ التي أتَت لهُما على طبقٍ من ذهب؟ إنَّ الأعدادَ غَفيرةٌ تفوقُ أيَّ توقُّع، فاستَغلَّ الجانُّ الفُرصةَ أفضلَ استِغلالٍ يُمكِن أن

يتخيَّلَه بَشر، فجأةً استدارَ الطِّفلانِ، فوقفَ من يَحمِلُهما وكأنّهم تَسَمَّروا بالأرض، وظهَرت على الطِّفلينِ ملامِحُ يَعرِفُها والداهُما جيّدًا، وأشارا إلى النَّعش، فإذا بالنَّعش يَترُكُ أكتافَ الرِّجالِ الذين يَحمِلونه ويعلو فوقهم في الهواءِ بمسافةٍ أكثرَ من مترٍ بحيث لا يستطيعُ أحدٌ أن يلمسَه، وانفَجَرت قَنابِلُ صَوتيَّةٌ من حَناجِرِ الناس، والجميعُ يَصرُخ من شدَّةِ ما حدَث: النَّعشُ يَطير! اللهُ أكبر! اللهُ أكبر!.

وهُنا خرجَت جَماعةُ اللَّحيويّ الصُّوفيةُ وكأنَّها صاحبةُ هذا الإعجاز، لِتُهلِّلَ لشيخِها محروس الضَّبع: لا إلهَ إلّا الله... محروسُ الضَّبعُ وليُّ الله!.

وصاح سالمُ الشايب شيخُ الطَّريقة، وهو يكادُ يَجُنّ ممّا يرى أمامَه، ولم يكُنْ يُفكِّر أصلًا أن يراه في يومٍ من الأيّام مثل باقي الناس، فالحدثُ كبير. صاح سالم الشايب: الشّيخُ محروس بيطير! الشّيخُ محروس الطّاير!.

والكُلُّ يُردِّد، والجنازةُ تسير في تأنٍّ وثَبات، والنَّعشُ يسيرُ وحدَه في الهواء، والنّاسُ أسفلَ النَّعشِ يَتماوَجون بخُصورِهم ويرقصونَ ويصرخونَ وهم يقولون: الله حيّ... شيخُ محروس الطّاير حيّ!.

وضَع صالحٌ والعُمدةُ أيديهِما على رُؤوسِهما يَندُبانِ حظَّهُما وهما يَريانِ جُنونَ الناسِ ممّا يفعلهُ الجانُّ بالنَّعش، وتَعبا من الشَّرح للنّاس، فالشرحُ لم ولن يُفيدَ شيئًا. فليس عامَّةُ الناسِ فقط من فُتِنوا بهِ، بل العُمدُ والأعيانُ ونائبُ البرلمانِ وحضرةُ المأمور، بل وقيل: ناسٌ بالوزارة!.

ركبَ الأعيانُ والعُمدُ الخَيل، وكذلك صالحٌ والعُمدة، وسارتِ الجنازةُ، وسارَ النَّعشُ فوقَهم في هدوءٍ وخُطواتٍ مُتزنة، والنّاسُ تُهلِّل: الشّيخُ محروس الطَّاير أهوه!.

ولكن، هل يكتفي هيثمور وسَلهوب بهذا؟! ويَترُكان تلك الأرضَ البِكرَ الصّالحةَ لإنباتِ أيِّ بُذورٍ يُبذِرونها فيها تمرُّ هباءً؟ الآن أكبرُ فُرصةٍ لِفِتنةِ البَشر، ولن يتركا هذه الفُرصة، سيُثبِتانِ وجودَهُما، إنّهما مُلوكُ الشرِّ بلا مُنازَع، وسوفَ يُنَصَّبان ملوكَ شرّ الجنّ.

وجاءا بفِكرةٍ لم تخطرْ على إبليس نفسِه، وهي اللّعبُ بالنَّعش لِيَزدادَ النّاسُ فِتنةً، ويُسلِّمونَ بكلِّ فِكرٍ يقولهُ الجانُّ على لسانِ الأطفال. بدأ الجانُّ يَلعَبونَ بالنَّعش وكأنَّه كُرَةٌ في أيديهم؛ يَلفُّونَ به في دَوائر، والنّاسُ تُهلِّل. يَذهبُ يمينًا ويسارًا، والنّاسُ مُتكالبونَ عليه يَجرونَ خلفَه، فإذا بهيثمور يَتكلَّمُ بلسانِ إبراهيمَ

بنِ صالح، وبصوتٍ عالٍ أسكَتَ الجميع: سيذهَبُ الآن الشَّيخُ محروس الطَّائر إلى قريتِه لزيارةِ منزِلِه وأهلِها والقُرى المُجاوِرة حتّى يتمَّ بناءُ ضَريحٍ له، أمامَكم وقتٌ للبناء، وإلّا حلَّتْ عليكم اللَّعنة!

هلَّل الجميعُ: سَمعًا وطاعةً، وأعطى النّائبُ والأعيانُ والعُمدُ الأمرَ بإحضارِ الطّوبِ وموادِّ البناء، ونادَوا في النّاس: أين البَنّاؤون؟. فخرجَ حوالى عشرةِ رجالٍ وهم يَصيحون: نحن هنا! اللهُ أكبر!.

خافَ صالحٌ والعُمدةُ على أولادِهما، فأشاروا للغُفر أن يأتوا بهما لِيَركَبا معهما على الخيل، أو يَنتَظرا النَّعشَ هنا حتّى يعودَ من جولته. ولكن هيهات أن يترُكهما الجان!. رفَضَ الطِّفلانِ بشدّة، وليس هذا فقط، بل طارا إلى أعلى ووقفا فوقَ النَّعش؛ واحدٌ على المُقدّمة، والآخرُ عند المُؤخّرة، وساقا النَّعشَ بإشارةٍ من أيديهما، وكأنّهما يَقودان طائرة، وذهبوا إلى القُرى، والكلُّ خلفَهم يُهلّلون: الشّيخُ محروس الطاير أهوه!.

رقصٌ وفرَحٌ وزَغاريد، وانضمّت إليهم فِرقُ المِزمارِ السّائحَة في المُدن، وأصبحت زفّةُ "الشّيخ محروس" وليست جنازتُه! وكلّما دخَلوا على قريةٍ استَقبلتهم بالزَّغاريدِ والطَّبل ورَشّ المِلح خوفًا

من الحَسد، وانضمّوا إلى الزّفّة. وهكذا في كلِّ قريةٍ حتّى أصبحتِ الزفّةُ طولُها أكثرَ من كيلومتر!.

والأعيانُ كلّها خلفَهُم، وصالحٌ والعُمدةُ أعيُنُهما على الأطفال، يُوجّهان الخفر: أنّه إذا ذهبَ الجانُ سيسقطُ الأطفالُ من هذا الارتفاع، وعليهم حمايتُهما؛ فسار الغُفرُ أسفلَ النَّعش، وظلَّ النَّعشُ يَلفُّ من صلاةِ الجُمعةِ حتّى مَغيبِ الشَّمس، وعادَ إلى المقابر مع أذانِ المغرب، كان الناسُ قد انتهوا من بناءِ الضَّريح داخلَ غُرفةٍ له، وعاد الموكبُ مع نهايةِ العمل، وكأنَّ الجانَّ كان معهم. وهلَّل من يَبنون: اللهُ أكبر! الشّيخُ محروس جاء في الموعدِ بالضَّبط، وكأنَّه كان معنا ونحن نَبني الضَّريح!.

هلَّل الجميعُ، وقالوا: هذه خَواصُّ الشّيخ وكشفُ الحجاب، وتمَّ دَفنُه، وأصبحَ "ضريحُ الشّيخ محروس الطّاير" في أوّل المقابر وأمامَ التّرعة.

(١٨)

وَقَفَ سالمٌ أمامَ الضَّريحِ بعدَ أنْ ذَهَبَ النّاسُ وعادوا إلى مَنازِلِهم، ووَضَعَ أحدُ المُقرَّبينَ منه حارسًا له، وفي يومِه الأوَّلِ رَتَّبَ طَريقةَ العَمَلِ في الضَّريحِ وكَيفيَّةَ الحِراسةِ مَن سيكونُ مُلازِمًا للضَّريحِ نَهارًا ومَن سيكونُ ليلًا.

وفي اليومِ الثَّاني جاءَ سالمُ الشَّايبُ ومعه رِجالُه يَحمِلونَ صُندوقَ النُّذورِ، فوَضَعَ عليه قُفلًا ومِفتاحَهُ معه هو فقط، ورتَّبَ الزّياراتِ، واختارَ يومَ الجُمُعةِ لإقامةِ حَلقَةِ الذِّكرِ الخاصَّةِ بالطَّريقةِ أمامَ الضَّريحِ، فهو يومُ عُطلةٍ رَسميَّةٍ، وسوفَ تأتي النّاسُ فيه بأعدادٍ كبيرةٍ، وهذا سيَزيدُ الغَلَّةَ في الصُّندوقِ. وقال: الحِراسةُ اللَّيليَّةُ يقومُ بها عيدُ الدَّهْلِ، أمّا نَهارًا فَكُلُّنا مَوجودونَ حَولَ الضَّريحِ. لقد أصبَحَ الضَّريحُ مَشروعَهم ومَصنَعَهم وكُلَّ شيءٍ لهم.

***

أصبَح ضَريحُ مَحروس الطائر مَزارًا للجميع، يَذهبُ إليه النّاسُ من كُلِّ حَدَبٍ وصَوب، ويأتيه زُوَّارٌ كلَّ يوم، أمّا يومُ الجُمعة فهو يومُ الزِّيارةِ الرَّئيسيَّة كما قرَّر سالمُ الشَّايب: يومُ حَلقةِ الذِّكر. تُقيمُ الجماعةُ الصوفيَّة "اللَّحيويَّة" بقيادة الشَّايب حَلقةَ الذِّكر

حولَ الضَّريح، ويمتلئ صُندوقُ النُّذور في هذا اليوم، ويَفتَحُه سالمُ الشَّايب في نِهايةِ اليوم ويُفرِّغ ما فيه في حُجرة، ويُوزِّعُ منه نِسبةَ الرُّبع على الأعضاءِ المُقرَّبينَ من الطَّريقةِ اللَّحيويَّةِ التي يَمتلِكها ومصاريفِ الطَّريقة، وأمّا الباقي فيأخُذه لنفسه.

فكُلَّ يومٍ يُفرِّغ الصُّندوقَ في حُجرته، ولم يترُكْ ما في الصُّندوقِ أن يَبيتَ إلى اليومِ التّالي مُطلَقًا، خَوفًا من سَرقَته، وكان دائمًا يُؤمِن بالمَثلِ القائل: حاميها حَراميها.

ويومَ الجُمعة تأتيهم وَلائمُ جاهزةٌ من المريدين، فأصبَح هذا الضَّريحُ جَنَّةً لهم، بئر أموال، دَجاجةً تبيضُ كلَّ يومٍ بيضةً من ذهب، بل مَزرعةَ دَواجنَ كاملة، ولذلك كان لا بُدَّ من حِراسةٍ للضَّريح، فعَيَّن سالمُ الشَّايب عيدَ الدَّهْلِ غَفيرًا للضَّريح حتّى لا يَهدِمَه أحدٌ ليلًا وتَضيع السَّبوبة.

***

كان الطِّفلانِ يذهبانِ يوميًّا إلى الضَّريحِ بلا إرادةٍ مِنهما، فقد كانا مَسلوبَيِ الإرادة، أو كأنَّهما يَسيران أثناءَ النَّوم. فقام العُمدةُ بحَبسِ الطِّفلَين في الغُرفة، وأغلَقَ البابَ بالقُفلِ عليهما، فكسَرا البابَ وذهبا إلى الضَّريح، فأصلَحَ العُمدةُ البابَ وقَفَلَه، ووضع عليه خفيرًا، وحينما فَتحَ البابَ عليهما ليُقدِّمَ لهما الغَداء، لم

يجِدهما بالداخل، فقد اختفَيا، ووُجِدا في الضَّريح، فتركَوهما يَفعَلانِ ما يُؤمَرانِ به، ومُجبَرانِ عليه دونَ وَعي. وكان وُجودُهما في الضَّريح يُسعِدُ سالمَ الشَّايبَ ورِجالَ الطَّريقة؛ لأنَّ النّاسَ يَعرفونَ الأطفالَ، ويأتونَ إلى القَريَةِ مِن أجلِهما، وكان العُمدةُ يَصدُّ النّاسَ، أمّا الآن فهما في الضَّريح بلا حِماية، والنّاسُ تستطيع أن تأتيَ إلى الأطفال؛ فهما "أولياءُ الله الصَّالحين"، مَن سارا على الماء، وطَارا في الهواء، وحلَّقا فوقَ نَعشِ شيخِهم الطائر، فهما الآن في الضَّريح، وهذا يَجعلُ الضَّريحَ أكثرَ شُهرةً وإقبالًا، ومُريدوا الأطفال صاروا يَضعونَ الأموالَ في الصُّندوق بعدَ أن كان العُمدةُ يَردُّهم، ولم يتأخَّرِ الأولادُ يومًا، لأنَّ مَن يُرسِلُهما هو الجان حتى تَكتملَ دائرةُ الفِتنة، وكان هذا يُدخِلُ صالحًا والعُمدةَ في كَربٍ كبير، ويَعرفانِ أنَّهما مُجبَرانِ على ذلك، ولهذا كانا يُرسِلانِ أحدَ الخفرِ خلفَهما حتى لا يتعرَّضَ لهما أحد.

(١٩)

الأحداثُ تَجري مُسْرِعةً مِن سَيِّئٍ إلى أَسْوَأ، وفَعَلَ صالحٌ كُلَّ شَيءٍ لإخراجِ الجانّ، ورَغْمَ خِبْرَتِه وقُوَّتِه في إخراجِ الجانِّ إلّا أنّها كُلَّها باءَتْ بالفَشَل، لأنَّ الجانَّ المُراوِغَ كان يَختَفي ويَرحلُ أثناءَ الجَلسة، وبهذا يَهدمُ كُلَّ شَيء.

لذلك قَرَّرَ صالحٌ والعُمدةُ قَرارًا لا رَجْعَ فيه، بَعدَ مُداوَلةٍ كَبيرةٍ بجوارِ الجُمَّيزة أنَّهُ لا بَديلَ عن الزَّواجِ مِنَ الجِنِّيَّةِ السّاحِرَة، مَهْما كانتِ النَّتائِج. لقد أَصبَحَ مَحروسُ الضَّبْعُ شَيخًا ولهُ ضَريحٌ بِاسْمِه، وتَحَوَّلَ مِن مَحروسِ الدَّجّالِ إلى (مَحروسِ الطّائِر)، وقد فُتِنَ النّاسُ في دِينِهِم، والأَوْلادُ يَذْهَبونَ إلى الضَّريحِ يَوميًّا رَغْمَ إرادَةِ الجَميع، ورَغْمَ إرادَةِ أَنْفُسِهِمَا، وكُلَّ يَومٍ يَخسَرانِ فيهِ الأَوْلادَ أَكثَرَ مِنَ اليَومِ السّابِق. ويَكْفي ما وَصَلْنا إلَيه، ومَهْما كانَ الإثمُ في الزَّواجِ مِنَ الجِنِّيَّةِ، فَهذا أَهوَنُ مِمّا يَجمَعانِ مِنَ الذُّنوبِ بِسَبَبِ التَّصَرُّفاتِ الَّتي فَعَلَها النّاسُ مِن تَقَرُّبٍ وتَمَسُّحٍ بالأَطْفال، وها هوَ مَحروسُ الطّائِرُ انضَمَّ إلَيهِمَا، وقَد فُتِنَ النّاسُ بِهِ. وقد قَلَّبَا المَوضوعَ على وُجوهِهِ الكَثيرة، وفي النِّهايةِ إنَّهُما لا يَمْلِكانِ إخراجَ الجانّ، وعليهِ فلا بَديلَ عن الزَّواجِ مِن كاليسا.

أَشعَلَ مُحَيْسِنُ الرّاكِيَةَ ودَفَنَ فيها بَرّادَ الشّاي والقَهوَة، وحَكَى صالحٌ للعُمدةِ عن زِيارةِ كاليسا لهُ في صُورَةِ زَينَب، وكانَ هذا قَبلَ ذَهابِهِم إلى الأَزْهَر، أي مُنذُ مُدَّة، وأيضًا جاءَتْ زَينَبُ لهُ في الحُلْمِ وأَوصَتْهُ على حَلِّ المُشكِلَة. فَرِحَ العُمدةُ وقالَ له: إذَنْ تَزَوَّجْها، سَتَراها في صُورَةِ زَينَبَ يا صالحُ، في سَعادةٍ أَكبَرَ مِنْ هذا.

وَرَدَّ صالحٌ: أَمْسِ نادَيْتُ على كاليسا كَثيرًا، ولَكِنْ لم تَأتِ حتّى غَلَبَني النَّوْم.

فحاوَلَ العُمدةُ أنْ يُهَدِّئَ مِن إحساسِه بِالفَشَلِ أو الحَيْرَة، وقالَ له: دَه تَقلٌ وَدَلال، لا يَهُمُّك.

وطَلَبَ منهُ أنْ يُحاوِلَ كَثيرًا، وإذا بِوَفْدٍ يَمُرُّ مِن أمامِهما قادِمًا مِن ضَريحِ الشَّيخِ مَحروسِ الطّائِر، بَعدَ أَداءِ صَلاةِ العِشاءِ بِجِوارِ الضَّريح. وكانا يَنظُرانِ إلى ما يَحدُثُ على أنَّهُما السَّبب، وكانَ جَلدُ الذّاتِ عندَهما عالِيًا جِدًّا، وكانَ النّاسُ يَميلونَ إليهما لِيُسَلِّموا على الطِّفلَينِ ويُقَبِّلوا الأيادي، لأنَّ الطِّفلَينِ يَترُكانِ الضَّريحَ قَبلَ المَغرِب. وقد باءَتْ مُحاوَلاتُ صالحٍ والعُمدةِ في مَنْعِهما مِنَ الضَّريحِ بِالفَشَل، مِمّا زادَ مِن استِيائِهِما مِنَ النّاسِ والأحداث.

فأرادَ العُمدةُ أنْ يَقطَعَ المَسيرَ إلى هذا الضَّريحِ الكاذِب، فَهَدَّأَهُ صالحٌ وقالَ: نُفَكِّرُ الأَوَّلَ في الأَوْلاد.

اعتَدَلَ صالحٌ في جَلسَتِه وأَخَذَ يُرَدِّدُ العِبارَةَ الَّتي قالَتْها لهُ كاليسا لِكَي تَحضُر: كالِيسا يا بِنْتَ شاهيندار، أنا في انْتِظارِك.

قالَها كَثيرًا، ولَكِنْ لم يَحدُث أيُّ شَيء، وإذا بِالطِّفلِ إبراهِيمَ ابنِ صالحٍ تَظهَرُ عليهِ عَلاماتُ حُضورِ الجانّ، وتَحَدَّثَ الطِّفلُ بِصَوتِ الجانّ وهو يَضحَكُ ويَقولُ له: يا صالِح، إنَّ كاليسا حَبَسَها والدُها لأنَّها اقْتَرَبَتْ مِنكَ.

رَدَّ صالحٌ في ذُعْرٍ على الجانّ: وعَرَفَ إزّاي؟ وهل هذا مَمنوعٌ عندَهُم؟

قالَ الجانُّ: نَحنُ أَبلَغناهُ أنَّها تُحِبُّكَ، وهذا ما دَفَعَهُ إلى حَبْسِها، لأنَّها أَحبَّتْ بَشرًا، وليسَ بَشرًا عادِيًّا، بل بَشرًا تَدورُ مَعْرَكَةٌ بَينَهُ وبَينَ الجانّ، والمَلِكُ شاهيندار جانٌّ طَيِّب، وطائِفَتُهُ يَكرَهونَ الشَّرَّ ويَبعُدونَ عنه، ولا يَتعامَلونَ أو يَقتَرِبونَ مِن أشرار، وهيَ بِذلِكَ خالَفَتْ قانونَ الجانّ الطَّيِّب: حَبَسَها فين؟.

– حَبَسَها عندَهُ في مَملكَتِه، داخِلَ قَصرِه. (وأَطلَقَ ضِحكَةً هِستيريّةً واختَفَى الصَّوت).

أفاقَ الطِّفلُ، وقالَ العُمدةُ لهُ حتّى لا يَسمَعَ الجانُّ الحَديث: قُوم روح اقعُد مع أَخوكَ في البَيت، النّاسُ كِدَه هَيحسِدوك.

قامَ الطِّفلُ وذَهَبَ إلى البَيت، وبَدأ العُمدةُ يُكمِلُ الحَديثَ الَّذي لا يُريدُ أنْ يَسمَعَهُ الجانُّ مِن خِلالِ الأَطفال: هَنعمل إيه؟ الجِنّيَّة مَحبوسَة، يَعني مَفيش جَواز. مين هَيخَلِّص الأَوْلاد؟.

فَكَّرَ صالحٌ وقد عَلا وَجهَهُ الهَمُّ، هوَ والعُمدة قال صالح: مفيش غير نور النوبي في قهوة دعبس. أكيد يعرِف ناس عندها قدرة ومعرفة أكتر مني.

فردَّ العُمدة: وماله، معاك في كل اتجاه. روح، وربنا يحلّها من عنده.

***

قال صالح متنهّدًا: أعمل إيه يا عم نور؟ أنا تعبت.

ألقى صالح سؤاله لنور النوبي في قهوة دعبس بعد أن قصَّ عليه ما حدث، لقد صنع كل شيء من أجل إخراج الجان من الأطفال، لكن كُلَّه باءَ بالفشل. نظر إليه نور بعينين مريضتين ضعيفتي النظر، وقال: وحِّد الله يا صالح.

فأجابه صالح: تعبت مع الجان اللي ساكن جسد الطفلين، وأصبح التحدي صعب.

نور: أنا أعرف كل شيء عن الأطفال وما حدث لكم، وأعرف من الحكاوي اللي عندي إن مشوارك صعب.

قال صالح: أعمل إيه؟ عندك حل أو حد يحل؟.

دار حوار طويل وناقشا كل شيء، ثم دلَّه نور أن هناك اثنين، إن لم ينجحا؛ فالطريق يكون بلا نهاية، وأرشده إليهما.

قال نور: أمامك اثنان فقط حسب علمي أنا وما أعرفه، فإن فشلا، فهناك مشكلة كبيرة.

سأله صالح: مَن هما يا عم نور؟.

قال نور: القس مينا سمير، وهو في محطة بنها، والشيخ البشير أيضًا في قرية قريبة من بنها.

أخذ صالح العناوين. وشكره وعاد للقرية ليأتي بالأولاد.

****

جلس صالح والعمدة والطفلان أمام القس، وحكوا له القصة كاملة بكل ما فعله الجان بالأولاد، ومحروس الطائر، وكل محاولات صالح في إخراج الجان.

قال القس: لقد علِمنا بأخبار الطفلين وما حدث، وأيضًا جنازة محروس الطائر.

قام القس برسم دائرة على الأرض، وقسمها إلى عدة أقسام، وأجلس الطفل الأول في وسط الدائرة، وبدأ يتمتم بعبارات لم يتبينها أحد، وفجأة حضر سِلهوب، وضحك ضحكات هستيرية، وقال: عاوز إيه يا مينا يا بن سمير؟

فقال القس: أقسمتُ عليك بملوك الجان أن تخرج.

ضحك سِلهوب وقال: أَرِح نفسك، لن أخرج إلا بموت الأطفال. هل تريد موتهما؟.

أخذ القس يتمتم ويقسم عليه ويتوعده، ويقرأ تعاويذ حرق الجان، ويقسم عليه بالآب والروح القدس، فصاح الجان سِلهوب وهو يضحك: لن أخرج، فبيننا حرب، وهما أرض خصبة لدماركم أيها البشر وفتنتكم.

صاح القس بعبارات التهديد والوعيد، وقال إنه سوف يحرقه إن لم يخرج، وفجأة أفاق الطفل وسأل: في إيه؟ أنا فين؟.

فصاح القس: لقد هرب الجان الجبان، إنه صعب المراس يا سادة. نجرب مع الثاني، وما حدث مع الأول حدث مع الثاني، فأبدى القس أسفه، ودعا لهم أن يوفقهم الله، وقال: ما بينكم حرب وثأر، وفرصة للجان أن يفعل ما يتمناه، ساعدكم الرب.

****

وصلا إلى منزل الشيخ البشير، فرحّب بهما وأدخلهما، وقصّا عليه أيضًا القصة وما حدث، حتى لقائهما مع القس مينا سمير.

وقال لهم: لقد جاءتنا هذه الأخبار، وسأحاول أيضًا مثلما حاول صالح وغيره. ولكن من الصعب أن يتحمّل الأطفال جلستين في يوم واحد، فاتُّفِق على أن يذهب الشيخ إلى القرية بعد يومين، وإن شاء الله خير. وانصرفوا قائلين: نحن في انتظارك.

(٢٠)

اليومَ هو الجُمُعةُ السَّادسةُ لدفنِ مَحروسِ الطَّائر. وَقَفَ سالمُ الشَّايبُ أمامَ الضَّريحِ يستقبلُ الزُّوَّارَ القادمينَ لزيارةِ الشَّيخِ مَحروسِ الطَّائر وأداءِ صلاةِ الجُمُعةِ بجوار الضريح، ولذلك مَهَّدَ سالمُ الشَّايبُ قطعةَ أرضٍ كبيرةٍ أمامَ الضَّريحِ الكائنِ على ناصيةِ المقابرِ ومُقَدِّمتِها، والمُواجِه للترعة، وقد ساعدَهُ رِجالُه - رجالُ الطَّريقةِ اللَّحيويَّة - والمُريدونَ في ذلك، وعَمِلَ مظلَّةً عِبارةً عن تعريشةٍ لهذه الأرض، وهي مُحَمَّلةٌ على مجموعةٍ من العُروقِ الخشبيَّةِ لتُصبِحَ جامعًا للصلاة، وفُرِشَت الأرضُ بالحصيرِ لاستقبالِ المصلِّين، وأقبلَ الزُّوَّارُ من الأعيانِ وعامَّةِ الناسِ من كلِّ مكان. فهذه هي الجُمُعةُ السَّادسةُ لمَحروسِ الطَّائر، وهي موعدُ الأربعينِ يومًا على وفاته، وسالمٌ ورجالُه يَستعدُّونَ لهذا اليوم، وقد أبلَغَ الجميعَ بموعدِ الأربعينِ هذا.

ورغم أنَّهُ حَلَّ منذ يومين، إلَّا أنَّ سالمَ الشَّايبَ اختارَ يومَ الجُمُعةِ ليكونَ الإقبالُ كبيرًا وتكثرَ حصيلةُ الصُّندوق؛ فقد وصلت حصيلتُه حتَّى الآن في هذه المدَّةِ البسيطة – الأربعونَ يومًا – ستينَ جُنيهًا، أي ثمنَ فدَّانِ أرضٍ، وأصبحَ سالمٌ صاحبَ أرض، وغدًا وبهذه الطَّريقة غنيا، وكاد يُصبِحُ من الأعيان، وأقبلَ

المُريدونَ إلى الضَّريحِ مُحمَّلينَ بالطَّعامِ والفواكه، ورجالُ الطَّريقةِ يَستَلمونَ صوانيَ الطَّعامِ ويَضعونَها في الغرفةِ بجوارِ الضَّريحِ حتَّى تنتهي الصَّلاة.

اصطفَّ المصلُّونَ تحتَ التَّعريشةِ أمامَ الضَّريح، وجلسَ الأعيانُ في الصَّفِّ الأوَّلِ بجوارِ الأولاد، وبجوارِهم جلسَ الغفرُ مَحيسن وشعلان لحمايةِ الأولادِ من الناسِ الذينَ يُقبِلونَ عليهما، ويُقبّلونَ أيديهِما، ويتغنَّونَ بهما، فهم أولياءُ اللهِ الصَّالحون.

واكتظَّ المكانُ بالمُريدين، ووقفَ سالمُ الشَّايبُ وخطبَ خطبةَ الجُمُعةِ في الناس، فقد أصبحَ شيخَ طريقةٍ وشيخَ جامعٍ (مَحروسِ الطَّائر)، وأصبحَ من المشاهير، ولَبِسَ لِباسَ الأعيانِ وبدأ من الآن يُعَدُّ من أصحابِ الأرض، أي أصحابِ الطِّين، وقد أهداهُ سيِّدُ الباشا، عمدةُ قريتِه – قريةِ الباشا – حصانًا ليَستَخدمَهُ في مولدِ مَحروسِ الطَّائر، وهو يومُ وفاةِ الشَّيخِ مَحروسِ الطَّائر، وحسبَ العادةِ في المولدِ يَركبُ شيخُ الطَّريقةِ الحصانَ ويطوفُ بالقرى في موكبٍ كبيرٍ وسطَ المُريدين، وحولَه الطَّبلُ والزَّمرُ والذِّكر، وتُسمَّى (زفَّةَ المولد)، ويُستَخدمُ الحصانُ باقيَ العامِ في التَّنقُّل، لأنَّهُ الآنَ أصبحَ شيخَ طريقةٍ وشيخَ جامعٍ، ويُفتي الناسَ في دينِهم، فأصبحَ له مكانة.

فيتحرَّكُ بالحصانِ في كلِّ مشاويرِه، فإذا مرَّ بأحدٍ أو بجماعةٍ جالسةٍ وقفوا وحَيَّوهُ وهو راكبٌ حصانَهُ، وهم يصيحون: "سيِّدَنا الشَّيخَ سالم". وإذا مرَّ على النساءِ زغردنَ سعادةً برؤيتِه، أخذَ شكلًا جديدًا ومكانةً لم يأخذها إلَّا العُمدُ ونُوَّابُ البرلمان، بل هو يزيدُ عليهم بزغاريدِ النساء، لأنَّهم علموا أنَّ كلَّ زغرودةٍ للشَّيخِ بحسناتٍ كثيرة، ولذلك أصبحَ الضَّريحُ حياتَهُ نفسَها، وربَّما أغلى منها، فهو طاقةُ القدرِ التي ظهرت له، ومَنَّ اللهُ بها عليه، وكانت من نصيبِه.

***

كانت الخُطبةُ تتحدَّثُ عن أولياءِ الله، وكيفَ أنَّ اللهَ يُحبُّهم ويُحبُّ مَن يُحبُّهم، ومَن يَتقرَّبْ إلى أولياءِ الله يَرفعْهُ الله، ومَن يُساعدْهم يُساعدْهُ الله، ومَن يُعطِهم يُعطِهِ الله، وأخذَ يتحدَّثُ عن أعمالِ مَحروسِ الطَّائرِ التي لا يَعرِفُها أحد، وكيفَ كانَ يُساعدُ الناسَ في فَكِّ السِّحرِ المصنوعِ لهم، وكيفَ أنَّهُ كانَ يُفكِّكُ المربوطَ ويُعيدُ التائه.

انتهتِ الصَّلاة. ومُدَّت صواني الأكلِ للنَّاس، فأكلَ الجميعُ وهم يُهلِّلونَ باسمِ مَحروسِ الطَّائر، وبعدَ الانتهاءِ من الطَّعامِ ومن تَقبيلِ أيادي الأطفالِ إبراهيمَ وصالحٍ – وهما في حمايةِ الخفيرين

حتَّى لا يُؤذِيَهما الناس. قالَ سالمُ الشَّايبُ للنَّاس: الآنَ حانَت الزِّيارة.

دخلَ الناسُ طابورًا إلى ضريحِ مَحروسِ الطَّائر، وكلٌّ مَن يَدخُلُ يَمرُّ على صندوقِ النُّذور، ويضعُ فيه البركةَ، ويقرأُ الفاتحةَ ويدعو ما طابَ له، ويُقبِّلُ القماشَ الأخضرَ الموضوعَ فوقَ الضَّريح – كسوةَ الضَّريح – وأركانَ الضَّريحِ الأربعة، ويَخرجُ وهو في سعادةٍ بالغةٍ بأنَّ مَحروسَ الطَّائرَ سيتشفَّعُ له عندَ الله، فهو وليٌّ من أولياءِ الله. ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

***

كانَ الأعيانُ في هذا اليوم، ولأنَّهُ يومُ الأربعينِ للشَّيخِ مَحروسِ الطَّائر، كلٌّ منهم يَضعُ في الصُّندوقِ ما لا يَقلُّ عن خمسينَ قِرشًا، ومنهم مَن وَضَعَ جُنيهًا كاملًا، وكانَ يَكتُبُ اسمَهُ على الجُنيهِ حتَّى لا يَنساهُ مَحروسُ الطَّائر، أمَّا باقي الناسِ فكانوا يَضعونَ في الصُّندوقِ نِصفَ قِرشٍ أو قِرشًا، حسبَ مَقدرتِهم، تَقَرُّبًا إلى الشَّيخِ مَحروسِ الطَّائر، مُقتنِعينَ أنَّهُ يَعرِفُ مَن يَدفَعُ وكَم يَدفَع. وفي هذا اليوم، حينما فتحَ سالمُ الشَّايبُ الصُّندوقَ بعدَ رَحيلِ الجميع، كانت بالنِّسبةِ له مُفاجأة؛ لقد وجَدَ أنَّ الصُّندوقَ

فيه عشرةُ جُنيهاتٍ حصيلةَ يومٍ واحد، وذلك لأنَّهُ يومُ ذِكرى الأربعين، ويومُ جُمُعة، وهذا ما جعَلَ سالمَ الشَّايبَ يَضعُ حياتَهُ كلَّها فِداءً لهذا الضَّريح، فأصبحَ الضَّريحُ له كلَّ حياتِه، إنَّ عشرةَ جُنيهاتٍ كفيلةٌ بأن تَشتَريَ جاموسةً، وهو فَلَّاحٌ يَعرِفُ قيمةَ المواشي وفوائدَها للفَلَّاح.

(٢١)

لَم تَعُدْ قَرْيَةُ الرِّفَاعِي كَسَابِقِ عَهْدِهَا، بَسِيطَةً مَغْمُورَةً مَجْهُولَةً، بَلْ أَصْبَحَتْ أَكْثَرَ مِن نَارٍ عَلَى عَلَمٍ، يُقْبِلُ عَلَيْهَا أُنَاسٌ كَثِيرُونَ؛ مِن أَجْلِ الأَطْفَالِ أَوْ مُرُورًا بِهَا لِزِيَارَةِ الشَّيْخِ مَحْرُوسٍ الطَّائِرِ، وَلَكِنْ فِي ذَهَابِهِمْ وَعَوْدَتِهِمْ تَبْحَثُ عُيُونُهُم عَنِ الأَطْفَالِ، أَمَّا عَنِ الأَطْفَالِ فَلَمْ يَتْرُكْهُمُ الجَانُّ، وَلَمْ يَكْتَفِ بِأَنَّهُ يَلْبَسُ أَبْدَانَهُمَا، بَلْ أَخَذَهُمَا إِلَى ضَرِيحِ مَحْرُوسٍ الطَّائِرِ، وَكَانَ العُمْدَةُ وَصَالِحٌ يَسْأَلَانِ أَنفُسَهُمَا: نَحْنُ الآنَ فِي إِجَازَةِ المَدَارِسِ، فَمَاذَا نَفْعَلُ عِنْدَ بَدَايَةِ الدِّرَاسَةِ؟ هَلْ سَيَتْرُكُهُمَا الجَانُّ أَمْ سَيَتَخَرَّجَانِ مِن مَدْرَسَةِ مَحْرُوسٍ الطَّائِرِ؟.

أَصْبَحَ هَذَا الضَّرِيحُ وَبَالًا عَلَى الأَطْفَالِ، وَقَدْ فَشِلَا فِي مَنْعِهِمَا عَنِ الضَّرِيحِ، وَالجَانُّ يُطِيرُ بِهِمَا إِذَا حَبَسُوهُمَا، وَالضَّرِيحُ يَفْتِنُ النَّاسَ وَيُضَيِّعُ الأَوْلَادَ، نَحْنُ الآنَ تَحْتَ وَطْأَةِ احْتِلَالِ الجَانِّ لَنَا.

***

شرح العمدة ما بداخله لصالح، فإذا كان الجان الطيب والد الجنية الساحرة كاليسا يكره الشر ويحاربه و يحبس ابنته. وهو أحد ملوك الجان لأنها اقتربت من دائرة الشر، ونحن في دائرة الشر الآن، وأولادنا ضاعت منا، وننتقل من شر إلى شر ومن

حفرة إلى بئر، وكل ما نفعله نحذر الناس ونفرقهم ونخيفهم لكن بلا جدوى، لابد أن نقف ضد الشر، لابد أن نفعل شيئا، لا يجب أن نظل هكذا، الأولاد ضاعت. وضاعت أكثر مع هذا الضريح الملعون، إننا لا نستطيع منعهما عن الذهاب للضريح، فأصبح قدرنا وكله من الجان فقال له صالح: اقترح وأنا معك ولن أخذلك.

- لابد من الوقوف أمام هذا الشر ليحس الجان أننا نقاومه ونستطيع أن نفعل شيئا، وأن يخاف منا ولو بعض الشيء.

- إنني أحاول كل يوم، فأحضر الجان على ابراهيم ابنى لكى أخرجه وأحرقه، فيحضر، لكن سرعان ما يهرب، إنه مراوغ.

فرد العمدة بقوة: نهدم هذا الضريح بؤرة الكفر قبل حضور الشيخ البشير، فوجود الضريح يجعل طمع الجان في الإفساد كبير وخروجه صعب، فكيف يخرج ويترك هذه الارض الخصبة لفتن الناس في دينهم. وننقذ الأولاد من الذهاب للضريح، إنه يحضر عليهما بالضريح، ويفتن الناس بهما، لقد فشلنا في منعهما أنسيت؟.

وافق صالح وقال: نعم نهدمه، لكن كيف والناس هنعمل معاها إيه؟.

فرد العمدة وقال: لقد مر شهر ونصف على إنشاء الضريح، ويوم الاربعين كان حفلة وعلمت أن حصيلة يوم الاربعين في الصندوق عشرة جنيهات، لن يترك سالم وشلته الضريح، لقد اشترى سالم الشايب في أربعين يوم فدان أرض، وتحول من مستأجر إلى صاحب ملك، وكل ذلك من صندوق النزور.

ضحك صالح وقال: شر البلية ما يضحك، وكيف عرفت ما بالصندوق؟.

ضحك العمدة: ليه ناس جواهم، المهم بالليل وقبل الفجر بحوالي ساعة نأخذ جميع الخفر ومعهم الفؤوس، ونهدم هذا الضريح ونقول إن من هدم هذا الضريح هي جنية البير. وإنها خرجت وهدمت الضريح، ومن يذهب إلى هناك ستقتله الجنية وسوف يمسه الجان، وبهذا سيخاف الجميع ولن تجد أحدا هناك.

قررا أن غدا سنبدأ، ونذهب بلا أنوار كلوبات أو سراج، نذهب في الظلام حتى لا نلفت أي أنظار إلى الضوء، خاصة وإننا في آخر الشهر العربي فلا يوجد قمر، وهذا هو المطلوب، وعلق محيسن: إن خفير عزبة الباشا الواد عيد الدهل يبات في الضريح مقابل عشرة قروش يوميا.

فقال له صالح: ليه، هو في حد هيسرق الجثة؟

- لا يا صالح أفندي، علشان يحمي الصندوق، ده مليان فلوس.
وضعت خطه مفادها إرهاب عيد الدهل ليفر بجلده، وبعدها يهدم الضريح.
محيسن قال: أنا افعل ذلك، سوف ألثم وجهى، وأطرق باب الضريح بقوة سأجعله يقطع الخلف.

****

وَصَلُوا قَبْلَ الفَجْرِ إِلَى المَقَابِرِ، وَكَانَ اللَّيْلُ حَالِكَ السَّوَادِ، اخْتَفَى الجَمِيعُ بَيْنَ المَقَابِرِ الخَلْفِيَّةِ لِلضَّرِيحِ، وَتَقَدَّمَ مُحَيْسِنٌ وَطَرَقَ البَابَ طَرَقَاتٍ تَكَادُ تَخْلَعُهُ، ثُمَّ اخْتَفَى، وَخَرَجَ عِيدُ الدَّهْلِ، فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا، فَعَادَ وَقَلْبُهُ يَدُقُّ، وَأَغْلَقَ البَابَ. فَعَادَ مُحَيْسِنٌ الكَرَّةَ، وَوَضَعَ لَهُ وِسَادَةً مَلْفُوفَةً كَأَنَّهَا جُثَّةٌ، فَخَرَجَ الدَّهْلُ، فَوَجَدَ جُثَّةً أَمَامَ البَابِ، فَصَرَخَ وَتَرَكَ الضَّرِيحَ، وَأَطْلَقَ سَاقَيْهِ لِلرِّيحِ، تَرَكَ الجَمَلَ بِمَا حَمَلَ، وَهُوَ يَصْرُخُ وَيَهْرُولُ، وَيَقَعُ وَيَقُومُ وَيَجْرِي وَيَقَعُ، حَتَّى اخْتَفَى فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ. وَأَتَوْا بِالضَّرِيحِ أَرْضًا، وَأَخَذُوا جُثَّةَ مَحْرُوسٍ، وَدَفَنُوهَا فِي إِحْدَى مَقَابِرِ الصَّدَقَةِ الَّتِي يَمْلِكُهَا العُمْدَةُ، وَحَذَّرَ العُمْدَةُ مِنْ إِفْشَاءِ مَكَانِ جُثَّةِ مَحْرُوسٍ لِأَحَدٍ.

(٢٢)

عَنَّفَ سالمُ الشايبُ عيدَ الدَّهْلَ تعنيفًا شديدًا، وكاد أن يضربه. ومع نورِ الصبح كان سالمٌ وفريقه في المقابر أمام الضريح، ليجدوه قد سُوِّيَ بالأرض، فصرخ سالمُ من هولِ الكارثة التي سقطت فوق رأسه؛ إنَّه الضريحُ المعجزةُ، البيضةُ التي تبيضُ له البيضةَ الذهبيةَ، عُمرُه القادمُ والسالفُ، الحاضرُ والمستقبلُ، مكانتُه الجديدةُ التي أصبحت مكانتَه الرفيعةَ بين الناس، العِزُّ وركوبُ الخيل، وزَغاريدُ النساء، وتقبيلُ الرجالِ ليده.

بدأ سالمٌ ورجالُه في رفعِ الأنقاضِ بحثًا عن جثةِ الشيخ محروس الطائر، ولكنهم لم يجدوها، وما وجدوه إلا الجثةُ المزوَّرةُ، الوسادة التي خاف منها عيدُ الدهل. فأمسك سالمٌ بيده المخدَّةَ ورفعها في وجهِ عيد الدهل صارخًا فيه: دي اللي رَعَبَتْك يا دَهْل، وسيبتَ الضريح بسببها؟! صحيح دَهْل!.

فردَّ الجميعُ: نَبْنِيه من تاني.

فابتسم سالمٌ وقال: بِنَايته سهلة، وهنبنيه، بس فين الجثة؟.

فردَّ أحدُهم: الجثة في إيدك يا شيخ، هو في حدٍّ هيفتح ويشوف؟.

– يا غبي! دول هدُّوا، يعني عملوا ما هو أكبرُ من الفتح.

– نمنع أيَّ حدٍّ يفتح.

– افهموا! اللي هدَّ الضريحَ أخفى الجثة، ولو بَنَيْنا الضريحَ والجثةُ عنده وتحت إيده، هيقول للناس إن الضريح بلا جثة، وممكن يجمع كبارَ القوم من العُمَدِ والأعيان، ويطلبوا فتح الضريح. ساعتها هنعمل إيه؟

– طيب، هنعمل إيه دلوقتي؟

– نبحث عن الاثنين: الجثةِ واللي هدَّ، وتقريبًا أنا عارفه.

****

انتشرتْ قصةُ هدمِ الضريح، وخرجتْ قصصٌ كثيرةٌ كلُّها مؤلَّفة، وأخذ الخفَرُ المالَ الذي بالصندوق نظيرَ الأتعاب، كمنحةٍ أو هِبَةٍ مقابلَ تعبِهم. ولم يجرؤْ أحدٌ على الذهابِ إلى الضريح خوفًا من الجانِّ أو الجنيَّة، وسرعانَ ما اختلق سالمُ الشايبُ قصةً، وقال: إنَّ الملائكةَ هدَمَتِ الضريحَ وأخذتِ الجثةَ إلى السماء؛ لأنه رجلٌ صالح، واسمه (محروس الطائر)، فمكانُه الطيرانُ في السماءِ يُحلِّق كيفما شاء، ونحن في انتظارِ عودتِه، وانتهتِ الأسطورةُ بأسطورةٍ صعبَ مَحوُها من عقولٍ مريضة.

****

جلسَ سالمُ الشايبُ مع نائبَيْه ومعاونيه وأقربِ الناس إليه في طريقتِه اللحيوية، وبينهم صِلَةُ رَحِمٍ ودَم؛ أخوه وأخو زوجتِه. وقال لهما ما يدور بداخلِه، وتناقشوا حول هدمِ الضريح، ومن يكون الفاعل، فقد تملَّكَ من سالم الشايب يقينٌ ساطعٌ داخله، أنَّ عمدةَ قريةِ الرِّفاعي هو من هدم الضريح، ومعه صالح أفندي، وذلك خوفًا على ولديهما؛ فهما يذهبان يوميًّا إلى الضريح غصبًا عنهما، ولم يُفلح معهما حبسٌ أو غَلْقُ أبواب.

ومن كثرةِ تعامل صالح أفندي مع الجانِّ، وجلساتِ صَرْفِ الجانِّ، وحواراتِ الجانِّ التي لا تنتهي، ظنَّ أن ما فيه الأولادُ من أفعالِ الجانِّ، ولم يصدِّق أنهما أولياءُ الله، وكذلك ظنَّ بالشيخ محروس الطائر، وفسَّر الطيرانَ أيضًا على أنه أفعالُ جانٍّ، فكلُّ شيءٍ خارقٍ عند صالح أصبح أفعالَ جانٍّ، فقلبُه ليس صافيًا مثلنا، لقد ظلم الطفلين، وكذلك ظلم الشيخَ محروس الطائر، ولم يلتفتْ إلى معجزاتِه هو والأطفال؛ إنَّه أعمى القلب. فسألاه: وهل العمدةُ يكره الخيرَ لنا؟ إنَّ محروسًا كان صديقَه.

– لا يكره الخير، بل هو رجلُ خير؛ فهو يحب الخيرَ للناس كلِّها، ويُطعم الطعامَ، ويُعطي ويُجزل العطاء، لكن الخوفَ على الأولاد من الناس التي تتقرَّب إليهم وذهابِهما للضريح هو السبب.

– وما العمل؟.

– أكيد الجثةُ في أحدِ مقابرِ الصَّدقة للعمدة؛ فلن يدفنَه في مقابرِه الخاصة لأنه ليس من العائلة، ولن يدخل غريبًا عليهم.

– نعمل إيه؟.

– البحثُ في المقابر عن جثةِ شيخِنا، وهي من السهل التعرُّفُ عليها؛ لأن كفنَها لونه أخضر، والبحثُ يكون ليلًا، اعرفوا مكانَها فقط، وأخبروني به.

– سمعًا وطاعةً يا شيخَنا.

– اختاروا من الرجال الكتومَ والذكيَّ، ويكون العددُ قليلًا، يكفي أن يكون الإجمالي اثنين أو ثلاثة للبحث.

– آمين يا شيخَنا.

– نبدأ من اليوم، حتى يرتاح شيخُنا في نومته.

وانطلق الرجلان لبدء البحث.

(٢٣)

أَقْبَلَ الشَّيْخُ الْبَشِيرُ مُمتَطِيًا رُكُوبَتَهُ – حِمَارَهُ – إِلَى الْقَرْيَةِ. وَوَجَدَ الْعُمْدَةَ وَصَالِحًا وَمَعَهُمَا الطِّفْلَانِ عِنْدَ الْجُمَيْزَةِ، وَمُحَيْسِنٌ يَصْنَعُ لَهُمُ الشَّايَ وَالْقَهْوَةَ، كَانَ الْوَقْتُ سَاعَةَ الْعَصَارِي، فَسَلَّمَ وَجَلَسَ، وَأَعْطَاهُ مُحَيْسِنُ الْقَهْوَةَ، وَنَظَرَ إِلَى الطِّفْلَيْنِ، أَحَسَّ أَنَّ شَيْئًا غَيْرَ طَبِيعِيٍّ قَدْ حَدَثَ لِلطِّفْلَيْنِ مِنْ نَظَرَاتِهِمَا، فَسَأَلَهُمُ الْبَشِيرُ: فِي حَاجَةٌ حَصَلَتْ لِلْأَوْلَادِ؟.

فَرَدَّ صَالِحٌ: لَا، لَمْ يَحْدُثْ أَيُّ شَيْءٍ، لَكِنْ لِمَ تَسْأَلُ هَذَا السُّؤَالَ؟.

فَقَالَ الْبَشِيرُ: نَظَرَاتُهُمَا مُتَغَيِّرَةٌ، هُنَاكَ شَيْءٌ.

صَالِحٌ: زَيِّ إِيه؟.

الْبَشِيرُ: نَظَرَاتُهُمَا كُلُّهَا غَضَبٌ وَتَرَقُّبٌ، وَكَأَنَّهُمَا عَلَى وُشْكِ الانْفِجَارِ.

صَالِحٌ: تَقْصِدُ الْجَانَّ؟

الْبَشِيرُ: طَبْعًا، فَالْأَوْلَادُ غَيْرُ مَوْجُودِينَ، الْمَوْجُودُونَ هُمُ الْجَانُّ.

فَقَالَ الْعُمْدَةُ: لَقَدْ هَدَمْنَا الضَّرِيحَ، أَيَكُونُ هَذَا هُوَ السَّبَبَ؟

فَصَاحَ الْبَشِيرُ: لِمَاذَا تَفْعَلُونَ ذَلِكَ؟ لِمَاذَا تُثِيرَانِ الْجَانَّ؟ إِنَّ الضَّرِيحَ أَصْبَحَ دُنْيَاهُمَا.

الْعُمْدَةُ: الْأَوْلَادُ شِبْهُ مُقِيمَيْنِ هُنَاكَ، وَالنَّاسُ تُقَبِّلُ أَيْدِيَهُمَا وَتَتَبَرَّكُ بِهِمَا.

الْبَشِيرُ: رَبُّنَا يَسْتُرْهَا. مُمْكِنْ نَبْدَأ؟ سَوْفَ أَقُومُ بِتَحْضِيرِ الْمَلِكِ شَمْهُورُش، وَهُوَ أَقْوَى مَلِكٍ مُسْلِمٍ، وَاسْمُهُ يُزَيِّنُ كِتَابَ "شَمْسِ الْمَعَارِفِ".

صَالِحٌ: عَلَى بَرَكَةِ اللهِ.

الْعُمْدَةُ: هَيَّا إِلَى الْمُضِيفَةِ.

صَالِحٌ: بَلَاشِ الْمُضِيفَةِ، ضُيُوفُكَ كَثِيرٌ، وَنَحْنُ نُرِيدُ أَلَّا يَرَانَا أَحَدٌ أَوْ يُعَطِّلَنَا، هَيَّا إِلَى بَيْتِي.

فَقَامَ الْجَمِيعُ وَدَخَلُوا إِلَى بَيْتِ اللَّحْيَوِيِّ.

****

رَسَمَ الشَّيْخُ الْبَشِيرُ عَلَى الْأَرْضِ دَائِرَةً كَبِيرَةً، وَقَسَمَهَا إِلَى نِصْفَيْنِ، ثُمَّ رَسَمَ بِدَاخِلِهَا مُرَبَّعًا، وَأَخَذَ يَكْتُبُ فِي كُلِّ قِسْمٍ الْآيَاتِ وَالْعِبَارَاتِ وَالرُّسُومَاتِ الْمَوْجُودَةَ فِي كِتَابٍ مَعَهُ طِبْقَ الْأَصْلِ، نَقَلَ رَسْمَةَ الْكِتَابِ كَامِلَةً وَكَأَنَّهُ صَوَّرَهَا، وَصَالِحٌ وَالْعُمْدَةُ يُرَاقِبَانِ مَا يَفْعَلُ الْبَشِيرُ. وَوَضَعَ الطِّفْلَيْنِ دَاخِلَ الدَّائِرَةِ، كُلُّ طِفْلٍ فِي نِصْفٍ مِنْهَا، وَفِي مَوقِدٍ مِنَ الْفَخَّارِ يُوجَدُ بِهِ فَحْمٌ مُشْتَعِلٌ، وَضَعَ فِيهِ بَخُورًا بِكَمِّيَّاتٍ كَبِيرَةٍ، فَأَصْبَحَتِ الْغُرْفَةُ مُعَبَّقَةً بِرَائِحَةِ الْبَخُورِ

وَدُخَانِهِ، وَرَشَّ بَعْضَ الْمَاءِ الَّذِي قَرَأَ عَلَيْهِ قُرْآنًا عَلَى الْأَوْلَادِ، وَبَدَأَ يَتَمْتِمُ بِطَلَاسِمَ وَعِبَارَاتِ تَحْضِيرِ الْجَانِّ، وَبَدَأَ يُنَادِي عَلَى الْمَلِكِ شَمْهُورُش، أَحَدِ مُلُوكِ الْجَانِّ الْمُسْلِمِينَ الْأَقْوِيَاءِ، وَالَّذِي يَعْرِفُهُ جَمِيعُ الْجَانِّ وَيَهَابُونَهُ، وَبَدَأَ الْجَمِيعُ يَسْمَعُ أَصْوَاتَ صَفِيرٍ فِي الْغُرْفَةِ، ثُمَّ بَدَأوا يَحِسُّونَ بِالْأَرْضِ تَهْتَزُّ مِنْ تَحْتِهِمْ، ثُمَّ جَاءَهُمْ صَوْتٌ يُزَلْزِلُ الْمَكَانَ بِضَحِكَاتٍ عَالِيَةٍ أَرْعَبَتِ الْمَوْجُودِينَ؛ أَمَّا الْأَطْفَالُ فَكَانُوا شِبْهَ مُغَيَّبِينَ، لَا يَسْمَعُونَ مَا يَحْدُثُ حَوْلَهُمَا، وَبَدَأَ الْجَانُّ شَمْهُورُش يَتَحَدَّثُ وَيَسْأَلُ بِصَوْتٍ يُزَلْزِلُ الْغُرْفَةَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَظْهَرْ: عَايِزْ إِيهْ يَا بَشِيرُ؟.

- بِحَقِّ عَهْدِ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ نُرِيدُ مُسَاعَدَتَكَ يَا مَلِكَ الْجَانِّ.

- مَكَانُكُمْ بِهِ سُكَّانُ جَانٍّ، وَهُمَا سِلْهُوبٌ وَهَيْثَمُورُ.

- أَنْقِذْنَا مِنْهُمَا بِحَقِّ اللهِ وَعَهْدِ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ، فَإِنَّهُمَا يَسْكُنَانِ أَطْفَالًا صِغَارًا وَلَمْ يَرْحَمُوهُمَا.

فَجْأَةً تَغَيَّرَ شَكْلُ الْأَوْلَادِ، وَبَدَآ يَتَحَفَّزَانِ لِأَيِّ شَيْءٍ، وَتَحَدَّثَ سِلْهُوبٌ وَهَيْثَمُورُ مَعًا: إِنَّهُمَا أَعْدَاؤُنَا، وَلَنَا ثَأْرٌ عِنْدَهُمَا.

سِلْهُوبُ: لَقَدْ أَخْرَجَنِي صَالِحٌ وَمَعَهُ إِبْرَاهِيمُ مِنْ جَسَدِ حَبِيبَتِي وَحَارَبَنِي.

هَيْثَمُورُ: وَأَنَا، لَقَدْ قَتَلَ أُخْتِي سَاكِنَةَ الْبِئْرِ، وَبَيْنَنَا ثَأْرٌ لَنْ أَتْرُكَهُ.

شَمْهُورُش: اخْرُجَا وَاتْرُكَا الْأَطْفَالَ، فَلَمْ يَفْعَلُوا شَيْئًا لَكُمَا، وَلَيْسَ لَهُمَا ذَنْبٌ.

فَقَالَا: لَنْ نَخْرُجَ وَلَنْ نَتْرُكَهُمَا، لَقَدْ هَدَمَ صَالِحٌ وَإِبْرَاهِيمُ الضَّرِيحَ، وَهَذَا عِقَابُهُ الْوَخِيمُ، لَقَدْ هَدَمَا أَهَمَّ شَيْءٍ عِنْدَنَا.

شَمْهُورُش: اخْرُجَا وَإِلَّا دَمَّرْتُكُمَا وَحَبَسْتُكُمَا.

فَقَالَا: سَيَعُودُ الضَّرِيحُ يَا صَالِحُ، وَالْجُثَّةُ الَّتِي أَخْفَاهَا الْعُمْدَةُ فِي أَحَدِ مَقَابِرِهِ سَنَدُلُّ سَالِمَ الشَّايِبَ عَلَيْهَا.

فَصَاحَ صَالِحٌ غَاضِبًا: الضَّرِيحُ تَانِي؟ وَإِضْلَالُ النَّاسِ تَانِي؟.

الْعُمْدَةُ: دُولْ عَارِفِينْ مَكَانَ الْجُثَّةِ!!.

سِلْهُوبُ: الْقَادِمُ أَسْوَأُ.

شَمْهُورُش: قُلْتُ اخْرُجَا.

وَهُنَا صَاحَ الْجِنِّيَانِ سِلْهُوبٌ وَهَيْثَمُورُ، وَأَرَادَا الْفِرَارَ مِنَ الْمَلِكِ شَمْهُورُش أَقْوَى مُلُوكِ الْجَانِّ، وَيَفْعَلَا فِعْلَتَهُمَا وَيَهْرُبَا: سَمْعًا وَطَاعَةً، سَنَخْرُجُ وَلَنْ يَرَوْنَا بَعْدَ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ لَنْ يَرَوْا الْأَطْفَالَ، سَوْفَ نُرْسِلُهُمَا إِلَى وَادِي الْمَوْتِ بِالْعَالَمِ السُّفْلِيِّ، وَادٍ لَا يَدْخُلُهُ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ. وَأَطْلَقَا ضَحِكَةً عَالِيَةً، وَفَجْأَةً اخْتَفَتِ الْأَوْلَادُ مِنَ الْغُرْفَةِ. وَصَاحَ شَمْهُورُش: انْتَظِرَا، انْتَظِرَا، أَقْسَمْتُ عَلَيْكُمَا!

فَقَالَ هَيْثَمُورُ: وَسَوْفَ نُرْسِلُ بَدَلًا مِنَّا الْمَلِكَ "الْأَعْوَرَ" ابْنَ إِبْلِيسَ، وَسَوْفَ يَعِيشُ دَاخِلَ سَالِمٍ الشَّايِبِ، إِنَّهُ لَا يَسْكُنُ الْجَسَدَ مِثْلَنَا، وَلَنْ يَتَغَيَّرَ صَوْتُ سَالِمٍ مِثْلَمَا نَفْعَلُ بِمَنْ نَمَسُّهُ، وَلَنْ يَكُونَ لَهُ وَقْتٌ لِلتَّحْضِيرِ وَالانْصِرَافِ، بَلْ سَيَكُونُ مَعَهُ دَائِمًا، وَلَنْ يَكْتَشِفَهُ أَحَدٌ، فَلَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تُحَضِّرَهُ يَا صَالِحُ لِتُخْرِجَهُ مِثْلَنَا، لِأَنَّهُ لَا يُحْضَرُ، حَتَّى سَالِمٌ لَنْ يَكْتَشِفَ أَنَّ بِهِ سَاكِنًا غَرِيبًا، إِنَّهُ يَجْرِي مِنَ الْبَشَرِ مَجْرَى الدَّمِ. وَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَ إِبْلِيسَ جَيِّدًا، يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ. (وَأَطْلَقَا ضَحَكَاتٍ هِسْتِيرِيَّةً). يَسْكُنُ الْعَقْلَ، يَمْكُرُ وَيُدَبِّرُ وَيَسُوقُ النَّاسَ لِلْكُفْرِ، وَيَسْكُنُ الْقَلْبَ فَيَجْعَلُهُ ظَلَامًا دَامِسًا، سَتَرَوْنَ مِنْ سَالِمٍ الشَّايِبِ مَا لَمْ يَفْعَلْهُ إِبْلِيسُ نَفْسُهُ، سَوْفَ يَفْتَحُ أَبْوَابَ الْكُفْرِ لِلنَّاسِ بِمُعْجِزَاتٍ كَاذِبَةٍ.

صَالِحٌ: لِمَ كُلُّ هَذَا؟.

فَقَالَا: كَمَا هَدَمْتُمْ الضَّرِيحَ وَقَتَلْتُمُ الْجِنِّيَّةَ سَاكِنَةَ الْبِئْرِ، هَذَا هُوَ الثَّأْرُ.

وَصَاحَ شَمْهُورُش: انْتَظِرَا، انْتَظِرَا، أَقْسَمْتُ عَلَيْكُمَا، لَا تُرْسِلَا الْأَطْفَالَ!.

وَاخْتَفَتْ كُلُّ الْأَصْوَاتِ، وَاخْتَفَتِ الْأَوْلَادُ، وَسَطَ ذُهُولِ الْجَمِيعِ. وَقَدْ صَرَخَ صَالِحٌ وَالْعُمْدَةُ: الْأَوْلَادْ فِينْ؟ الْأَوْلَادْ ضَاعُوا!.

وَخَرَجُوا إِلَى خَارِجِ الْبَيْتِ وَهُمْ يَنْدُبُونَ وَيَلْطِمُونَ كَالنِّسَاءِ: الْأَوْلَادْ ضَاعُوا، خَطَفْهُمُ الْجَانُّ!.

وَقَدْ تَجَمَّعَ حَوْلَهُمُ الْخفْرُ وَأَهْلُ الْقَرْيَةِ، وَرَاحَتِ النِّسَاءُ تَلْطِمْ الْخُدُودَ وَهِيَ تَنُوحُ، وَصَالِحٌ وَالْعُمْدَةُ سَقَطَا أَرْضًا مَغْشِيًّا عَلَيْهِمَا، وَرَحَلَ الشَّيْخُ الْبَشِيرُ وَهُوَ يَبْكِي.

****

قَالَ صَالِحٌ لِلْعُمْدَةِ بَعْدَ أَنْ أَفَاقَا، وَكُلُّهُ أَسَى عَلَى الْأَحْدَاثِ وَفَقْدِ الْأَوْلَادِ: لَا يُوجَدُ لَدَيْنَا خِيَارٌ، لَابُدَّ أَنْ تَعُودَ كَالِيسَا لِتُسَاعِدَنَا، فَهِيَ تُحِبُّنِي وَسَوْفَ تُسَاعِدُنَا، وَمِنَ الآنَ سَأَقُومُ بِتَحْضِيرِ بَعْضِ الْجَانِّ الْقَوِيِّ لِيُسَاعِدَنِي أَوْ يَدُلَّنِي، وَسَأُنَفِّذُ مَا يُرِيدُ مِنِّي، حَتَّى لَوْ طَلَبَ رُوحِي لَنْ أَبْخَلَهَا عَلَى الْأَوْلَادِ، فَنَحْنُ نَعِيشُ مِنْ أَجْلِهِمْ فَقَطْ.

وَأَنْتَ اسْتَقْبِلْ وُفُودَ النَّاسِ، وَقَامَ وَدَخَلَ إِلَى الْبَيْتِ لِيَبْدَأَ الْعَمَلَ.

(٢٤)

طَارَ خَبَرُ خَطْفِ الجَانِّ لِلأَوْلَادِ إِلَى كُلِّ القُرَى وَالنُّجُوعِ وَالمُدُنِ المُجَاوِرَةِ وَكُلِّ المُرِيدِينَ، حَتَّى مُرِيدِي القَاهِرَةِ، فِي سُرْعَةِ البَرْقِ، فَقَدْ كَانَ الحَدَثُ غَرِيبًا أَنْ يَخْطَفَ الجَانُّ بَشَرًا وَيَأْخُذَهُمْ إِلَى عَالَمِهِ السُّفْلِيِّ، وَقَدْ تَنَدَّرَ النَّاسُ، وَكَمَا يُقَالُ: "شَرُّ البَلِيَّةِ مَا يُضْحِكُ". فَيَقُولُونَ: هَلْ سَيَتَقَدَّمُونَ بِبَلَاغٍ لِلشُّرْطَةِ فِي الجَانِّ بِخَطْفِ أَوْلَادِهِم؟!.

فَأَصْبَحَتْ قَرْيَةُ الرِّفَاعِي مَوْلِدَ كُلِّ الأَحْدَاثِ الغَرِيبَةِ، وَأَنْ يَخْطَفَ الجَانُّ أَحَدًا فَهُوَ شَيْءٌ جَدِيدٌ عَلَى النَّاسِ وَغَرِيبٌ، قَدْ يَسْمَعُونَ عَنْهُ فِي الحَكَاوِي، لَكِنْ أَنْ يَحْدُثَ أَمَامَهُمْ فَهَذَا فَوْقَ الخَيَالِ. فَالنَّاسُ تَعْرِفُ مَسَّ الجَانِّ أَوْ ظُهُورَ جَانٍّ أَوْ عِفْرِيتٍ لِلنَّاسِ فِي الأَمَاكِنِ المَقْطُوعَةِ كَالمَقَابِرِ، لَكِنْ أَنْ يَخْطَفَ الجَانُّ أَحَدَ البَشَرِ فَهُوَ حَدَثٌ غَرِيبٌ وَشَاذٌّ؛ لِذَلِكَ طَارَ الخَبَرُ وَتَنَقَّلَ بَيْنَ الجَمِيعِ كَنَفَشِّي وَانْتِشَارِ الفَيْرُوسِ، وَوَصَلَ بِطَبِيعَةِ الحَالِ إِلَى سَالِمِ الشَّايِبِ صَاحِبِ أَكْبَرِ ضَرَرٍ مُبَاشِرٍ مِنَ العُمْدَةِ وَصَالِحٍ، وَهُوَ هَدْمُ الضَّرِيحِ.

أَقْبَلَ عَلَيْهِ أَخُوهُ مُحَمَّدُ الشَّايِبِ، وَأَخُو زَوْجَتِهِ طَه غَرِيب، فَرِحَيْنِ بِخَبَرِ خَطْفِ الأَوْلَادِ، وَكَانَتِ المُفَاجَأَةُ لَهُمَا أَنَّ سَالِمَ الشَّايِبَ قَدْ

تَغَيَّرَ وَأَصْبَحَ يُفَكِّرُ وَيُنَاوِرُ، لَمْ يَعُدْ كَمَا كَانَ بَسِيطًا، بَلْ أَصْبَحَ ثَعْلَبًا، ابْتِسَامَتُهُ الصَّفْرَاءُ تَسْبِقُ حَدِيثَهُ، وَالآنَ يُعَنِّفُهُمَا عَلَى سَعَادَتِهِمَا بِخَطْفِ الأَوْلَادِ، وَقَالَ لَهُمَا: كَيْفَ نَفْرَحُ بِبَلِيَّةٍ مِثْلِ هَذِهِ؟ مَتَى فَرِحْنَا فِي بَلِيَّةِ أَحَدٍ وَتَشَفَّيْنَا فِي أَطْفَالٍ؟ إِنَّهُمَا بِمَا حَدَثَ لَهُمَا فِي حُكْمِ الأَمْوَاتِ، ثُمَّ إِنَّهُمَا كَانَا أَهَمَّ شَيْءٍ لَنَا، فَكَانَا مَصْدَرَ دَخْلِنَا وَسَبَبَ إِقْبَالِ النَّاسِ، إِنَّهَا خَسَارَةٌ، أَلَا نَسِيتُم أَنَّنَا أَطْلَقْنَا اسْمَ "الطَّرِيقَةِ اللَّحْيَوِيَّةِ" عَلَى اسْمِ وَالِدِ أَحَدِهِمَا صَالِحٍ أَفَنْدِي؟ فَقَدْ كَانَ لَنَا جَنَاحَانِ: كَانَ الأَطْفَالُ أَوَّلَ جَنَاحٍ لَنَا، جَمَعَ حَوْلَنَا النَّاسَ، وَكَانَ الشَّيْخُ مَحْرُوسٌ الجَنَاحَ الثَّانِي، وَبِهَذَا فَقَدْنَا الجَنَاحَيْنِ. هَذَا خَبَرٌ حَزِينٌ يَا سَادَةُ.

كَانَ رَأْيُهُمَا أَنَّهُمَا فَرِحَا فِي العُمْدَةِ وَصَالِحٍ، فَهُمَا مَنْ هَدَمَا الضَّرِيحَ، وَهَذِهِ كُلُّ الحِكَايَةِ، فَكَانَ رَدُّهُ أَنَّ صَالِحًا وَالعُمْدَةَ هُمَا مَنْ وَقَفَا مَعَهُ وَأَخْرَجَا الجَانَّ مِنْ زَوْجَتِهِ، وَتَكَبَّدَا بِسَبَبِ ذَلِكَ الكَثِيرَ مِنَ الكَوَارِثِ، إِنِّي حَزِينٌ لِمَا حَدَثَ لِلأَوْلَادِ، وَكَانَ اللهُ فِي عَوْنِ وَالِدَيْهِمَا.

فَرَدَّ عَلَيْهِ أَخُوهُ مُحَمَّدٌ: إِنَّ عِنْدَهُ خَبَرًا سَارًّا؛ لَقَدْ وَجَدْنَا جُثَّةَ الشَّيْخِ مَحْرُوسٍ وَعَرَفْنَا قَبْرَهُ، فَفَرِحَ سَالِمٌ وَتَهَلَّلَتْ أَسَارِيرُهُ،

وَقَالَ: هَذَا أَسْعَدُ خَبَرٍ. فَسَأَلَاهُ: هَلْ نَبْدَأُ نَبْنِي الضَّرِيحَ وَنُخْرِجُ الجُثَّةَ وَتَعُودُ الأَيَّامُ السَّعِيدَةُ؟

فَضَحِكَ سَالِمُ الشَّايِبِ، سَالِمُ الجَدِيدُ الَّذِي يَسْكُنُهُ الآنَ "الأَعْوَرُ" ابْنُ إِبْلِيسَ، المَكْرُ وَالدَّهَاءُ، وَطَرِيقُ جَهَنَّمَ: لِكَيْ يَعُودَ مَحْرُوسُ الطَّائِرُ وَيُصْبِحَ مُعْجِزَةً كَمَا كَانَ، لَابُدَّ مِنْ تَرْتِيبِ مُعْجِزَةٍ تَجْعَلُ النَّاسَ تُقْبِلُ عَلَى الضَّرِيحِ، لَكِنْ أَنْ نَبْنِيَ الضَّرِيحَ وَنُخْرِجَ الجُثَّةَ فَهَذَا شَيْءٌ عَادِيٌّ لِلنَّاسِ، لَابُدَّ أَنْ يَعُودَ مَحْرُوسُ الطَّائِرُ بِنَفْسِهِ، أَيْ يُعِيدَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ.

- كَيْفَ هَذَا وَهُوَ مَيِّتٌ؟.

- سَوْفَ أُفَكِّرُ فِيهَا وَأُرَتِّبُهَا، وَلَابُدَّ أَنْ تَكُونَ خِلَالَ يَوْمَيْنِ، وَالعُمْدَةُ وَصَالِحٌ مَشْغُولَانِ بِالبَحْثِ عَنْ طَرِيقَةٍ لِإِعَادَةِ الأَوْلَادِ، هَذِهِ هِيَ الفُرْصَةُ الَّتِي أَتَتْ مِنَ السَّمَاءِ، أَمَّا الآنَ فَهَيَّا نَذْهَبْ لِمُوَاسَاةِ صَالِحٍ وَالعُمْدَةِ، فَوَاللهِ إِنِّي حَزِينٌ عَلَى مَا حَدَثَ.

***

الوُفُودُ لَا تَنْقَطِعُ عَنْ زِيَارَةِ العُمْدَةِ لِلِاطْمِئْنَانِ عَلَى الأَوْلَادِ، وَالمُضِيفَةُ تُفْرِغُ لِتَمْتَلِئَ بِالضُّيُوفِ، وَالعُمْدَةُ يَسْتَقْبِلُ النَّاسَ وَيُرَحِّبُ بِهِمْ، وَعَقْلُهُ وَفِكْرُهُ وَحَوَاسُّهُ مَعَ الأَوْلَادِ: كَيْفَ يَعُودَانِ؟ ثُمَّ مَاذَا بَعْدُ؟، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرُدَّ أَحَدًا، رَغْمَ أَنَّهُ كَانَ هُوَ وَصَالِحٌ

فِي حَالَةِ انْهِيارٍ، فَكَانَ يَسْتَقْبِلُ النَّاسَ هُوَ أَوْ شَيْخُ الخفَرِ، وَالمُقَرَّبُ مِنْهُ وَمِنْ صَالِحٍ، وَهُوَ مُحَيْسِنٌ وَمُسَاعِدُهُ شُعْلَانُ، وَكُلَّ يَوْمٍ تَأْتِي وُفُودٌ، وَمَعَ العَصَارِي تَجْلِسُ الوُفُودُ عَلَى التُّرْعَةِ أَمَامَ البَيْتِ.

أَتَى سَالِمُ الشَّايِبِ وَجَمَاعَتُهُ لِمُوَاسَاةِ العُمْدَةِ وَصَالِحٍ، وَاخْتَرَعَتِ الجَمَاعَةُ أَنْ يَكُونَ يَوْمُ اخْتِفَاءِ الأَطْفَالِ، وَهُوَ يَوْمُ الخَمِيسِ مِنْ كُلِّ أُسْبُوعٍ، تُقَامُ فِيهِ حَلْقَةُ ذِكْرٍ أَمَامَ بَيْتِ العُمْدَةِ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَرْفُضَ؛ فَالعُمْدَةُ لَمْ يَعُدْ يُفَكِّرُ فِي هَذِهِ الأَشْيَاءِ. وَقَالَ: إِنَّ الذِّكْرَ نَوْعٌ مِنَ الدُّعَاءِ، لَعَلَّ اللهَ يُعِيدُ بِهِ الأَوْلَادَ، أَوْ يَرَى الجِنِّيَانِ أَنَّنَا تَرَكْنَا سَالِمَ الشَّايِبَ شَيْخَ ضَرِيحِ مَحْرُوسِ الضَّبْعِ وَفِرْقَتَهُ يَفْعَلُونَ مَا يُرِيدُونَ، وَقَدْ كَانُوا السَّبَبَ فِي خَطْفِ الأَوْلَادِ، فَرُبَّمَا يُعِيدَانِ الطِّفْلَيْنِ.

وَبَدَأَتِ النَّاسُ تَخْتَرِعُ كَذِبًا جَدِيدًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ. وَحَلَّلُوا اخْتِفَاءَهُمَا أَنَّهُمَا خَطَفَهُمَا الجَانُّ لِيَكُونَا مَلِكَيْنِ فِي العَالَمِ السُّفْلِيِّ، وَآخَرُونَ قَالُوا: إِنَّهُمَا رُفِعَا إِلَى السَّمَاءِ. فالنَّاسُ تَبْحَثُ عَنْ كِذْبَةٍ لِتَعِيشَ فِيهَا وَتُحِبَّهَا. وَلَمْ يَنْسَوْا مَحْرُوسًا مِنْ خُرَافَاتِهِمْ؛ فَقَالُوا: إِنَّ الجِنَّ خَطَفَهُ لِيَعْمَلَ لَهُ ضَرِيحًا فِي العَالَمِ السُّفْلِيِّ، لِأَنَّهُ "مَحْرُوسُ الطَّائِرُ"؛ بَلْ وَأَقْبَلَ أُنَاسٌ مِنَ القَاهِرَةِ، الطَّرِيقَةِ الصُّوفِيَّةِ الثَّانِيَةِ،

وَانْضَمُّوا لِحَلْقَةِ ذِكْرٍ يَوْمَ الخَمِيسِ؛ وَلِأَنَّ المُرِيدِينَ جَاءُوا مِنْ أَجْلِ الأَوْلَادِ، فَلَابُدَّ مِنْ تَقْدِيمِ الطَّعَامِ، وَأَهَمُّ شَيْءٍ هُوَ تَقْدِيمُ اللَّحْمِ لِلْمُرِيدِينَ. وَجَلَسَ العُمْدَةُ وَسْطَ الوُفُودِ حَتَّى يَرَى الجَانُّ أَنَّهُ يَعْتَذِرُ بِهَذِهِ المُشَارَكَةِ عَنْ هَدْمِ الضَّرِيحِ، وَعَقْلُهُ مَعَ صَالِحٍ؛ فَصَالِحٌ بِالدَّاخِلِ يَقُومُ بِتَحْضِيرِ الجَانِّ؛ فَمَاذَا حَدَثَ لَهُ؟ وَمَاذَا فَعَلَ مَعَ الجَانِّ؟ وَإِلَى أَيْنَ وَصَلَ؟ وَهَلْ وَجَدَ طَرِيقًا؟ هَلْ هُنَاكَ حَلٌّ؟ وَهَلِ اتَّفَقَ مَعَ الجَانِّ؟ إِنَّ صَالِحًا مُسْتَعِدٌّ أَنْ يَفْعَلَ أَيَّ شَيْءٍ؛ أَنْ يَبِيعَ نَفْسَهُ مِنْ أَجْلِ الأَوْلَادِ.

وَمَا هُوَ الِاتِّفَاقُ الَّذِي تَمَّ؟ وَهَلْ هُنَاكَ مِنْ جَدِيدٍ؟ أَمْ هُنَاكَ مُشْكِلَةٌ جَدِيدَةٌ وَكَارِثَةٌ جَدِيدَةٌ؟ فَكُلُّ يَوْمٍ جَدِيدٍ يَأْتِي دَائِمًا بِكَوارِثَ جَدِيدَةٍ. وَلَمْ يَأْتِ حَلٌّ وَاحِدٌ طِيلَةَ هَذِهِ المُدَّةِ.

جَلَسَ العُمْدَةُ وَوَضَعَ الغَفِيرَ أَمَامَ بَيْتِ صَالِحٍ فِي قَاعِدَةِ الجُمَيْزَةِ، يُخْبِرُهُ فَوْرَ خُرُوجِ صَالِحٍ أَفْنْدِي حَتَّى يَذْهَبَ إِلَيْهِ مِنْ فَوْرِهِ.

(٢٥)

وَضَعَ سَالِمُ الشَّابِبُ النُّسْخَةَ الْجَدِيدَةَ، أَيْ الأَعْوَرُ ابْنُ إِبْلِيسَ، خُطَّةَ عَوْدَةِ مَحْرُوسِ الطَّائِرِ وَبِنَاءِ الضَّرِيحِ. وَكَانَتْ خُطَّةً مُحْكَمَةً وَخَطِيرَةً، خُطَّةً إِبْلِيسِيَّةً أَعْوَرِيَّةً، لَا تَخْطُرُ عَلَى بَالِ بَشَرٍ، بَلْ وَلَا إِبْلِيسَ نَفْسِهِ، لِأَنَّهَا خُطَّةُ ابْنِهِ الأَعْوَرِ، وَفِي طَرِيقِ الْعَوْدَةِ مِنْ قَرْيَةِ الرِّفَاعِي بَعْدَ زِيَارَةٍ وَمُوَاسَاةِ صَالِحٍ وَالْعُمْدَةِ، تَحَدَّثَ سَالِمٌ إِلَى أَخِيهِ وَزَوْجِ أُخْتِهِ عَنْ خُطَّتِهِ. وَقَالَ لَهُمَا:عَلَيْنَا أَنْ نَقُومَ بِعَمَلِ تَمْثِيلِيَّةٍ، أَي حَدُوتَةٍ ـ يَعْنِي فِلْم ـ عَلَى كُلِّ النَّاسِ، لِنُعِيدَ مَحْرُوسَ الطَّائِرَ وَنَبْنِيَ الضَّرِيحَ. وَنَحْتَاجُ طِفْلًا لِهَذَا الْفِلْمِ، وَسَيَكُونُ هُوَ بَطَلَ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَيَكُونُ ابْنَ أَحَدِ رِجَالِنَا.

وَأَنَا اخْتَرْتُ رَجَبَ عُثْمَانَ، فَهُوَ أَحَدُ رِجَالِنَا الْمُطِيعِينَ، وَلِأَنَّ بَيْتَهُ فِي عِزْبَةِ صَبْرِي ـ وَهِيَ قَرْيَةٌ صَغِيرَةٌ بِجَانِبِ قَرْيَتِنَا ـ، وَكُلُّهَا عِبَارَةٌ عَنْ حَوَالَيْ خَمْسَةِ مَنَازِلَ فَقَطْ، فَلَنْ يُلَاحِظَ أَحَدٌ مَلْعُوبَنَا، وَالطِّفْلُ عُمْرُهُ عَشْرُ سَنَوَاتٍ، وَهُوَ مُنَاسِبٌ لِخُطَّتِنَا، وَوَجَّهَ الشَّابِبُ تَعْلِيمَاتِهِ لِأَخِيهِ مُحَمَّدٍ قَائِلًا: ابْعَتْ عِيدَ الدَّهْلَ يَأْتِي بِرَجَبِ عُثْمَانَ وَابْنِهِ عُمَرَ الْيَوْمَ بَعْدَ الْعِشَاءِ لِنَبْدَأَ خُطَّتَنَا غَدًا.

***

أَسْرَعَ رَجَبُ عُثْمَانَ فِي الْحُضُورِ إِلَى شَيْخِهِ سَالِمِ الشَّابِبِ مَعَ عِيدِ الدَّهْلِ، قَائِلًا: سَمْعًا وَطَاعَةً لِشَيْخِنَا، وَجَلَسَ سَالِمُ الشَّابِبُ - وَبِالأَصَحِّ: الأَعْوَرُ ابْنُ إِبْلِيسَ - إِلَى رَجَبِ عُثْمَانَ وَأَخْبَرَهُ بِمَا يُرِيدُ مِنْهُ.

إِنَّهُمْ سَيَقُومُونَ بِعَمَلِ تَمْثِيلِيَّةٍ، وَيَدَّعُونَ أَنَّ ابْنَهُ تُوُفِّيَ، ثُمَّ يَقُولُونَ إِنَّهُ عَادَ إِلَى الْحَيَاةِ، فَكَانَ رَدُّ رَجَبِ عُثْمَانَ أَنَّهُ طَوْعُ أَمْرِهِ؛ فَأَحَسَّ الشَّابِبُ بِسَعَادَةٍ، وَأَنَّ اخْتِيَارَهُ مُمْتَازٌ، وَقَالَ: نَبْدَأُ فَوْرًا. وَغَدًا عِنْدَ أَذَانِ الْعَصْرِ سَيَأْتِي إِلَيْكَ بَعْضُ رِجَالِ الطَّرِيقَةِ لِيَجْلِسُوا مَعَكَ فِي الشَّارِعِ، وَبَعْدَ نِصْفِ سَاعَةٍ مِنْ وُصُولِهِمْ، تَقُومُ زَوْجَتُكَ بِالصُّرَاخِ لِتُعْلِنَ وَفَاةَ ابْنِهَا، وَهُوَ سَيَكُونُ عِنْدَنَا هُنَا حَتَّى لَا يَرَاهُ أَحَدٌ فَتَنْكَشِفَ اللُّعْبَةُ، وَفِي الْيَوْمِ الثَّانِي نُعِيدُهُ إِلَى الْحَيَاةِ، وَبِذَلِكَ نُعِيدُ بِنَاءَ الضَّرِيحِ. وَسَوْفَ تَعْمَلُ أَنْتَ وَابْنُكَ فِي الضَّرِيحِ بِرَاتِبٍ شَهْرِيٍّ قِيمَتُهُ جُنَيْهَانِ. وَأَعْطَاهُ خَمْسَةَ جُنَيْهَاتٍ ثَمَنًا لِهَذَا الْفِيلْمِ، وَقَالَ لَهُ: عِنْدَ عَوْدَةِ ابْنِكَ لِلْحَيَاةِ أَمَامَ النَّاسِ سَوْفَ تَحْصُدُ أَمْوَالًا كَثِيرَةً كَنُقُوطٍ لِلْوَلَدِ.

فَقَالَ رَجَبُ عُثْمَانَ: أَنَا تَحْتَ أَمْرِكَ يَا مَوْلَانَا، وَمِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ.

وَتَرَكَ ابْنَهُ عُمَرَ مَعَ سَالِمٍ وَعَادَ وَحْدَهُ.

***

مَعَ أَذَانِ الْعَصْرِ كَانَ مُحَمَّدُ الشَّايِبِ وَطَهَ غَرِيبٌ، وَمَعَهُمَا ثَلَاثَةٌ آخَرُونَ مِنْ رِجَالِ الطَّرِيقَةِ أَمَامَ بَيْتِ رَجَبِ عُثْمَانَ، الَّذِي كَانَ فِي انْتِظَارِهِمْ حَسَبَ الِاتِّفَاقِ، وَكَانَتِ الْمَصْطَبَةُ أَمَامَ الْبَيْتِ مُعَدَّةً لِلْجُلُوسِ؛ فَسَلَّمُوا وَجَلَسُوا؛ وَحَسَبَ الْخُطَّةِ الْمَرْسُومَةِ، خَرَجَتْ زَوْجَةُ رَجَبِ عُثْمَانَ تَلْطِمُ خَدَّهَا وَتَصْرُخُ بِأَعْلَى صَوْتٍ، مُعْلِنَةً وَفَاةَ ابْنِهَا عُمَرَ؛ وَفِي ثَوَانٍ، كَانَ الشَّارِعُ مُكْتَظًّا بِالنَّاسِ فِي تَزَاحُمٍ أَمَامَ الْبَيْتِ.

وَقَامَ رِجَالُ الطَّرِيقَةِ بِغَلْقِ الْبَابِ فِي وَجْهِ النَّاسِ حَسَبَ الْخُطُوَاتِ، وَدَخَلَ مُحَمَّدُ الشَّايِبُ وَطَهَ غَرِيبٌ لِتَغْسِيلِ وَتَجْهِيزِ "الْجُثَّةِ" غَيْرِ الْمَوْجُودَةِ أَصْلًا، وَفِي أَقَلَّ مِنْ نِصْفِ سَاعَةٍ، كَانَ بَاقِي رِجَالِ الطَّرِيقَةِ مَوْجُودِينَ بِالشَّارِعِ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ سَالِمُ الشَّايِبِ، وَمَعَهُمْ خَشَبَةُ حَمْلِ الْمَوْتَى، وَدَخَلَ سَالِمُ الشَّايِبُ إِلَى دَاخِلِ الْبَيْتِ، فَوَجَدَ كُلَّ شَيْءٍ فِي انْتِظَارِهِ لِبِدْءِ الْجَنَازَةِ.

فَخَرَجَ الشَّيْخُ سَالِمٌ يَحْمِلُ "الْجُثَّةَ الْقُطْنِيَّةَ" الوسادة الْمَلْفُوفَةَ بِمِلَاءَةٍ خَضْرَاءَ حَسَبَ الطَّرِيقَةِ، وَحَتَّى لَا يُرَكِّزَ أَحَدٌ فِي الْجُثَّةِ، وَحَمَلُوا النَّعْشَ وَسَارُوا بِهِ وَسْطَ صُرَاخِ أُمِّهِ وَنِسَاءِ الْقَرْيَةِ

***

سَارَ مَشْهَدُ الْجَنَازَةِ مُوَازِيًا لِلتُّرْعَةِ فِي اتِّجَاهِ الْمَقَابِرِ وَإِلَى الْقَبْرِ الَّذِي فِيهِ جُثَّةُ مَحْرُوسٍ الطَّائِرِ حَسَبَ الْخُطَّةِ الإِبْلِيسِيَّةِ، وَكَانَتْ جَنَازَةً كَبِيرَةً، فَكُلُّ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ الْمُتَوَفَّى طِفْلٌ عُمْرُهُ عَشْرُ سَنَوَاتٍ يَحِسُّ بِحُزْنٍ كَبِيرٍ وَأَسًى يَعْتَصِرُ الْقَلْبَ وَيَنْضَمُّ إِلَى الْجَنَازَةِ.

وَمَرَّتِ الْجَنَازَةُ أَمَامَ قَرْيَةِ الرِّفَاعِي، وَكَانَ جَالِسًا بِجِوَارِ الْجُمَيْزَةِ صَالِحٌ وَالْعُمْدَةُ، يَتَحَدَّثَانِ - بِطَبِيعَةِ الْحَالِ - عَنْ كَيْفِيَّةِ عَوْدَةِ الأَوْلَادِ وَمَا يُجَهِّزُهُ صَالِحٌ لِتَحْضِيرِ الْجَانّ.

وَإِذَا بِهَذَا الْمَشْهَدِ الْكَبِيرِ يَهِلُّ عَلَيْهِمَا، وَحِينَ سَأَلَا عَنِ الْمُتَوَفَّى، جَاءَتِ الإِجَابَةُ: إِنَّهُ عُمَرُ ابْنُ رَجَبِ عُثْمَانَ، وَهُوَ طِفْلٌ فِي الْعَاشِرَةِ مِنْ عُمُرِهِ، فَأَحَسَّا بِغُصَّةِ حُزْنٍ، فَهُوَ فِي سِنِّ طِفْلَيْهِمَا، وَقَامَا احْتِرَامًا لِلْمَشْهَدِ، وَرَفَعَا السَّبَّابَةَ وَقَالَا الشَّهَادَةَ عَلَى هَذَا الطِّفْلِ، وَبِطَبِيعَةِ الْحَالِ أَحَسَّا أَنَّ طِفْلَيْهِمَا مِثْلُهُ، يُعْتَبَرَانِ أَمْوَاتًا، وَهَذَا الطِّفْلُ - عَلَى الأَقَلِّ - لَهُ جُثَّةٌ سَوْفَ تُدْفَنُ، أَمَّا طِفْلَاهُمَا فَحَتَّى الْجُثَّةُ مَفْقُودَةٌ؛ فَنَزَلَتِ الدُّمُوعُ، وَمَرَّتِ الْجَنَازَةُ أَمَامَهُمَا إِلَى الْمَقَابِرِ، فَوَصَلُوا الْمَقَابِرَ مَعَ دُخُولِ اللَّيْلِ، وَوَضَعُوا النَّعْشَ أَمَامَ الْقَبْرِ الَّذِي فِيهِ مَحْرُوسُ الطَّائِرُ، وَكَانَ ثَلَاثَةٌ مِنْ رِجَالِ الشَّابِبِ سَبَقُوهُمْ عِنْدَ الْقَبْرِ لِفَتْحِهِ وَتَجْهِيزِهِ.

وَالْتَفَّ رِجَالُ الطَّرِيقَةِ حَوْلَ النَّعْشِ حَتَّى لَا يَرَى أَحَدٌ مَا فِي النَّعْشِ وَمَا يَفْعَلُونَ، وَوَضَعُوا "الْجُثَّةَ الْمَزُوَّرَةَ" بِجِوَارِ جُثَّةِ مَحْرُوسٍ الطَّائِرِ الْمَوْجُودَةِ دَاخِلَ الْمَقْبَرَةِ، وَأُغْلِقَ الْبَابُ، وَقَامُوا بِالدُّعَاءِ، وَعَادَ كُلٌّ إِلَى دَارِهِ.

(٢٦)

كَعادَةِ المِصْرِيِّينَ، وَفِي صَباحِ اليَوْمِ الثّانِي لِلوَفاةِ، يَذْهَبونَ إِلَى المَقابِرِ، ذَهَبَتْ أُسْرَةُ الطِّفْلِ عُمَرَ إِلَى قَبْرِهِ لِكَيْ يَقْرَؤوا القُرْآنَ عَلَيْهِ، وَأَخَذوا مَعَهُم عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ الجِيرانِ، كَما طَلَبَ سالِمُ الشَّيْبُ؛ فَأَخَذوا قَرْيَتَهُم كُلَّها، وَكُلَّ مَن يُقابِلُونَهُ مِنَ المَعارِفِ وَالأَصْدِقاءِ، لِيَكونَ التَّجَمُّعُ فِي أَكْبَرَ عَدَدٍ مُمْكِنٍ، وَذَلِكَ حَسَبَ خُطَّةِ الأَعْوَرِ ابْنِ إِبْلِيسَ – سالِمِ الشَّيْبِ – المَوْضوعَةِ.

ذَهَبَ سالِمُ الشَّيْبُ وَفَرِيقُهُ إِلَى المَقابِرِ قَبْلَ وَفْدِ القَرْيَةِ بِوَقْتٍ طَوِيلٍ جِدًّا، وَمَعَهُمُ الطِّفْلُ عُمَرُ قَبْلَ صَلاةِ الفَجْرِ فِي الظَّلامِ حَتَّى لا يَراهُم أَحَدٌ. وَقاموا بِفَتْحِ القَبْرِ، وَتَخَلَّصوا مِنَ المِخَدَّةِ (الجُثَّةِ المُزَيَّفَةِ لِلطِّفْلِ) الَّتِي دَفَنُوها أَمْسِ، حَتَّى لا يَقَعوا فِي خطأ العُمْدَةِ حِينَ هَدَمَ الضَّرِيحَ وَنَسُوا المِخَدَّةَ، فَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى كَشْفِ سِرِّ مُخَطَّطِ العُمْدَةِ لِلهَدْمِ.

أَخْرَجَ الرِّجالُ جُثَّةَ مَحْروسٍ الطَّائِرِ، وَلَفُّوا الطِّفْلَ بِالكَفَنِ الأَخْضَرِ الَّذِي كانَتِ المِخَدَّةُ مَلْفوفَةً بِهِ، وَأَخْفَوا مَلابِسَهُ الَّتِي جاءَ بِها لِيَبْدُوَ وَكَأَنَّهُ خَرَجَ مِنَ القَبْرِ الآنَ، وَأَصْبَحَ عُرْيانًا بِلَا مَلابِسَ سِوَى الكَفَنِ الأَخْضَرِ، وَمَا إِنْ هَلَّ أَهْلُ الطِّفْلِ وَمَعَهُمُ الجِيرانُ وَالأَقارِبُ عَلَى المَقابِرِ وَحَسْبَ الخُطَّةِ، وَوَجَدوا الطِّفْلَ حَيًّا، حَتَّى

هَلَّلوا وَهُمْ فِي ذُهُولٍ مِمَّا يَرَوْنَ، الطِّفْلُ الَّذِي دَفَنُوهُ أَمْسِ حَيٌّ الآنَ، واقِفٌ أَمامَهُم بِالكَفَنِ، كادَتِ النَّاسُ تَجُنُّ، المَيِّتُ عادَ لِلْحَياةِ، وَرَاحوا يَنْظُرونَ إِلَى بَعْضِهِم وَكَأَنَّهُم يَتَساءَلونَ: هَلْ ما نَراهُ حَقِيقَةٌ؟ – وَالِداهُ فَقَطْ مَنْ يَعْرِفونَ المَخَطَّطَ – وَالكُلُّ فِي ذُهُولٍ وَعُقُولُهُم وَقَفَتْ عَنِ التَّفْكِيرِ، وَبَدَأوا فِي التَّهْلِيلِ مِنْ شِدَّةِ ما يَرَوْنَ، الحَدَثُ كَبِيرٌ عَلَى اسْتِيعابِهِم، وَهَلَّلَ رِجالُ الشَّيْبِ لِشَحْنِ النَّاسِ أَكْثَرَ مِمَّا هُم فِيهِ بِعَدْوَى التَّهْلِيلِ: اللهُ أَكْبَرُ! عُمَرُ صَحَى! أَحْياهُ مَحْروسُ الطَّائِرُ!.

فَهَلَّلَ الجَمِيعُ وَرَقَصوا، وَأُطْلِقَتِ الزَّغارِيدُ، وَأَقْبَلوا عَلَى الطِّفْلِ يُقَبِّلُونَهُ، وَسَمِعَ الفَلّاحونَ فِي الغِيطانِ الَّتِي حَوْلَ المَقابِرِ، فَأَتَوْا مُهَرْوِلِينَ إِلَى الجَمْعِ الرَّاقِصِ، وَالكُلُّ يَرْقُصُ، إِنَّها المُعْجِزَةُ: إِحْياءُ مَيِّتٍ. فَكانَ التَّهْلِيلُ أَشْبَهَ بِالصُّراخِ: اللهُ حَيٌّ، وَعُمَرُ حَيٌّ!

وَبَدَأَ سالِمُ الشَّيْبُ يَحْكِي ما حَدَثَ: جِئْنا لِقِراءَةِ الفاتِحَةِ لِلطِّفْلِ ابْنِ حَبِيبِنا وَزَمِيلِنا فِي الطَّرِيقَةِ وَقِراءَةِ القُرْآنِ لَهُ. فَسَمِعْنا خَبْطًا عَلَى بابِ المَقْبَرَةِ مِنَ الدَّاخِلِ، فَفَتَحْنا بِسُرْعَةٍ، فَوَجَدْنا الطِّفْلَ عُمَرَ حَيًّا، الطِّفْلُ الَّذِي دَفَنّاهُ أَمْسِ بِأَيْدِينا حَيٌّ. اللهُ أَكْبَرُ! فَأَخْرَجْناهُ مُهَلِّلِينَ مِنَ السَّعادَةِ، هَلَّلَ النَّاسُ: اللهُ أَكْبَرُ! اللهُ أَكْبَرُ!.

وَأَكْمَلَ سالِمُ الشَّيْبُ وَهُوَ يُشِيرُ لِلنَّاسِ بِالصَّمْتِ لِيَسْمَعُوهُ: وَقالَ الطِّفْلُ لَنا: إِنَّ الشَّيْخَ مَحْروسَ الطَّائِرَ المَدْفونَ مَعَهُ فِي القَبْرِ قالَ لَهُ: «اِذْهَبْ يا عُمَرُ يا ابْنِي إِلَى والِدِكَ، فَأَنْتَ وَحِيدُهُ، وَأُمُّكَ تَكادُ تَمُوتُ حُزْنًا عَلَيْكَ».

وَالجَمِيعُ يُهَلِّلُ لِلطِّفْلِ وَيَرْقُصُ، وَقَدِ احْتَضَنَتْهُ أُمُّهُ: مَحْروسٌ أَحْيَا المَوْتَى! لَقَدْ أَحْيَا عُمَرَ!.

وَعَادَ رَجَبُ عُثْمانَ وَزَوْجَتُهُ بِابْنِهِما عُمَرَ، وَحَوْلَهُمُ الوَفْدُ القادِمُ مَعَهُم، وَالفَلّاحونَ تَرَكوا الأَرْضَ وَساروا مَعَهُم. وَجاءَ أَحَدُهُم بِحِمارِهِ مِنَ الحَقْلِ، وَوَضَعَ الطِّفْلَ عَلَيْهِ، وَسارَ المَوْكِبُ وَالكُلُّ حَوْلَهُ يُهَلِّلُ وَيُزَغْرِدُ: مَحْروسُ الطَّائِرُ أَحْيَا عُمَرَ!.

وَكُلُّ مَنْ سَمِعَ بِما حَدَثَ وَعَوْدَةِ الطِّفْلِ إِلَى الحَياةِ، وَأَنَّ مَحْروسَ الطَّائِرَ هُوَ مَنْ أَحْياهُ، يَنْضَمُّ إِلَى الزَّفَّةِ، حَتَّى أَصْبَحَتْ مُظاهَرَةَ حُبٍّ، وَبِسُرْعَةٍ اسْتَغَلَّ الشَّيْبُ الفُرْصَةَ، وَأَرْسَلَ مَنْدوبِينَ مِنْ رِجالِهِ إِلَى العُمَدِ وَالأَعْيانِ لِإِبْلاغِهِم بِما حَدَثَ – وَأَنَّ مَحْروسَ الطَّائِرَ أَعادَ الطِّفْلَ لِلْحَياةِ رَأفَةً بِوالِدَيْهِ، لِأَنَّهُ وَحِيدُهُما وَقَدْ جاءَ عَلَى كِبَرٍ – وَلابُدَّ أَنْ يَعودَ الضَّرِيحُ، لِأَنَّنا وَجَدْنا جُثَّةَ مَحْروسَ الطَّائِرِ، وَنَحْتاجُ إِلَى تَبَرُّعاتٍ لِبِناءِ الضَّرِيحِ اليَوْمَ، وَأَحْضَرَ الشَّيْبُ البَنّائِينَ، وَأَرْسَلَ لِإِحْضارِ مَوادِّ البِنَاءِ، وَبَدَأَ فِي بِنَاءِ

الضَّرِيحِ، فَكُلُّ شَيْءٍ يَسِيرُ حَسَبَ الخُطَّةِ الإِبْلِيسِيَّةِ، وَتَرَكَ بَعْضَ رِجالِهِ مَعَ البَنّائِينَ يُساعِدونَهُم، وَعادَ مَعَ الزَّفَّةِ لِيَأْخُذَ «اللَّقْطَةَ» الَّتِي تُعِيدُهُ إِلَى مَكانَتِهِ، الشَّيْخُ سالِمُ الشَّيْبُ.

مَرَّتِ الزَّفَّةُ مِنْ أَمامِ قَرْيَةِ الرِّفاعِي، وَوَقَفَ صالِحٌ وَالعُمْدَةُ. وَشَاهَدا رَقْصَ النَّاسِ وَالطِّفْلَ الَّذِي دَفَنُوهُ أَمْسِ، عادَ الآنَ يَرْكَبُ الحِمارَ وَمَلْفوفٌ فِي كَفَنِهِ الأَخْضَرِ، وَالنَّاسُ حَوْلَهُ تُهَلِّلُ فِي سَعادَةٍ: مَحْروسُ الطَّائِرُ أَحْيَا عُمَرَ!.

فَاقْتَرَبَ صالِحٌ مِنْ سالِمٍ وَسَأَلَهُ: لِماذا مَحْروسُ الطَّائِرُ لَمْ يُحْيِ نَفْسَهُ، بَدَلًا مِنْ إِحْياءِ غَيْرِهِ؟ مِشْ كانَ هُوَ أَوْلَى؟.

فَرَدَّ بِسُرْعَةٍ بَدِيهِةٍ أَعْوَرِيَّةٍ: إِنَّهُ فِي الجَنَّةِ يا صالِحُ أَفَنْدِي، فِي حَدِّ يَتْرُكُ الجَنَّةَ وَيَجِي الدُّنْيا؟.

فَابْتَسَمَ صالِحٌ وَالعُمْدَةُ مِنْ رَدِّ سالِمٍ الماكِرِ، فَهُما فَقَطْ مَنْ يَعْرِفانِ أَنَّ الجَانَّ الأَعْوَرَ – ابْنَ إِبْلِيسَ – يَعِيشُ داخِلَهُ، وَهُوَ مَنْ يَتَكَلَّمُ وَيَسُوقُ سالِمَ الشَّيْبَ، فَالدَّفَّةُ بِيَدِ الأَعْوَرِ، حَتَّى سالِمٌ نَفْسُهُ لا يَعْرِفُ ذَلِكَ، وَهَلَّلَتِ النَّاسُ: اللهُ أَكْبَرُ! مَحْروسُ الطَّائِرُ أَحْيَا المَوْتَى!.

فَمالَ العُمْدَةُ عَلَى سالِمٍ باسِمًا: خُطَّةٌ لا تَخْطُرُ عَلَى بالِ بَشَرٍ يا سالِمُ. مَلْعوبَةٌ بِجَدٍّ! إِبْلِيسُ يَقُولُ لَكَ يا عَمِّي: «إِبْلِيسُ بَقَى أَعْوَرَ

لا يَرى». (وَضَحِكَ هُوَ وَصالِحٌ، لَكِنْ لا أَحَدَ يَفْهَمُ شَيْئًا)، حَظُّكَ أَنِّي مِشْ فاضِي لَكَ يا شَايْبُ.

فَرَدَّ سالِمُ الشَّايْبُ: الطِّفْلُ عادَ لِأَهْلِهِ، عُقْبالَ عَوْدَةِ أَوْلادِكُما.

لَمْ يُبْلِغْهُما أَنَّهُم عَثَروا عَلَى جُثَّةِ الطَّائِرِ، وَأَنَّهُمْ يَبْنُونَ الضَّرِيحَ الآنَ، حَتَّى لا يَهْدِمَهُ قَبْلَ إِتْمامِهِ، وَسارَتِ الزَّفَّةُ فِي طَرِيقِها إِلَى عِزْبَةِ صَبْرِي حَيْثُ مَنْزِلُ الطِّفْلِ.

***

هَرْوَلَ النَّاسُ إِلَى عِزْبَةِ صَبْرِي لِيَرَوْا الطِّفْلَ العائِدَ مِنَ المَوْتِ، وَالَّذِي تَشَفَّعَ لَهُ الشَّيْخُ مَحْروسُ الطَّائِرُ، وَأَرْسَلَهُ مِنْ عالَمِ المَوْتِ إِلَى عالَمِ الحَياةِ، وَاكْتَظَّتْ بِالنَّاسِ العِزْبَةُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي لا يَعْرِفُها أَحَدٌ، وَعَدَدُ بُيُوتِها حَوالَيْ خَمْسَةِ بُيُوتٍ فَقَطْ، فَأَصْبَحَتْ قَرْيَةً شَهِيرَةً لا تَقِلُّ عَنْ شُهْرَةِ قَرْيَةِ الرِّفاعِي، قَرْيَةِ الأَوْلادِ الَّذَيْنِ سارَا عَلَى الماءِ وَطارَا فِي الهَواءِ.

الآنَ يُوجَدُ طِفْلٌ عادَ مِنَ العالَمِ الآخَرِ، وَأُقِيمَتِ الأَفْراحُ لِعَوْدَةِ الطِّفْلِ عُمَرَ إِلَى الحَياةِ، وَجاءَها النَّاسُ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وَصَوْبٍ، وَافْتَرَشَ النَّاسُ الشَّارِعَ الَّذِي فِيهِ بَيْتُ الطِّفْلِ بِالحَصِيرِ وَجَلَسوا فِيهِ، وَأَجْلَسوا عُمَرَ عَلَى المِصْطَبَةِ الَّتِي أَمامَ البَيْتِ، يَرْتَدِي الجِلْبابَ الأَخْضَرَ رَمْزَ الطَّرِيقَةِ اللَّحْيَوِيَّةِ، وَأُقِيمَتْ حَلْقَةُ الذِّكْرِ

بِالشَّارِعِ أَمامَ الطِّفْلِ الجالِسِ عَلَى المِصْطَبَةِ، مُتَوَسِّطًا سالِمَ الشَّيْبَ وَأَخاهُ مُحَمَّدَ الشَّيْبَ، وَقَدْ فَرَشوا حُجْرَةً لِتَلَقِّي الفُلوسِ فِيهَا – «نُقْطَةٌ وَنَفْحَةٌ» مِنَ المُرِيدِينَ.

حَضَرَ العُمَدُ وَالأَعْيانُ، وَكُلٌّ مِنْهُم يَسُوقُ ذَبِيحَتَهُ – خَرُوفًا أَوْ جَدْيًا – كَفِداءٍ لِلطِّفْلِ وَتَقَرُّبًا إِلَى اللهِ، وَأَعْطَوْا الطِّفْلَ المال فِي الحُجْرَةِ، وَكُلَّما امْتَلَأَ حُجْرُ الطِّفْلِ بِالأموال، أَفْرَغَهُ والِدُهُ إِلَى داخِلِ البَيْتِ.

وَامْتَلأَ بَيْتُ رَجَب عُثْمَان بِالْمَاشِيَةِ مِنْ خِرَافٍ وَمَاعِزٍ الَّتِي أَتَى بِهَا الْعُمَدُ وَالأَعْيَانُ، وَأَيْضًا الْبَطُّ وَالأَوَزُّ عَطَايَا النَّاسِ الْبُسَطَاءِ حَسْبَ مَقْدِرَتِهِم، وَكَانَتْ حَصِيلَةُ رَجَب عُثْمَان فِي هَذَا الْيَوْمِ تَصِلُ إِلَى عَشَرَةِ جُنَيْهَاتٍ، فَقَدْ كَانَ يَوْمَ سَعْدِهِ، لَمْ يَحْلُمْ بِهِ أَصْلًا، وَلَمْ يَحْلُمْ أَنْ يُمْسِكَ بِيَدِهِ هَذَا الْمَبْلَغَ، فَأَكْبَرُ مَبْلَغٍ فِي حَيَاتِهِ حَصَلَ عَلَيْهِ كَانَ أَمْسِ، الْخَمْسَةُ جُنَيْهَاتٍ مِنْ شَيْخِهِ سَالِم الشَّايِب، أَمَّا الآنَ فَأَنْ يَكُونَ لَدَيْهِ عَشَرَةُ جُنَيْهَاتٍ، إِنَّهَا السَّعَادَةُ وَابْتِسَامُ الدُّنْيَا لَهُ.

مَالَ مُحَمَّدُ الشَّايِب عَلَى أَخِيهِ شَيْخِ الطَّرِيقَةِ لِأَنَّهُ يَحِسُّ أَنَّهُ شَخْصٌ آخَرُ، جَدِيدٌ فِي أَفْكَارِهِ، وَقَالَ لَهُ: الْحَصِيلَةُ كَبِيرَةٌ جِدًّا، هَنَسِيبْهَا؟.

ضَحِكَ سَالِم وَقَالَ: لَقَدْ أَعْطَيْتُهُ خَمْسَةَ جُنَيْهَاتٍ أَمْسِ، وَهَذَا حَقُّهُ، وَقَدْ وَعَدْتُهُ بِمَا يَحْدُثُ الآنَ؛ لِأَنِّي كُنْتُ أَرَاهُ أَمَامِي رُؤَى الْعَيْنِ.

- كَيْفَ رَأَيْتَهُ؟

- رَأَيْتُهُ بِعَقْلِي، وَهُوَ يَسْتَحِقُّ، لِأَنَّهُ أَطَاعَنِي، ابْنُهُ، أَعَزُّ مَا يَمْلِكُ، فِلْذَةُ كَبِدِهِ، وَنَفَّذَ مَا طَلَبْتُهُ مِنْهُ.

- وَهُوَ كَانَ مُمْكِنْ يَرْفُضْ؟

- طَبْعًا مُمْكِن، لِأَنَّهُ يَخَافُ عَلَى ابْنِهِ، إِشَاعَةُ مَوْتِ ابْنِهِ فَأْلٌ سَيِّئٌ؛ لِذَلِكَ يَسْتَحِقُّ، وَكُلُّهُ لَهُ، وَلَا تَنْسَى أَنَّهُ ذَبَحَ خُرْفَانًا لِلنَّاسِ.

-يَعْنِي كَانَ دَفَعَ فِيهِمَا شَيْءٌ؟

أَحَسَّ سَالِم أَنَّ أَخَاهُ مُحَمَّدًا يَنْظُرُ إِلَى صَغَائِرِ الأُمُورِ وَإِلَى فُتَاتِ مَا فِي يَدِ الآخَرِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا السَّبَبَ فِيمَا فِي يَدِهِ، فَبَدَأَ يُشْرِحُ لَهُ مَا مَعْنَى هَذَا الطِّفْلِ بِالنِّسْبَةِ لَهُمْ بَعْدَ أَنْ فَقَدُوا الطِّفْلَيْنِ أَوْلَادَ صَالِحٍ وَالْعُمْدَةِ، وَكَانَتِ النَّاسُ تُحِبُّهُمَا، وَكَانَا مُقِيمَيْنِ بِالضَّرِيحِ، وَكُنَّا نَسْتَفِيدُ مِنْ وُجُودِهِمَا بِهِ.

الآنَ اخْتَفَى الطِّفْلَانِ وَفَقَدْنَا بِهِمَا كَثِيرًا، وَقَدْ فَرَّجَهَا اللَّهُ عَلَيْنَا وَحَلَّ مَحَلَّهُمَا عُمَرُ، وَمَعَهُ مُعْجِزَةٌ كَبِيرَةٌ لَا تَقِلُّ عَنْ مُعْجِزَةِ ابْنَيْ صَالِحٍ وَالْعُمْدَةِ، وَسَوْفَ تَأْتِي النَّاسُ لِلضَّرِيحِ لِتَرَى مَنْ أَحْيَاهُ اللَّهُ بِبَرَكَةِ الشَّيْخِ مَحْرُوس الطَّائِر، وَسَوْفَ يَكُونُ طَوْعَ أَمْرِنَا هُوَ

وَأَبُوهُ، وَلَنْ يَرْفُضَ أَبُوهُ ذِهَابَهُ لِلضَّرِيحِ أَوْ يَحْبِسَهُ مِثْلَمَا كَانَ يَفْعَلُ الْعُمْدَةُ بِالأَوْلَادِ، فَهُوَ مِنْ رِجَالِنَا وَقَدْ وَافَقَ عَلَى أَنْ نَقُولَ إِنَّ ابْنَهُ مَاتَ وَنَعْمَلَ لَهُ جَنَازَةً، وَلَمْ يَخَفْ الْفَأْلَ السَّيِّئَ، وَسَوْفَ يَعْمَلُ مَعَنَا فِي الضَّرِيحِ مِنْ طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى غُرُوبِهَا هُوَ وَابْنُهُ، بَلْ وَسَوْفَ أَشْتَرِي لِابْنِهِ رُكُوبَةً، نُرِيدُ أَنْ يُحِبَّ عُمَرُ الضَّرِيحَ، لِذَلِكَ لَابُدَّ أَنْ يَكُونَ مُنَعَّمًا وَلَدَيْهِ سُبُلُ رَاحَةٍ جَيِّدَةٌ، وَالنَّاسُ كَمَا تَرَى أَمَامَكَ يَكَادُونَ أَنْ يَفْقِدُوا صَوَابَهُمْ مِنْ أَنَّ الطِّفْلَ مَاتَ وَأَحْيَاهُ مَحْرُوس الطَّائِرُ، اسْتَعْمِلْ مُخَّكَ صَحْ يَا مُحَمَّدُ، عُمَرُ دَهْ أَهَمُّ حَاجَةٍ عِنْدَنَا، مِنْ بُكْرَةَ هُوَ سَبَبُ الْغِنَى، إِنَّهُ هَدِيَّةُ رَبِّنَا لَنَا.

***

أقبلَ عيدُ الدَّهْلِ ومعه عددٌ من رجالِ الطَّريقةِ إلى شيخِهم سالم الشايب، وهمسَ في أذنه: كُلُّه تمام يا مولانا، الضريحُ تمَّ بناؤه وتركنا أربعةَ رجالٍ به للحراسةِ والحماية.

وقفَ سالمُ الشايب وهَلَّلَ: اللهُ أكبر، اللهُ أكبر...

تمَّ بناءُ الضريح، وعاد شيخُنا ومولانا محروس الطاير إلى ضريحه وبيته، هَلَّل الجميعُ، وأطلقت النساءُ الزَّغاريد، ومالَ سالمُ على رجبِ عثمان والدِ عمر وقال له: من الغدِ، مع طلوع

الشمس إلى مغربها، أنتَ وابنكَ في الضريح، وراتبُك أنتَ وابنكَ عشرةُ قروشٍ يوميًّا.

هَلَّل رجبُ عثمان فرِحًا: حاضر يا مولانا، تحت أمرك.

قال سالم: وابنكَ من الآن اسمه عمر العائد.

فصاح رجب: الله أكبر، الله أكبر!.

ووجَّه سالمُ حديثَه للجميع، والكلُّ أنصت لقولِه: من الغدِ الضريحُ مفتوحٌ للجميع، لأنه ملكُنا كلِّنا، كلُّنا نريد المَدَد من الشيخ محروس الطاير، وسيكون معنا يوميًّا بالضريح الطفلُ عمر ليُشَكِّر بوجوده مَن كان سببًا في عودته للحياة، وليردَّ الجميلَ للشيخ محروس. فهلَّل الجميع: الله أكبر!.

فأكمل الشايب: ومن اليوم اسمُه عمر العائد.

(٢٧)

جَلَسَ صَالِحٌ فِي غُرْفَتِهِ، وَجَهَّزَ الْبَخُورَ وَكُلَّ مَا يَلْزَمُ لِتَحْضِيرِ الْجَانِّ، فَلَا وَقْتَ لَدَيْهِ لِإِضَاعَتِهِ، فَالْأَطْفَالُ مَخْطُوفَةٌ، وَفَعَلَ كُلَّ مَا طَلَبَهُ الْكِتَابُ لِتَحْضِيرِ الْمَارِدِ الْكَبِيرِ (دَرْدِيَائِيل)، وَاخْتَارَ صَالِحٌ هَذَا الْمَارِدَ لِمَا قَرَأَ عَنْهُ وَعَنْ قُوَّتِهِ فِي أَكْثَرَ مِنْ كِتَابٍ عِنْدَهُ وَخَاصَّةً كُتُبُ وَالِدِهِ، أَنَّهُ مِنْ أَقْوَى الْجَانِّ، وَفِي قُوَّتِهِ لَا يُثَارُ لَهُ غُبَارٌ، وَيَفْعَلُ مَا تَطْلُبُهُ مِنْهُ، وَلَا يُوجَدُ لَدَيْهِ شَيْءٌ اسْمُهُ مُحَال، فَهُوَ يَفْعَلُ كُلَّ شَيْءٍ وَأَيَّ شَيْءٍ، وَجَمِيعُ الْجَانِّ تَهَابُهُ، وَقَالَ صَالِحٌ إِنَّهُ مُسْتَعِدٌّ لِأَيِّ طَلَبٍ مِنَ الْجَانِّ، فَبَعْدَ خَطْفِ الْأَوْلَادِ لَا يُوجَدُ شَيْءٌ يَخَافُ عَلَيْهِ.

جَهَّزَ صَالِحٌ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ بَخُورٍ كَمَا ذَكَرَ الْكِتَابُ، وَكُلُّهَا أَنْوَاعٌ خَاصَّةٌ رَائِحَتُهَا نَفَّاذَةٌ وَكَرِيهَةٌ، وَطَلَبَ مِنْهُ ذَبْحَ كَلْبٍ أَسْوَدَ، وَإِسَالَةَ دَمِهِ عَلَى الطَّلْسَمِ الْمَرْسُومِ عَلَى الْأَرْضِ، وَفِي مُنْتَصَفِ الدَّائِرَةِ تُوضَعُ رَأْسُهُ، وَقَدْ سَاعَدَهُ فِي هَذَا الْخفِيرَانِ مُحَيْسِن وَشُعْلَانُ، رَغْمَ خَوْفِ الْعُمْدَةِ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتْ هَذِهِ طَلَبَاتٌ لِلتَّحْضِيرِ فَقَطْ، فَمَا هِيَ طَلَبَاتُ التَّنْفِيذِ؟ لَكِنْ قَالَ صَالِحٌ:نَحْنُ لَا نَمْلِكُ رَفَاهِيَّةَ الِاخْتِيَارِ.

وَعَرَضَ الْعُمْدَةُ عَلَى صَالِحٍ أَنْ يَحْضُرَ مَعَهُ الْجَلْسَةَ لِيَكُونَا مَعًا، إِذَا حَدَثَ أَيُّ شَيْءٍ يَسْتَطِيعَانِ عَمَلَ أَيِّ رَدِّ فِعْلٍ، وَلَكِنْ صَالِحٌ رَفَضَ وَقَالَ: إِذَا حَدَثَ مَكْرُوهٌ مِثْلُ خَطْفِنَا كَالْأَوْلَادِ، فَيَكْفِي أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا، وَالثَّانِي يَظَلُّ لِيُكَمِّلَ الْمَشْوَارَ.

نَفَّذَ صَالِحٌ كُلَّ شَيْءٍ، وَبَدَأَ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ لِكَيْ يَحْفَظَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَجَلَسَ وَحْدَهُ يَرَى مَصِيرَهُ وَمَا قَدْ يَحْدُثُ لَهُ مِنْ هَذَا الْجَانِّ الْقَوِيِّ، الَّذِي يَطْلُبُ طَلَبَاتٍ مُخِيفَةً.

فَقَدْ وُصِفَ فِي الْكُتُبِ بِقُوَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَأَيْضًا طَلَبَاتِهِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي تُخِيفُ الْجَمِيعَ مِنْهُ؛ ثُمَّ بَدَأَ بِقِرَاءَةِ كُلِّ الطَّلَاسِمِ وَالتَّعَاوِيذِ الْخَاصَّةِ بِاسْتِحْضَارِ هَذَا الْجَانِّ، وَمَعَ مُرُورِ الدَّقَائِقِ عَلَيْهِ كَأَنَّهَا سِنُونٌ، يَزِيدُ فِي حَرْقِ الْبَخُورِ، وَتَتَصَاعَدُ أَدْخِنَةُ الْبَخُورِ وَيَكَادُ نَفَسُهُ أَنْ يَنْقَطِعَ مِنْ رَائِحَتِهَا الْكَرِيهَةِ، فَهِيَ تزكم الْأُنُوفَ وَتُدْمِعُ الْعُيُونَ، وَأَصْبَحَتِ الْغُرْفَةُ عِبَارَةً عَنْ سَحَابَةٍ مِنْ دُخَانِ الْبَخُورِ، وَرَائِحَةٍ تُوحِي بِأَنَّهُ فِي مَكَبِّ زُبَالَةٍ، وَبَدَأَ يَسْمَعُ أَصْوَاتًا غَرِيبَةً وَكَأَنَّهَا آتِيَةٌ مِنْ بَعِيدٍ، أَصْوَاتٌ نُشَازٌ مَكْتُومَةٌ.

فَأَوَّلَ مَرَّةٍ يَحِسُّ صَالِحٌ أَنَّ الْأَصْوَاتَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لَهَا لَوْنٌ، إِنَّهُ يَحِسُّهَا سَوْدَاءَ قَاتِمَةً، وَهِيَ تَزْدَادُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا، ثُمَّ تَهْدِرُ وَكَأَنَّهَا أَمْوَاجُ شَلَّالَاتٍ ضَخْمَةٍ.

أَحَسَّ صَالِحٌ أَنَّ الْبَيْتَ سَيُهْدَمُ عَلَيْهِ، بَلْ سَيُدَكُّ دَكًّا، أَحَسَّ أَنَّ نِهَايَتَهُ آتِيَةٌ لَا مَحَالَةَ، وَسَأَلَ نَفْسَهُ إِذَا كَانَ كُلُّ هَذَا الرُّعْبِ أَرْسَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ هُوَ بِنَفْسِهِ، بِشَحْمِهِ وَلَحْمِهِ، فَكَيْفَ يَكُونُ هُوَ إِذًا؟ وَهَلْ سَيَظْهَرُ أَمْ يَكُونُ صَوْتًا فَقَطْ مِثْلَ شَمْهُورُش؟ وَكَيْفَ تَكُونُ صُورَتُهُ إِذَا ظَهَرَ؟ وَمَا هِيَ دَرَجَةُ الرُّعْبِ فِي رُؤْيَتِهِ؟ جَاءَتْهُ فِكْرَةٌ أَنْ يَلُوذَ بِالْفِرَارِ.

اَلصَّوْتُ يَزْدَادُ، وَبَدَأَ الْبَيْتُ يَهْتَزُّ أَكْثَرَ، وَبَدَأَ خَوْفُهُ يَعْلُو وَيَعْلُو، وَدَقَّاتُ قَلْبِهِ يَسْمَعُهَا أَعْلَى مِنَ الصَّوْتِ الَّذِي صَمَّ آذَانَهُمْ فِي حَرْبِ الْجَانِّ غُولْنَار، أَحَسَّ أَنَّ أَنْفَاسَهُ يَسْمَعُهَا مَنْ بِالْخَارِجِ، بَلِ الْقَرْيَةُ كُلُّهَا تَسْمَعُهَا، وَأَنَّهُ عَلَى مَشَارِفِ الْهَلَاكِ لَا مَحَالَةَ، وَهَمَّ أَنْ يَقُومَ لِيَهْرُبَ، لِيَنْفُذَ بِجِلْدِهِ، وَهَمَّ أَنْ يُطْلِقَ سَاقَيْهِ لِلرِّيحِ، وَإِذَا بِضَوْءٍ أَحْمَرَ شَدِيدِ الْحُمْرَةِ يَعُمُّ الْحُجْرَةَ، وَأَصْوَاتٍ غَرِيبَةٍ تُزَلْزِلُهَا لَمْ يَسْتَطِعْ تَمْيِيزَهَا: هَلْ هِيَ ضَحَكَاتٌ أَمْ صُرَاخٌ؟ إِنَّهُ يَمُوتُ رُعْبًا، بَلْ إِنَّهُ أَحَسَّ أَنَّهُ مَاتَ فِعْلًا.

وَإِذَا بِالْبَيْتِ يَهْتَزُّ هَزَّاتٍ عَنِيفَةً، وَكَأَنَّهُ دُمْيَةٌ فِي يَدِ مَجْنُونٍ يَفْتِكُ بِهَا، وَالْأَصْوَاتُ تَعْلُو حَتَّى صَمَّتْ آذَانَهُ. وَفَجْأَةً اِنْشَقَّ الْحَائِطُ عَنْ فَضَاءٍ كَبِيرٍ كُلُّهُ أَحْمَرُ، وَضَبَابٌ أَسْوَدُ يَعُمُّ الْفَضَاءَ، مَنْظَرٌ مُرْعِبٌ مُوحِشٌ. وَمِنْ وَسَطِ هَذَا الضَّبَابِ الْأَسْوَدِ الَّذِي يَعُمُّ الْمَكَانَ، يَظْهَرُ

مَخْلُوقٌ قَمِيءُ الْوَجْهِ، لَا يُمْكِنُ النَّظَرُ فِي وَجْهِهِ قَطُّ، يُؤْذِي النَّظَرَ، أَقَلُّ مَا يُقَالُ عَلَيْهِ إِنَّهُ مَسْخٌ.

أَحَسَّ صَالِحٌ وَكَأَنَّهُ أَمَامَ شَاشَةِ سِينِمَا، فَطُولُهُ أَكْبَرُ مِنَ الْمَنْزِلِ، أَكْثَرُ مِنْ سِتَّةِ أَمْتَارٍ، وَرَأْسٌ كَبِيرَةٌ ضَخْمَةٌ، وَعَيْنَانِ عِبَارَةٌ عَن فَتْحَتَانِ كَهْفٍ حَمْرَاءُ تَخْرُجُ نارٌ، وَشَعْرٌ كَأَنَّهُ أَسْلاكُ حَدِيدٍ، وَجِسْمٌ كَبِيرٌ كُلُّهُ عَضَلاتٌ وَشَعْرٌ كَثِيفٌ، وَذَيْلٌ يَضْرِبُ بِهِ فِي كُلِّ اتِّجاهٍ. إِنَّهُ ديناصورٌ، وَكَأَنَّ الدِّيناصوراتِ عادَتْ مِنْ جَدِيدٍ، وَفَمٌ كَأَنَّهُ كَهْفٌ بِهِ أَنْيابٌ كَأَنَّها قِطَعٌ صَخْرِيَّةٌ، وَلَيْسَتْ أَسْناناً، وَشَفَتانِ كَأَنَّهُما غِطاءُ آبَارٍ.

صالِحٌ أَحَسَّ أَنَّهُ يَحْتَضِرُ، وَتَمَنَّى لَوْ أَنَّ الأَرْضَ تَنْشَقُّ وَتَبْتَلِعَهُ، فَالْمَوْتُ قادِمٌ لا مَحالَةَ، ثُمَّ كَيْفَ لَهُ أَنْ يُحاوِرَ هَذا الْمَخْلوقَ لِإِنْهاءِ الْمُهِمَّةِ وَيُساعِدَهُ في فَكِّ أَسْرِ الأَطْفالِ؟ إِنَّهُ لا يَسْتَطيعُ حَتّى النَّظَرَ إِلَيْهِ. وَفَجْأَةً صاحَ دَرْدِيائِيلُ بِالْحَديثِ منفعلا عليه: عاوِزْ إيه يا صالِح؟.

هُنا عَلِمَ صالِحٌ أَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ مَعَ هَذا الْمَخْلوقِ، فَلا بُدَّ مِنَ الرَّدِّ، وَلا بُدَّ مِنْ تَنْقِيَةِ الرَّدِّ حَتّى لا يُغْضِبَهُ فَتَكُونَ نِهايَتُهُ عَلى يَدَيْهِ، وَهالَهُ صَوْتُهُ الَّذي يُشْبِهُ أَصْواتَ الْحَميرِ، صَوْتٌ نَكِرٌ

تَشْمَئِزُّ مِنْهُ الآذانُ وَالأَنْفُسُ، فَرَدَّ بِسُرْعَةٍ: أُريدُ مُساعَدَتَكَ في شَيْءٍ هامٍّ يا مَلِكَ الْجانِّ.

ضَحِكَ دَرْدِيائِيلُ بِصَوْتٍ عالٍ، فَقَدْ أَسْعَدَهُ رَدٌّ مِنْ صالِحٍ وَهُوَ يَقُولُ لَهُ "يا مَلِكَ الْجانِّ"، ثُمَّ قالَ لَهُ: حَدِّدْ طَلَبَكَ يا صالِح.

قالَ صالِحٌ: عَوْدَةُ الأَطْفالِ الَّذينَ خَطَفَهُمُ الْجانُّ.

فَرَدَّ عَلَيْهِ أَنَّهُ يَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَنَّ هَيْثْمورَ وَسَلْهوبَ هُما مَنْ خَطَفا الطِّفْلَيْنِ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ وَفَرَدَ كَفَّهُ أَمامَ صالِحٍ وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَنْظُرَ في كَفِّهِ، وَإِذا بِكَفِّ يَدِهِ يَتَحَوَّلُ إِلى نافِذَةٍ، وَفَجْأَةً يَرى صالِحٌ الطِّفْلَيْنِ جالِسَيْنِ في قَفَصٍ مِنَ الْحَديدِ مُغْلَقٍ بِالسَّلاسِلِ وَعَلَيْها الأَقْفالُ، وَأَمامَ هَذا الْقَفَصِ، وَعَلى بابِ الْغُرْفَةِ الَّتي بِها ضَوْءٌ خافِتٌ شِبْهُ مُظْلِمَةٍ، تَقِفُ حَيَّةٌ رُقْطاءُ حَجْمُها قَريبٌ مِنْ حَجْمِ هَذا الْجانِّ الْواقِفِ أَمامَهُ.

أَحَسَّ صالِحٌ أَنَّ الْوَضْعَ لَيْسَ شِبْهَ مُسْتَحيلٍ، بَلْ فِعْلاً هُوَ مُسْتَحِيلٌ مِمَّا يَرَى، فَقالَ صالِحٌ فِي خَوْفٍ بِصَوْتٍ مُرْتَعِشٍ: مَا الْعَمَلُ وَالْحَلُّ؟.

ضَحِكَ الْجانُّ دَرْدِيائِيلْ، وَأَكْمَلَ مَا بَدَأَهُ وَيُرِيدُ أَنْ يَقُولَهُ: إِنَّهُمَا فِي وَادِي الْمَوْتِ فِي الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ، عَالَمِ اللَّاعَوْدَةِ، وَهُوَ شِبْهُ مُسْتَحِيلٍ أَنْ يَقْتَحِمَهُ أَحَدٌ، مَعْرَكَةٌ نَتِيجَتُهَا الْوَحِيدَةُ وَالْحَتْمِيَّةُ هِيَ

الْمَوْتُ، إِذَا ذَهَبْتَ بِدُونِ أَنْ يَكُونَ مَعَكَ الْعُدَّةُ وَالْعَتَادُ الْمَفْرُوضَةُ لِهَذَا الْمَكَانِ. لِكَيْ تَصِلَ إِلَى الْأَوْلَادِ، أَمَامَكَ خَمْسَةُ بَوَّابَاتٍ، آخِرُهَا هَذِهِ الْحَيَّةُ الضَّخْمَةُ، وَلَابُدَّ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهَا وَتَعْبُرَ الْأَبْوَابَ لِفَكِّ أَسْرِ الْأَطْفَالِ، الْمَوْضُوعُ لَيْسَ مُغَامَرَةً مَحْفُوفَةً بِالْمَخَاطِرِ فَقَطْ، لَا، بَلِ النَّتِيجَةُ الْحَتْمِيَّةُ هِيَ الْمَوْتُ إِنْ لَمْ تَحْسِبْ كُلَّ خُطْوَةٍ.

أَحَسَّ صَالِحٌ بِالْيَأْسِ، وَأَنَّ مَا يُرِيدُهُ هُوَ ضَرْبٌ مِنَ الْخَيَالِ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَسْمَعَ مَاذَا سَيَقُولُ هَذَا الْجَانُّ، وَإِذَا كَانَ هَذَا الْجَانُّ بِكُلِّ هَذَا الْحَجْمِ وَالْقُدْرَةِ وَيَخَافُ هَذِهِ الْمُغَامَرَةَ، إِذَنْ مَاذَا يَفْعَلُ هُوَ؟ فَرَدَّ وَهُوَ يَكَادُ لَا يَسْمَعُ صَوْتَ نَفْسِهِ مِنْ يَأْسِهِ: وَالْعَمَلُ؟ مُمْكِنْ نُخَلِّصْهُمْ؟.

هُنَا ضَحِكَ دَرْدِيَائِيلْ ضَحْكَةً عَالِيَةً رَجَّتِ الْمَكَانَ رَجًّا، وَقَالَ: هَلْ تَسْتَهِينُ بِي؟ سَأُسَاعِدُكَ وَأُخَلِّصُ الْأَوْلَادَ وَأَعُودُ بِهِمَا، فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ تَجِدُهُمَا أَمَامَكَ، مَا إِنْ تُوَافِقْ عَلَى طَلَبِي وَتُلَبِّيهِ، سَتَجِدِ الْأَوْلَادَ بِجَانِبِكَ: وَمَا هُوَ الْمَطْلُوبُ مِنِّي؟.

- أَوَّلًا عَلَيْكَ أَنْ تُوَقِّعَ عَهْدًا مَعِي عَلَى أَنَّكَ تَسْجُدُ لِي كُلَّ يَوْمٍ، وَعَلَى أَنْ تَدْخُلَ الْحَمَّامَ وَمَعَكَ الْمُصْحَفُ، وَتَقِفَ عَلَيْهِ، وَإِذَا وَافَقْتَ الْآنَ وَفِي الْحَالِ، تَجِدِ الْأَطْفَالَ بِجِوَارِكَ، وَلَكِنِ الْحَذَرَ يَا ابْنَ الْإِنْسِ! إِنْ كُنْتَ تَظُنُّ أَنَّكَ ذَكِيٌّ وَتُوَافِقُ مُبْدَئِيًّا الْآنَ وَتَسْجُدُ

السَّجْدَةَ الْأُولَى فَقَطْ، وَتَقُولُ إِنَّكَ اضْطُرِرْتَ إِلَيْهَا، وَبَعْدَ أَنْ تَعُودَ الْأَطْفَالُ تَرْفُضُ السُّجُودَ وَلَا تُنَفِّذُ الْعَهْدَ، وَلَا تُلَبِّي مَا طَلَبْتُ مِنْكَ، فَاعْلَمْ جَيِّدًا أَنِّي أُعِيدُ الْأَطْفَالَ إِلَى الْوَادِي مَرَّةً ثَانِيَةً، الْيَوْمُ الَّذِي تَنْسَى فِيهِ السُّجُودَ هُوَ يَوْمُ عَوْدَةِ الْأَطْفَالِ إِلَى وَادِي الْمَوْتِ كَمَا كَانَا.

أَحَسَّ صَالِحٌ أَنَّ الْأَرْضَ تَمِيدُ بِهِ، وَأَنَّهُ وَصَلَ إِلَى نِهَايَةِ الْعَالَمِ، لَمْ يَتَخَيَّلْ وَلَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِ أَنْ تَصِلَ الطَّلَبَاتُ إِلَى هَذَا الْحَدِّ: الْكُفْرُ وَالْإِلْحَادُ وَالتَّمْثِيلُ بِالْمُصْحَفِ الشَّرِيفِ! مَا هَذَا؟ إِنَّهُ تَعَدَّى مَرَاحِلَ الْكُفْرِ، كَادَ صَالِحٌ أَنْ يَتَقَيَّأَ، فَحَالَتُهُ أَصْبَحَتْ صَعْبَةً جِدًّا، إِنَّهُ يَتَعَرَّضُ لِضَغْطٍ نَفْسِيٍّ أَكْبَرَ مِنْهُ وَمِنْ كُلِّ الْبَشَرِ جَمِيعًا، وَخَافَ صَالِحٌ أَنْ يَرْفُضَ، فَيَنْكُلَ بِهِ هَذَا الْمَخْلُوقُ إِنْ قَالَ لَهُ: "لَا". إِنَّ هَذَا كُفْرٌ وَإِلْحَادٌ، أَكِيدْ سَيَفْعَلُ مَا لَا يَتَوَقَّعُهُ أَحَدٌ، فَفَكَّرَ سَرِيعًا وَقَالَ:أَعْطِنِي فُرْصَةً لِكَيْ أُفَكِّرَ.

أَخْرَجَ الْجَانُّ صَوْتًا غَرِيبًا تَعْبِيرًا عَنْ غَضَبِهِ، وَقَالَ بِحِدَّةٍ: اصْرِفْنِي، وَحِينَ تُوَافِقُ أَنْتَ تَعْرِفُ كَيْفَ تَسْتَدْعِينِي.

وَقَامَ صَالِحٌ بِصَرْفِ الْجَانِّ.

(٢٨)

أَصْبَحَ ضَرِيحُ مَحْرُوسِ الطَّائِرِ مُزْدَحِمًا بِالزُّوَّارِ، وَيَوْمَ الْجُمُعَةِ يَقِفُ الزُّوَّارُ طَابُورًا كَبِيرًا وَكَأَنَّهُ طَابُورُ عَيْشٍ، وَكُلُّ فَرْدٍ يُظْهِرُ مَا بِيَدِهِ مِنْ نُقُودٍ فِي تَبَاهٍ، وَيَجْلِسُ عُمَرُ أَمَامَ الضَّرِيحِ، وَالزُّوَّارُ يُقَبِّلُونَ يَدَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ وَيُقَبِّلُونَ رَأْسَهُ، كَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ مَعَ طِفْلَيْ صَالِحٍ وَالْعُمْدَةِ، وَيَجْلِسُ سَالِمُ الشَّايِبُ الَّذِي لَا يُفَارِقُ الضَّرِيحَ إِلَّا لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ أَوِ الْوُضُوءِ، وَالْكُلُّ يُقَبِّلُ يَدَهُ فِي بَدَايَةِ دُخُولِهِمْ غُرْفَةَ الضَّرِيحِ وَفِي الْخُرُوجِ أَيْضًا، إِنَّهُ أَصْبَحَ أَشْهَرَ شَيْخٍ فِي النَّاحِيَةِ، وَالْكُلُّ يَتَمَنَّى رِضَاهُ أَوْ بَسْمَةً مِنْهُ.

لَاحَتْ فِي عَقْلِ سَالِمِ الشَّايِبِ فِكْرَةٌ جَدِيدَةٌ مِنْ أَفْكَارِهِ الأَعْوَرِيَّةِ الشَّيْطَانِيَّةِ، يَزِيدُ بِهَا مَكَانَتَهُ بَيْنَ النَّاسِ وَيُصْبِحُ قُطْبًا مِنَ الأَقْطَابِ، وَلَا يُنَازِعُهُ أَحَدٌ فِي بَرِّ مِصْرَ فِي هَذَا. هَمَسَ سَالِمُ الْجَدِيدُ، سَالِمُ الأَعْوَرُ، لِأَخِيهِ وَهُمَا بِالضَّرِيحِ، فَهُمَا لَا يُفَارِقَانِ الضَّرِيحَ إِلَّا لِلنَّوْمِ فَقَطْ، فَهُوَ عَمَلُهُمَا وَشُغْلُهُمَا الشَّاغِلُ، مَشْرُوعُهُمَا وَمُسْتَقْبَلُهُمَا، وَقَدْ وَاتَتْهُ فِكْرَةٌ أَعْوَرِيَّةٌ شَيْطَانِيَّةٌ وَبَدَأَ فِي تَنْفِيذِهَا، وَقَالَ لِأَخِيهِ: أُرِيدُكَ أَنْ تَأْتِيَ لِي بِعَنْتَرٍ أَبُو هِلَالٍ، هُوَ فِي قَرْيَةِ الْهَجِينَةِ.

فَصَاحَ أَخُوهُ فِي اسْتِنْكَارٍ: مِين!؟ بِتِقُولْ مِين!؟ عَاوِزْ عَنْتَرْ أَبُو هِلَالِ الْحَرَامِي! مَا أَنَا عَارِفْ إِنُّهُ فِي الْهَجِينَةِ، دَهْ حَرَامِي مَوَاشِي!.

- إِنْتَ تِعْمِلْ اللِّي أَقُولَّكْ عَلَيْهِ بَسْ، وَتِجِيبُهُ أَقَابِلُهُ عَلَى التِّرْعَةِ بَرَّه.

- عَاوِزُهُ إِمْتَهْ؟

- الْيَوْمَ، يُقَابِلْنِي بِاللَّيْلِ السَّاعَةَ ١٢ بَاللَّيْلِ، خَارِجَ الْقَرْيَةِ بَعِيدْ، عِنْدَ السَّاقِيَةِ اللِّي بَيْنَا وَبَيْنْ عِزْبَةِ أَبُو رَجَب.

- طَيِّبْ، لِيهْ؟.

- هَتِعْرَفْ سَاعْتِهَا... قُومْ قَابِلْ الزُّوَّارْ، الأَعْيَانْ وَصَلُوا، دُولْ اتْنِينْ مِنَ الأَعْيَانْ الْجَمَادْ.

قَامَ مُحَمَّدٌ لِمُقَابَلَةِ الأَعْيَانِ قَبْلَ دُخُولِهِمَا الضَّرِيحَ، وَوَقَفَ سَالِمٌ لِاسْتِقْبَالِهِمْ، وَقَامَ رَجَبُ عُثْمَانَ وَالِدُ الطِّفْلِ عُمَرَ لِصُنْعِ الْقَهْوَةِ لَهُمْ، فَهُمْ زُوَّارٌ خَمْسَةُ نُجُومٍ، وَسَيَدْفَعُ كُلُّ وَاحِدٍ جُنَيَّهْ، وَهَذَا الْمُعْتَادُ مِنَ الأَعْيَانِ.

***

تَحْتَ جُنْحِ الظَّلَامِ وَعِنْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ، الْتَقَى سَالِمُ الشَّابِبُ وَأَخُوهُ مُحَمَّدٌ بِعَنْتَرٍ أَبُو هِلَالٍ الْحَرَامِيّ. وَكَانَ عَنْتَرٌ فِي حَيْرَةٍ: مَاذَا يُرِيدُ

الشَّيْخُ سَالِمُ الشَّايِبُ مِنْهُ؟ فَهُوَ شَيْخُ طَرِيقَةٍ وَخَطِيبٌ، هَلْ يُرِيدُ مِنْهُ أَنْ يَتُوبَ؟! وَأَحَسَّ عَنْتَرُ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ سِوَى هَذَا الْهَدَفِ مِنَ اللِّقَاءِ، فَمَاذَا يُرِيدُ شَيْخٌ مِنْ حَرَامِيٍّ غَيْرَ أَنْ يَنْصَحَهُ؟.

وَلَكِنَّهُ عَادَ وَيَسْأَلُ نَفْسَهُ: وَهَلْ طَلَبُ التَّوْبَةِ يَكُونُ لَيْلًا فِي الْخَفَاءِ وَمُنْتَصَفَ اللَّيْلِ، وَفِي مَكَانٍ خَالٍ وَمَعْزُولٍ عَنِ النَّاسِ؟!.

وَأَتَى الرَّدُّ عَلَى كُلِّ مَا يَدُورُ بِعَقْلِ عَنْتَرَ الْحَرَامِيِّ مِنْ سَالِمٍ، فَكَانَتِ الْمُفَاجَأَةُ: أَنْ طَلَبَ الشَّيْخُ الْمُبَجَّلُ مِنْ عَنْتَرٍ أَنْ يَسْرِقَ جَامُوسَةَ صَلَاحٍ حَمْدَانَ، وَهُوَ أَحَدُ فَلَّاحِي قَرْيَةِ أَبُو رَجَبْ. وَبَيْتُهُ عَلَى طَرَفِ الْقَرْيَةِ، أَيْ ظَهْرُ الْمَنْزِلِ يُطِلُّ عَلَى الأَرْضِ الزِّرَاعِيَّةِ وَزَرِيبَةُ الْمَوَاشِي بِظَهْرِ الْبَيْتِ وَسَوْفَ يَفْتَحُ بِالْحَائِطِ فَتْحَةً لِخُرُوجِ الْجَامُوسَةِ، كَمَا هُوَ الْمُعْتَادُ فِي سَرِقَةِ الْمَوَاشِي فِي الأَرْيَافِ؛ تُفْتَحُ فِي حَائِطِ الزَّرِيبَةِ فَتْحَةٌ تَكُونُ كَافِيَةً لِخُرُوجِ الْمَوَاشِي، وَخُصُوصًا أَنَّ الْبُيُوتَ كُلَّهَا مِنَ الطُّوبِ اللَّبِنِ، أَيْ الْمَصْنُوعِ مِنَ الطِّينِ.

الطَّرِيقَةُ مَعْرُوفَةٌ بِاسْمِ (النَّقْبِ)، وَيَنْقُبُونَ الْحَائِطَ أَيْ يَفْتَحُونَ بِهِ فَتْحَةً؛ وَحِينَما اسْتَغْرَبَ عَنْتَرٌ الطَّلَبَ، عَلَّلَ لَهُ سَالِمٌ أَنَّ هَذَا لِتَأْدِيبِ صَلَاحٍ دِينِيًّا، وَقَالَ لَهُ: يَكْفِي أَنْ يَكُونَ مَعَكَ مُسَاعِدٌ وَاحِدٌ فَقَطْ، وَلَوِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ أَنْتَ بِمُفْرَدِكَ يَكُونُ أَفْضَلَ.

فَقَالَ عَنْتَرٌ لَهُ: بَلْ مَعِي مُسَاعِدٌ وَاحِدٌ فَقَطْ، لِيَسْحَبَ الْجَامُوسَةَ وَأَنَا أُرَاقِبُ وَأَحْمِي، وَحِينَما سَأَلَهُ: وَبَعْدَ سَرِقَتِهَا، مَا هُوَ الْعَائِدُ لِي؟ أَخَذَ سَالِمٌ يَشْرَحُ لَهُ: سَأُعْطِيكَ عَلَى هَذَا الْعَمَلِ ثَلَاثَةَ جُنَيْهَاتٍ، جُنَيْهًا الْآنَ، وَاثْنَيْنِ حِينَ يَأْتِيَكَ صَلَاحُ حَمْدَانَ لِيَأْخُذَ الْجَامُوسَةَ مِنْكَ.

فَقَالَ عَنْتَرٌ: وَيَأْخُذُهَا لِمَاذَا؟ طَيِّبْ، إِذَا كَانَ سَيَأْخُذُهَا، سَرَقْنَاهَا لِمَاذَا؟!.

سَالِمٌ: اسْمَعْ لِلآخِرِ بِدُونِ مُقَاطَعَةٍ، وَسَوْفَ تَطْلُبُ مِنْهُ "حَلَاوَةَ رَدِّ الْجَامُوسَةِ" جُنَيْهَيْنِ، وَيُعْطِيهُمَا لَكَ بِنَفْسِهِ.

وَمَدَّ يَدَهُ سَالِمٌ وَأَعْطَاهُ الْجُنَيْهَ، وَسَأَلَهُ سَالِمٌ إِنْ كَانَ يَعْرِفُ بَيْتَ صَلَاحٍ حَمْدَانَ، فَضَحِكَ عَنْتَرُ أَبُو هِلَالٍ وَقَالَ: أَنَا أَعْرِفُ كُلَّ بَيْتٍ فِي النَّاحِيَةِ كُلِّهَا، بَسْ لِمَاذَا؟ وَأَنْتَ اسْتَفَدْتَ إِيهْ؟.

سَالِمٌ: أُنْقِذُهُ مِنْ نَفْسِهِ، لَقَدْ تَرَكَ الصَّلَاةَ مُنْذُ أُسْبُوعَيْنِ وَكَذَلِكَ الطَّرِيقَةَ، وَنَحْنُ نُعِيدُهُ إِلَى اللهِ.

عَنْتَرُ (ضَاحِكًا): أَنَا عُمْرِي مَا صَلَّيْتُ أَصْلًا، وَحَرَامِي، وَمَحَدِّشْ سَأَلَ فِيَّا!.

وَذَهَبَ لِيُنَفِّذَ الْعَمَلِيَّةَ، وَمُحَمَّدُ الشَّابِبُ مُنْدَهِشٌ، وَلَكِنَّهُ صَامِتٌ يَنْتَظِرُ الشَّرْحَ. وَفِي عَوْدَتِهِمْ إِلَى الْبَيْتِ قَالَ لَهُ سَالِمٌ: فَهِمْتَ حَاجَةً؟.

- لَا وَاللهِ يَا سَالِمُ.

- اسْمِي الشَيْخُ سَالِمٍ يَا غَبِيُّ.

- مَاشِي، بَسْ إِحْنَا لِوَحْدِنَا الْآنَ. لِمَاذَا الْقِصَّةُ دِي؟

- بُكْرَةَ تِعْرَفْ، الْمُهِمُّ، الرِّجَالَةُ بِتُوعُنَا الَّذِينَ فِي عِزْبَةِ أَبُو رَجَبْ يَكُونُوا فِي الضَّرِيحِ غَدًا.

- وَهُمَا لَهُمْ مَأْوَى آخَرُ غَيْرُنَا يَا شَيْخَ سَالِمٍ؟

- هُمْ سَبَبُ رِزْقِنَا، وَهُمْ أَيْدِينَا وَرِجْلِينَا، أَيْدٍ تُنَفِّذُ، وَرِجْلٌ نُرْسِلُهَا كَمَا نُرِيدُ.

***

جَلَسَ سَالِمٌ بِالضَّرِيحِ مَعَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَبِجِوَارِهِ أَخُوهُ. لَا أَحَدَ يَعْرِفُ مَا يَدُورُ بِعَقْلِ سَالِمٍ الشَّيْطَانِيِّ، وَأَتَى رِجَالُ الطَّرِيقَةِ إِلَى الضَّرِيحِ تِبَاعًا، وَلَكِنَّ صَالِحًا كَانَ يَنْتَظِرُ رِجَالَ عِزْبَةِ أَبُو رَجَبْ، وَحِينَمَا هَلُّوا ابْتَسَمَ صَالِحٌ وَبَدَأَ يَتَحَدَّثُ لِلْجَمِيعِ أَنَّ الشَّيْخَ مَحْرُوسَ الطَّائِرَ جَاءَهُ فِي الْمَنَامِ وَأَعْطَاهُ عَهْدًا جَدِيدًا: رَدُّ الْمُطَلَّقَةِ، وَجَمْعُ الْحَبِيبِ، وَرَدُّ الْغَائِبِ، وَمَعْرِفَةُ الْغَيْبِ، وَمَعْرِفَةُ

السَّارِقِ وَمَكَانِ الْمَسْرُوقَاتِ بِفَتْحِ الْمَنْدَلِ (وَهَذَا الْمَنْدَلُ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الدَّجَّالِينَ، وَهُوَ أَنْ يَأْتُوا بِإِنَاءٍ بِهِ مَاءٌ، وَيَقُومُ الدَّجَّالُ بِقِرَاءَةِ بَعْضِ الْكَلِمَاتِ عَلَيْهِ، فِي وُجُودِ وَسِيطٍ يَكُونُ طِفْلًا، فَيَنْظُرُ فِي الْمَاءِ وَيَصِفُ مَا يَرَاهُ).

هُنَا ابْتَسَمَ مُحَمَّدٌ أَخُوهُ، وَعَرَفَ الْمَغْزَى مِنْ قِصَّةِ سَرِقَةِ الْجَامُوسَةِ. فَقَالَ سَالِمٌ لِرِجَالَتِهِ بِلُغَةِ الأَمْرِ: إِذَا فَقَدَ أَحَدٌ شَيْئًا يَأْتِي إِلَيَّ، وَسَوْفَ أَقُولُ لَهُ أَيْنَ هُوَ، وَإِذَا سُرِقَ يَأْتِي إِلَيَّ، وَسَوْفَ أَقُولُ لَهُ أَيْنَ الْمَسْرُوقَاتُ وَمَنْ سَرَقَهَا.

***

اِسْتَيْقَظَتْ قَرْيَةُ أَبُو رَجَبٍ عَلَى صِيَاحِ صَلَاحٍ حَمْدَانَ وَاقِفًا أَمَامَ بَيْتِهِ، فَقَالَ: اَلْحَقُونَا، اَلْجَامُوسَةُ اِتْسَرَقْنَا!.

بدأ صُرَاخُ زَوْجَتِهِ وَبَنَاتِهِ، وَالرَّجُلُ يَصِيحُ: نَقَبَ اَلْحَرَامِيَّةُ حَائِطَ اَلزَّرِيبَةِ وَسَرَقُوا اَلْجَامُوسَةَ، رَأْسُ مَالِي وَكُلُّ مَا أَمْلِكُ!.

تَجَمْهَرَ اَلنَّاسُ حَوْلَهُ، وَأَخَذُوا يُوَاسُونَهُ، وَهُوَ يَصِيحُ: كُنَّا عَايِشِينَ عَلَى شُوَيَّةِ اَللَّبَنِ بِتُوعْهَا، كَانَتْ مِعَيَّشَانَا.

أَقْبَلَ رِجَالُ اَلطَّرِيقَةِ جِيرَانُهُ فِي عِزْبَةِ أَبُو رَجَبٍ، وَأَحَدُهُمْ جَارُهُ اَلْمُلَاصِقُ لَهُ، فَقَالَ أَمَامَ اَلنَّاسِ: عَلَيْكَ وَعَلَى اَلشَّيْخِ سَالِمِ اَلشَّايِبِ، هُوَ يَفْتَحْ لَكِ اَلْمَنْدَلْ وَيُقُولَّكْ مِينْ سَرَقْهَا وَهِيَ فِينْ كَمَانْ.

اِسْتَغْرَبَ اَلنَّاسُ هَذَا اَلْقَوْلَ، هُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّهُ شَيْخُ طَرِيقَةٍ فَقَطْ.
فَقَالَ أَحَدُ اَلنَّاسِ: دَهْ شَيْخُ طَرِيقَةٍ، يَعْنِي بِتَاعْ ذِكْرٍ.
فَرَدَّ رَجُلٌ مِنَ اَلطَّرِيقَةِ: حَاسِبْ عَلَى نَفْسَكْ، أَحْسَن تَتْضُرّ، بِسْخَطَكْ كَلْبْ!.
ضَحِكَ اَلنَّاسُ، وَرَدَّ آخَرُ: يَعْنِي إِحْنَا فِي إِيدِينَا إِيهْ؟ يَلَّا نِرُوحْ لُهْ.
وَقَالَ صَلَاحٌ حَمْدَانَ فِي شِبْهِ بُكَاءٍ: يَلَّا، وَيُمْكِنْ اَلْخِيرْ بِيجِي عَلَى إِيدِيهْ.

***

دَخَلَ وَفْدُ قَرْيَةِ أَبُو رَجَبٍ عَلَى الشَّيْخِ سَالِم الشَّايِبِ فِي الضَّرِيحِ وَهُمْ يَصِيحُونَ: اَلْحَقْنَا يَا شَيْخُ، اِنْقِذْنَا.
وَبَكَى صَلَاح حَمْدَان قَائِلًا: جَامُوسْتِي سُرِقَتْ وَنُقِّبَتِ الزَّرِيبَة.
فَهَدَّأَ سَالِمٌ مِنْ رَوْعِهِمْ وَقَالَ لَهُمْ: سَوْفَ يُوَفِّقُنَا اللهُ بِبَرَكَةِ الشَّيْخِ مَحْرُوس الطَّايِر، وَنَعْرِفُ مَنْ سَرَقَهَا وَأَيْنَ هِيَ، وَبِإِذْنِ اللهِ تُرَدُّ إِلَيْكَ يَا صَلَاح، لَا تَبْكِ.
هَلَّلَ النَّاسُ وَقَبَّلُوا رَأْسَهُ، وَطَلَبَ مِنْ رَجَبْ عُثْمَانَ الَّذِي لَا يُفَارِقُ الضَّرِيحَ هُوَ وَابْنُهُ عُمَر، أَنْ يُحْضِرَ وِعَاءً بِهِ مَاء، وَرَجَبٌ يَعْرِفُ بَاقِي الْقِصَّة، لِأَنَّ سَالِمًا أَطْلَعَ عُمَر عَلَى مَا سَوْفَ يَقُولُهُ حِينَ يَنْظُرُ فِي الْمَاءِ الَّذِي بِالْإِنَاءِ، بَلْ وَأَخَذَ يُرَدِّدُهُ مَرَّاتٍ وَمَرَّاتٍ عَلَى

الشَّيْخِ سَالِم حَتَّى تَيَقَّنَ أَنَّهُ حَفِظَ الْمَطْلُوب، وَأَحْضَرَ رَجَبُ الْإِنَاءَ بِالْمَاءِ، وَنَادَى سَالِمٌ عَلَى الطِّفْلِ عُمَر: تَعَالَى يَا عُمَر يَا عَائِد، تَعَالَى يَا مَبْرُوك يَا مَنْ جَاءَ مِنَ الْعَالَمِ الْآخَرِ بِفَضْلِ شَيْخِنَا مَحْرُوس الطَّايِر.

اِبْتَسَمَ النَّاسُ فِي سَعَادَةٍ لِأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ قِصَّةَ الطِّفْلِ الَّذِي مَاتَ وَعَادَ لِلْحَيَاة، وَجَاءَ عُمَر، وَقَامَ سَالِمٌ بِإِجْلَاسِهِ أَمَامَهُ وَإِنَاءُ الْمَاءِ بَيْنَهُمَا، وَبَدَأَ يُشِيرُ بِيَدَيْهِ عَلَى الْمَاءِ وَيَقْرَأُ عَلَيْهِ فِي سِرِّهِ، وَكَأَنَّهُ يُنْقِلُ مَا يَقْرَأُ بِيَدَيْهِ لِلْمَاءِ، وَالنَّاسُ فِي تَرَقُّبٍ وَقَدْ وَقَفَتْ أَنْفَاسُهَا.

وَتَكَلَّمَ سَالِم: شَايِفْ إِيهْ يَا عُمَر؟ قُولْ، مَاتِخَافْشْ.

بَدَأَ يَتَكَلَّمُ بِتَلَعْثُمٍ وَكَأَنَّهُ يُحَاوِلُ تَجْمِيعَ صُوَرٍ مِمَّا يَرَى، يُنَقِّذُ التَّمْثِيلِيَّةَ كَمَا حَفِظَهَا وَيُتْقِنُ دَوْرَهُ أَيَّمَا إِتْقَان. شَايِفْ.. شَايِفْ.. جَامُوسَةً يَسْحَبُهَا رَجُلٌ، وَخَلْفَهَا رَجُل.

صَاحَ النَّاسُ: اللهُ أَكْبَر.

سَالِم: رَاحَتْ فِينْ الْجَامُوسَة وَمِينِ اللِّي سَاحِبْهَا؟.

عُمَر: دِي.. دِي.. دِي..

سَالِم: قُولْ دِي إِيه؟.

وَالنَّاسُ تُهَلِّل: اللهُ أَكْبَر، اللهُ أَكْبَر، قُولْ يَا مَبْرُوك.

عُمَر: دِي عِزْبَةُ الْهَجِينَة.

فَصَاحَ الْجَمِيعُ وَهَلَّلُوا: بِيْقَى عَنْتَرْ أَبُو هِلَال.

فَقَالَ عُمَر: آه.. آه، الْجَامُوسَةُ عِنْدُه.

فَقَامَ الْجَمِيعُ لِلذَّهَابِ إِلَى قَرْيَةِ الْهَجِينَةِ وَرَدِّ الْجَامُوسَة؛ فَقَالَ لَهُمْ سَالِم: مِشْ بِالْخِنَاق، مُمْكِنْ يُنْكِر، وَيَقُولْ إِنَّكُمْ بِتِهْجِمُوا عَلِيه، وَأَهْلِ الْهَجِينَة يِقِفُوا مَعَاه ضِدِّكُمْ. مُمْكِنْ يُخَفِّيها.

فَرَدَّ الْجَمِيعُ: وَالْعَمَل؟.

نَظَرَ سَالِمٌ لِعُمَر لِيُكْمِلَ الْقِصَّة، فَقَالَ لَهُ: شَايِفْ إِيه يَا عُمَر؟.

قَالَ: شَايِفْ اِتْنِينْ جُنَيْه.

فَرَدَّ سَالِمٌ: اللهُ أَكْبَر، بِيْقَى عَنْتَرْ عَاوِزْ حَلَاوَةْ إِعَادَةِ الْجَامُوسَة اِتْنِينْ جُنَيْه.

فَرَدَّ صَلَاح حَمْدَان: مِنِينْ؟ إِحْنَا كُلِّنَا كِدَه مَعْنَاشِ الْمَبْلَغ دَه. أَكْبَرْ وَاحِدْ مَالِي الآن عُمْرُه ما يبقى فِي جَيْبُه عَشْرَة قُرُوش.

اِبْتَسَمَ سَالِمٌ وَمَدَّ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ وَأَخْرَجَ الْجُنَيْهَيْنِ، وَأَعْطَاهُمَا لِصَلَاح حَمْدَان وَقَالَ: دُولْ هَدِيَّةٌ مِنِّي وَمِنَ الشَّيْخِ مَحْرُوس الطَّايِر، بَسْ تَاخُدْ مَعَاكْ نَاسْ كْتِير، وَكُلِّهُمْ يِقَفُّوا بَعِيدْ عَنْ بَيْتْ عَنْتَر حَتَّى لَا يَخَافَ وَيُخَفِّي الْجَامُوسَة، وَتُهَلِّلُوا لِلشَّيْخِ مَحْرُوس.

وَرَدَّ مُحَمَّد الشَّايِب: وَتُهَلِّلُوا لِلشَّيْخِ الْقُطْبِ سَالِم الشَّايِب.

هَلَّلَ الْجَمِيعُ وَانْطَلَقُوا إِلَى قَرْيَةِ الْهَجِينَة.

***

كُلُّ ما قاله سالمٌ حدث بالكلمةِ والحرف، وعاد الموكبُ، موكبُ الجاموسةِ، يُهلِّلون باسمِ الشيخِ القُطبِ العلَّامةِ سالم الشايب، الذي أعطى صلاحَ حمدان جنيهيْن لفكِّ أسرِ الجاموسة، والغريبُ أنَّ أبو هلال طلبَ نفسَ الرقمِ بالضبط، إنَّ الشايبَ مُعجزةٌ ويعرفُ الغيب، ثمَّ مَن يُعطي أحدًا هذا المبلغَ بلا مُقابل؟ يُعطيه لله، إنَّه رجلٌ مُبارك، ومن هذا اليوم أصبحَ لسالم شأنٌ آخر، والجميعُ يقصده في كلِّ شيء، وأخذ نجمُه يعلو ويعلو، في ظلِّ انشغالِ صالحٍ بالبحثِ عن الأولاد. فكان هذا الحدثُ، وانشغالُ صالحٍ والعمدة، بالنسبةِ لسالمَ خيرًا، وكما يقول المثل: "مصائبُ قومٍ عندَ قومٍ فوائد".

(٢٩)

خَرَجَ صالِحٌ مِنَ البَيْتِ بَعْدَ جَلْسَتِهِ مَعَ الجانّ، وَكَأَنَّهُ خارِجٌ مِنْ قَبْرٍ، وَجْهُهُ شاحِبٌ مُغَلَّفٌ بِالاصْفِرارِ، كَأَنَّهُ مَيّتٌ، مَنْ يَراهُ يَقولُ إِنَّهُ خارِجٌ مِنَ القَبْرِ، جُثَّةٌ آتِيَةٌ مِنَ العالَمِ الآخَرِ، يَجُرُّ قَدَمَيْهِ جَرًّا، يَبْحَثُ عَنِ الهَواءِ النَّقِيِّ، بَعْدَما اسْتَنْشَقَ هَواءً أَقْرَبَ ما يُقالُ إِنَّهُ كانَ في مَكَبٍّ لِلْقُمامَةِ.

خَرَجَ إِلى جَلْسَتِهِ الَّتي أَحَبَّها وَأَحَبَّتْهُ، إِلى جَلْسَةِ الجُمَيْزَةِ. وَما إِنْ وَصَلَ حَتَّى أَلْقَى بِجَسَدِهِ عَلَى الأَرْضِ جُثَّةً هامِدَةً بَعْدَ عَناءٍ كَبيرٍ، وَكَأَنَّ جَسَدَهُ قَدْ ضُرِبَ ضَرْبًا مُبَرِّحًا؛ فَكُلُّ جُزْءٍ مِنْهُ مُنْفَصِلٌ عَنِ الآخَرِ.

أَقْبَلَ العُمْدَةُ عَلَى صالِحٍ بِخِفَّةٍ، وَنَظَرَ إِلى وَجْهِهِ الشّاحِبِ وَعَيْنَيْهِ الغائِرَتَيْنِ في وَجْهِهِ، أَيْقَنَ العُمْدَةُ أَنَّ اللِّقاءَ كانَ شاقًّا وَرَهِيبًا، فَنَظَرَ إِلى صالِحٍ لِيَسْتَطْلِعَ الأَمْرَ، وَقالَ لَهُ: ما أَخْبارُ اللِّقاءِ؟.

رَدَّ صالِحٌ: زِفْتٌ، أَسْوَأُ مِمَّا تَتَخَيَّلُ. إِنَّهُ يَطْلُبُ مِنّي الكُفْرَ مُقابِلَ المُساعَدَةِ.

طَلَبَ العُمْدَةُ مِنْ شُعْلانَ أَنْ يَعْمَلَ كُوبَ ماءٍ بِالسُّكَّرِ، وَأَنْ يُكْثِرَ مِنَ السُّكَّرِ كَالجُلُوكُوزِ، لِإِنْقاذِ صالِحٍ الَّذي يَحْتَضِرُ لِيَسْتَطِيعَ أَنْ يَتَكَلَّمَ

وَيَرْوِيَ ما حَدَثَ؛ فَقَدْ تَحَوَّلَ إلى جُثَّةٍ ناطِقَةٍ شِبْهَ آدَمِيٍّ، وَلا يَقْوَى حَتَّى عَلَى فَتْحِ عَيْنَيْهِ.

تَحامَلَ صالِحٌ عَلَى نَفْسِهِ بَعْدَما شَرِبَ كُوبَ الماءِ بِالسُّكَّرِ، بَلْ أَحْضَرَ لَهُ مُحَيْسِنٌ عَسَلَ نَحْلٍ لِيَشْرَبَهُ، وَقَصَّ صالِحٌ عَلَى العُمْدَةِ كُلَّ شَيْءٍ حَدَثَ لَهُ فِي اللِّقاءِ، مِنْ أَوَّلِهِ إلى آخِرِهِ، بِكُلِّ تَفاصِيلِهِ، وَلَمْ يُخْفِ عَنْهُ أَيَّ شَيْءٍ لِيَعيشَ مَعَهُ المَوْضوعَ.

***

جَلَسَ صالِحٌ وَإِبْراهِيمُ بَعْدَ أَنْ قَصَّ عَلَيْهِ ما حَدَثَ صامِتَيْنِ، وَكَأَنَّ الطَّيْرَ عَلَى رَأْسَيْهِما، وَمُحَيْسِنٌ وَشُعْلانُ يَصْنَعانِ الشَّايَ وَالقَهْوَةَ.

فَقالَ صالِحٌ: وَما العَمَلُ يا عُمْدَةُ؟.

قالَ العُمْدَةُ: لَقَدْ عُدْنا إلى المُرَبَّعِ صِفْرٍ، وَعَلَيْنا أَنْ نَبْدَأَ مِنْ جَديدٍ.

قالَ صالِحٌ: وَماذا عَلَيْنا أَنْ نَفْعَلَ؟.

قالَ العُمْدَةُ: تُحَضِّرُ جانًّا آخَرَ؛ فَلا أَحَدَ يُساعِدُنا سِوَى الجانِّ. لا يُوجَدُ بَشَرٌ يَسْتَطيعُ الذَّهابَ إلى العالَمِ السُّفْلِيِّ سِوَى الجانِّ، فَهُمْ ساكِنُوهُ.

بَدَأَ صالِحٌ يَتَحَدَّثُ وَيَشْرَحُ وَجْهَةَ نَظَرٍ جَديدَةً، وَقالَ: إِنَّ هَذا الجانَّ العِمْلاقَ القَذِرَ "دَرْدِيائِيل" قالَ إِنَّ كَاليسا تَسْتَطيعُ

المُساعَدَةَ؛ لِأَنَّها جانٌّ طَيِّبَةٌ، وَلَيْسَ أَمامَنا غَيْرُها أَنْ تَعودَ لَنا، وَحَتَّى تَعودَ عَلَيْنا أَنْ نَبْحَثَ في كُتُبِ السِّحْرِ عَنِ الجانِّ الطَّيِّبِ، فَنَحْنُ نَبْحَثُ خَطَأً، ظَنًّا مِنَّا أَنَّ الجانَّ الشِّرِّيرَ قَوِيٌّ وَيَفْعَلُ المُعْجِزاتِ وَسَيُساعِدُنا، مِثْلَما في عالَمِنا نَبْحَثُ عَنِ البَلْطَجِيَّةِ وَالفُتُوَّاتِ، وَلَكِنْ هُناكَ خَاصِّيَّةٌ في المِغْناطيسِ يَجِبُ أَنْ نَتَعَلَّمَ مِنْها الكَثيرَ يا عُمْدَةُ: أَنَّ الأَقْطابَ المُتَشابِهَةَ تَتَنافَرُ، وَالأَقْطابَ المُخْتَلِفَةَ تَتَجاذَبُ، فَنَحْنُ نَتَعامَلُ مَعَ الشَّرِّ بِالشَّرِّ، وَنَأْتِي بِالشِّرِّيرِ لِيُخْرِجَ الشِّرِّيرَ، وَالأَشْخاصُ دائِمًا يَتَسابَقانِ عَلَى فِعْلِ الشَّرِّ لِتَزْدادَ قُوَّتُهُمْ وَنُفُوذُهُمُ الشِّرِّيرُ في عالَمِهِم، فَيَزْدادُوا دَرَجَةً وَيُرْهِبُوا الآخَرينَ. عالَمُهُمْ مِثْلُنا تَمامًا في التَّفْكيرِ.

لِذَلِكَ عَلَيْنا أَنْ نَبْحَثَ عَنْ جانٍّ طَيِّبٍ خَيِّرٍ وَنُحْضِرَهُ لِيُساعِدَنا؛ فَالْخَيْرُ إِذا وَقَفَ أَمامَ الشَّرِّ فَإِنَّ اللهَ سَيَنْصُرُ الخَيْرَ، وَنُحاوِلُ - كَما قُمْنا بِتَحْضيرِ الشَّرِّ - أَنْ نُحَضِّرَ الخَيْرَ، وَنَرَى ماذا يَحْدُثُ. وَأَبْدَى العُمْدَةُ مُوافَقَتَهُ وَإِعْجابَهُ بِالفِكْرَةِ قائِلًا: كَما قُمْنا بِالاتِّصالِ بِالجانِّ الشِّرِّيرِ نَتَّصِلُ بِالجانِّ الطَّيِّبِ، وَنَرَى، وَنَدْعُو اللهَ أَنْ يَكْتُبَ لَنا النَّجاحَ وَنَفْكَّ أَسْرَ الأَوْلادِ.

وَقامَ صالِحٌ لِيَنامَ وَقالَ: أَكادُ أَمُوتُ تَعَبًا، إِنِّي في حاجَةٍ إِلى النَّوْمِ.

(٣٠)

اِنْتَشَرَتْ حَادِثَةُ كَشْفِ سَارِقِ الْجَامُوسَةِ وَعَوْدَتِهَا لِصَاحِبِهَا صَلَاحٍ حَمْدَانَ، وَمَعْرِفَةُ السَّارِقِ عَنْتَرٍ أَبُو هِلَالٍ، وَذَاعَ صِيتُ سَالِمٍ الشَّايِبِ أَكْثَرَ مِنْ ذِي قَبْلُ كَوَلِيٍّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ، وَكَرَمُهُ فِي دَفْعِ الْحَلْوَانِ ـ كَمَا يُسَمُّونَهُ ـ مِنْ جَيْبِهِ الْخَاصِّ، لِعَدَمِ قُدْرَةِ صَلَاحٍ حَمْدَانَ صَاحِبِ الْجَامُوسَةِ عَلَى دَفْعِ الْمَبْلَغِ، وَانْتَشَرَ ذِكْرُهُ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ، وَأَصْبَحَ لَهُ مُرِيدُونَ مِثْلَ مَحْرُوسِ الطَّايِرِ وَالطِّفْلِ الْعَائِدِ مِنَ الْمَوْتِ، وَكَمَا تَأْتِي النَّاسُ لِلطَّايِرِ وَالْعَائِدِ، تَأْتِي لِلشَّايِبِ.

أَصْبَحَ قُطْبَ الْأَقْطَابِ، وَالنَّاسُ تُقَبِّلُ رَأْسَهُ وَيَدَهُ، وَتَبَرَّعَ النَّاسُ بِتَحْوِيلِ التَّعْرِيشَةِ الَّتِي أَمَامَ الضَّرِيحِ وَالْخَاصَّةِ بِصَلَاةِ الْجُمُعَةِ إِلَى مَسْجِدٍ كَبِيرٍ أَمَامَ الضَّرِيحِ وَمُلَاصِقٍ لَهُ، وَتَمَّ عَمَلُ بَابٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الضَّرِيحِ مِثْلَ جَامِعِ الْحُسَيْنِ وَالسَّيِّدَةِ زَيْنَبَ وَبَاقِي الْأَضْرِحَةِ.

أَصْبَحَتْ خَلْوَةُ الشَّايِبِ دَاخِلَ الضَّرِيحِ، وَيَقِفُ عَلَى بَابِ الضَّرِيحِ حَارِسٌ يُنَظِّمُ دُخُولَ الْمُرِيدِينَ لَهُ، أَمَّا الطِّفْلُ عُمَرُ الْعَائِدُ مِنَ الْمَوْتِ، فَيَجْلِسُ فِي الْجَامِعِ بِجِوَارِ الْمِنْبَرِ أَثْنَاءَ لِقَاءِ الْمُرِيدِينَ وَأَصْحَابِ الْحَاجَاتِ بِقُطْبِ الْأَقْطَابِ الشَّايِبِ، وَاسْتَطَاعَ الْجَانُّ الْأَعْوَرُ تَحْوِيلَ الشَّايِبِ إِلَى مُحِبٍّ لِلنِّسَاءِ، وَيُفَضِّلُ دُخُولَهُنَّ فِي الْمُقَدِّمَةِ، وَلَا تَدْخُلُ وَاحِدَةٌ حَتَّى تَخْرُجَ مَنْ بِالدَّاخِلِ. وَأَصْبَحَ عِنْدَهُ

خِبْرَةٌ، يَعْرِفُ مَاذَا تُرِيدُ الْمَرْأَةُ مِنْ نَظْرَةِ عَيْنِهَا، وَكَانَ مِنْ شُهْرَتِهِ وَكَرَامَاتِهِ الْجَامِحَةِ أَنَّهُ إِذَا ابْتَسَمَ لِامْرَأَةٍ كَانَتْ تَكَادُ تُجَنُّ، وَكَأَنَّ الدُّنْيَا هِيَ مَنْ ابْتَسَمَتْ لَهَا، فَتَرْتَمِي فِي حِضْنِهِ إِذَا أَشَارَ لَهَا بِإِصْبَعِهِ، أَمَّا الْمَرْأَةُ الْجَادَّةُ فَكَانَ يَتَحَاشَاهَا، وَكَانَتْ شَكَاوَى النِّسَاءِ مُتَشَابِهَةً: تُرِيدُ عَرِيسًا لِابْنَتِهَا، أَوْ تُرِيدُ الْخِلْفَةَ، وَهَذِهِ الْحَالَةُ كَانَتْ لَدَيْهِ وَسَائِلُ كَثِيرَةٌ لِلضَّحِكِ عَلَيْهِنَّ، فَإِذَا كَانَتِ الْمَرْأَةُ جَمِيلَةً اشْتَغَلَ عَلَيْهَا بِأَفْكَارِ الْأَعْوَرِ، وَيُوهِمُهَا أَنَّ قَرِينَهَا يُرِيدُهَا، وَهُوَ مَنْ مَنَعَ الْحَمْلَ عَنْهَا، وَالْقَرِينُ مُتَمَثِّلٌ فِيهِ وَيَسْكُنُهُ أَثْنَاءَ جُلُوسِهَا مَعَهُ، وَيُحَاوِلُ مَعَهَا فِي جَلَسَاتٍ كَثِيرَةٍ بِكُلِّ حِيَلِ الْأَعْوَرِ حَتَّى يَنَالَهَا عَلَى أَنَّهُ الْقَرِينُ، وَفِي حَالَاتٍ أُخْرَى، كَانَ يَطْلُبُ مِنْهَا سَرِقَةَ قِطْعَةِ ذَهَبٍ أَوْ مَالٍ مِنْ حَمَاتِهَا، أَوْ أُخْتِ زَوْجِهَا، أَوْ زَوْجَةِ أَخِيهِ، أَوْ جَارَتِهَا، وَتُخْفِيهَا فِي الدَّارِ وَتُطْلِعُهُ عَلَى الْمَكَانِ حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا الْجَانُّ، وَحِينَما تَأْتِي مَنْ فَقَدَتْ ذَهَبَهَا أَوْ مَالَهَا إِلَيْهِ لِتَسْتَعِيدَ مَسْرُوقَاتِهَا، يَقُومُ بِعَمَلِ "فِيلْمِ الْمَنْدَلِ" وَيُطْلِعُهَا عَلَى مَكَانِ الذَّهَبِ، وَلِذَلِكَ عُرِفَ عَنِ الشَّابِبِ أَنَّهُ يَعْرِفُ "الْمُسْتَخْبِي"، وَكَانَ الْأَعْوَرُ كُلَّ يَوْمٍ يَأْتِي بِأَفْكَارٍ جَدِيدَةٍ، أَفْكَارٍ إِبْلِيسِيَّةٍ لِفِتْنَتِهِ النَّاسُ فِي دِينِهِمْ وَتَوْصِيلِهِمْ إِلَى الْكُفْرِ وَعِبَادَةِ الْأَضْرِحَةِ وَالْمَشَايِخِ، وَهَذِهِ هِيَ مُهِمَّةُ الْأَعْوَرِ عَنْ وَالِدِهِ إِبْلِيسَ ـ لَعَنَهُ اللهُ

عَلَيْهِ، وَكَانَ رِجَالُ الشَّايِبِ يُنَفِّذُونَ أَفْكَارَهُ بِالْحَرْفِ، فَهُمْ مُؤْمِنُونَ بِهِ إِيمَانًا مُطْلَقًا، فَهُوَ الَّذِي يُعْطِيهِمْ رَاتِبَهُمْ، وَيُطْعِمُهُمْ مِنَ الْأَطْعِمَةِ الْوَارِدَةِ عَلَى الضَّرِيحِ وَلَا يَبْخَلُ عَلَيْهِمْ.

كَانَ يَأْمُرُ أَحَدَهُمْ أَنْ يَخْطَفَ طِفْلًا مِنْ أَيِّ قَرْيَةٍ بِحَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ، ثُمَّ يَذْهَبُ بِهِ إِلَى قَرْيَةٍ بَعِيدَةٍ عَنْهُمْ وَيَتْرُكُهُ هُنَاكَ، وَحِينَما يَأْتِي أَهْلُ الطِّفْلِ إِلَى الشَّيْخِ وَقُطْبِ الْأَقْطَابِ سَالِمِ الشَّايِبِ، يَقُومُ بِعَمَلِ الْفِلْمِ الْمُعْتَادِ "فَتْحِ الْمَنْدَلِ"، وَيَقُولُ اسْمَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بِهَا الطِّفْلُ، فَيُهَلِّلُ الْجَمِيعُ، وَيَذْهَبُونَ إِلَى الْقَرْيَةِ وَيُعِيدُونَ الطِّفْلَ مِنْهَا، حَيْثُ يَجِدُونَهُ فِي أَحَدِ الْبُيُوتِ الَّتِي عَثَرَتْ عَلَيْهِ، وَكَعَادَةِ الْمِصْرِيِّينَ يَعِيشُ الطِّفْلُ مَعَ أَوْلَادِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَهْلُهُ وَيَأْخُذُوهُ، وَيَزْدَادُ رَصِيدُ سَالِمٍ فِي مَعْرِفَةِ الْغَيْبِ وَ"الْمُسْتَخْبِي" وَالتَّائِهِ وَالْمَخْطُوفِ عِنْدَ النَّاسِ، وَتَكْثُرُ الْعَطَايَا، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَكْسَبَ وُدَّ وَقُلُوبَ الْأَعْيَانِ بِدَهَاءٍ وَمَكْرِ الْأَعْوَرِ لِيُقَوِّيَ شَخْصِيَّتَهُ بَيْنَ الْجَمِيعِ. فَكَانَ يَسْتَغِلُّ افْتِتَانَ النَّاسِ بِهِ وَتَلْبِيَةَ طَلَبَاتِهِ، فَكَانَتْ لَا تُرَدُّ لَهُ كَلِمَةٌ، وَطَلَبَاتُهُ أَوَامِرُ، فَأَيُّ طَلَبٍ لِلْأَعْيَانِ عِنْدَ أَيِّ شَخْصٍ آخَرَ، كَانَ بِمُجَرَّدِ أَنْ يَطْلُبَهُ سَالِمٌ الشَّايِبُ مِنْهُ، يُلَبِّيهِ لَهُ فَوْرًا. وَزَادَتْ إِيرَادَاتُ الصُّنْدُوقِ، وَأَصْبَحَ صُنْدُوقٌ لِلضَّرِيحِ وَآخَرُ لِلْجَامِعِ، وَأَصْبَحَ يَمْتَلِكُ الْآنَ خَمْسَةَ أَفْدِنَةٍ، وَالسُّيُولَةُ عِنْدَهُ أَصْبَحَتْ عَلَى مَا يُرَامُ.

اتَّجَهَ لِتَقْوِيَةِ وَضْعِهِ وَمَكَانَتِهِ، وَالْحِفَاظِ عَلَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ مَكَانَةٍ، وَحِمَايَةِ الضَّرِيحِ مِنَ الْهَدْمِ، فَلَابُدَّ لَهُ مِنْ سِلَاحٍ، وَسِلَاحُهُ هُوَ "الْعِزْوَةُ"، أَيِ الْعَائِلَةُ الْقَوِيَّةُ. فَدَفَعَهُ الْأَعْوَرُ إِلَى التَّفْكِيرِ فِي الزَّوَاجِ مِنْ أُخْتِ أَحَدِ الْأَعْيَانِ، وَقَدْ قُوبِلَ الطَّلَبُ بِالْمُوَافَقَةِ، فَهُوَ قُطْبُ الْأَقْطَابِ، وَجَلِيسُ الْكِبَارِ، وَحَبِيبُهُمْ. وَأَصْبَحَ لَهُ ظَهْرٌ وَسَنَدٌ قَوِيٌّ، بَلْ وَزَوَّجَ أَخَاهُ أَيْضًا مِنْ أُخْتِ أَحَدِ الْأَعْيَانِ مِنْ عَائِلَةٍ كَبِيرَةٍ كَذَلِكَ، وَأَصْبَحَ لَهُ عَائِلَتَانِ كَبِيرَتَانِ غَيْرَ عَائِلَتِهِ.

فَصَارَ التَّفْكِيرُ فِي هَدْمِ الضَّرِيحِ أَمْرًا صَعْبًا بَلْ فِيهِ خُطُورَةٌ، وَلَابُدَّ لِمَنْ يُحَاوِلُ هَدْمَ الضَّرِيحِ أَنْ يُفَكِّرَ وَيُرَاجِعَ نَفْسَهُ قَبْلَ الْإِقْدَامِ عَلَى هَذِهِ الْمُغَامَرَةِ، فَهُوَ صِهْرُ الْأَعْيَانِ وَجَلِيسُهُمْ وَأَعْضَاءُ الْبَرْلَمَانِ وَالْعُمَدُ. وَبِهَذَا أَصْبَحَ الضَّرِيحُ فِي أَمَانٍ، وَحَنَفِيَّةُ الْفُلُوسِ أَيْضًا شَغَّالَةٌ وَفِي أَمَانٍ كَبِيرٍ.

(٣١)

قَبْلَ الفَجْرِ سَمِعَ صَالِحٌ طَرَقَاتٍ عَلَى بَابِ غُرْفَةِ نَوْمِهِ، اِسْتَيْقَظَ مُسْرِعًا يَغْمُرُهُ السُّرُورُ، إِنَّهُ يَعْرِفُ تِلْكَ الطَّرَقَاتِ النَّاعِمَةَ، إِنَّهَا طَرَقَاتُ كَالِيسَان نَعَمْ، هِيَ كَالِيسَا، هَبَّ وَاقِفًا، وَقَفَزَ إِلَى مُنْتَصَفِ الغُرْفَةِ.

سَأَلَ نَفْسَهُ: لِمَ كُلُّ هَذِهِ الفَرْحَةِ؟ وَمَا كُلُّ هَذِهِ الهِمَّةِ وَهَذِهِ القَفْزَةِ؟ وَمَرَّ عَلَى عَقْلِهِ شَرِيطُ أَحْدَاثٍ فِي جُزْءٍ مِنَ الثَّانِيَةِ.

قَالَ فِي نَفْسِهِ: «لَقَدْ رَفَضْتُ زَوَاجَهَا يَا صَالِحُ، بَلْ وَطَلَبْتَ مِنَ العُمْدَةِ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا هُوَ، إِنْ رَأَى فِي زَوَاجِهَا شِفَاءً لِلأَطْفَالِ؛ لِمَاذَا كُلُّ هَذِهِ البَهْجَةِ الآنَ؟ أَهِيَ مِنْ أَجْلِ الأَوْلَادِ؟ أَمْ لأَنَّهَا سَتُسَاعِدُهُمْ فِي عَوْدَتِهِمْ؟ أَمْ لِأَنَّكَ تُحِبُّهَا وَتُحِبُّ أَنْ تَتَمَتَّعَ بِهَا وَبِأَشْكَالِهَا المُتَعَدِّدَةِ، وَأَهَمُّهَا وَهِيَ فِي صُورَةِ زَيْنَبْ؟» قَطَعَ الشَّرِيطَ مُعَاوَدَةُ الطَّرَقَاتِ.

صَاحَ صَالِحٌ: أُدْخُلِي.

دَخَلَتْ كَالِيسَا، فَوَجَدَهَا أَمَامَهُ دُونَ أَنْ يَفْتَحَ البَابَ. فَوْرَ رَدِّهِ، قَالَ مُبْتَسِمًا: دَخَلْتِ وَالبَابُ مُقْفَلٌ، إذن طرقت لِمَاذَا؟

فَأَجَابَتْ: اِسْتَأْذَنْتُ يَا صَالِحُ.

فَقَالَ: أَخِيرًا يَا كَالِيسَا جِئْتِ. أَنَا طَلَبْتُكِ كَثِيرًا.

فَرَدَّتْ بِحِدَّةٍ: أَنَا ما جَاءَتْ مِنْ أَجْلِكَ، بَلْ جِئْتُ مِنْ أَجْلِ الأَوْلَادِ حِينَ عَلِمْتُ بِخَطْفِهِمَا.

وَدَارَ بَيْنَهُمَا حِوَارٌ طَوِيلٌ؛ أَجَابَتْهُ فِيهِ عَنْ سَبَبِ عَدَمِ قُدُومِهَا إِلَيْهِ حِينَ نَادَاهَا كَثِيرًا بِالعِبَارَةِ المُخَصَّصَةِ لِذَلِكَ، وَأَنَّ هَذَا بِسَبَبِ إِفْشَائِهِ سِرَّ حُبِّهَا، وَطَلَبِهَا الزَّوَاجَ مِنْهُ لِصَدِيقِهِ العُمْدَةِ، وَأَنَّهُ أَهَانَهَا حِينَ عَرَضَ عَلَيْهِ الزَّوَاجَ مِنْهَا لِشِفَاءِ الأَطْفَالِ، وَأَعْطَاهُ كَلِمَاتِ اسْتِدْعَائِهَا، بَلْ وَكْتَبَ الجُمْلَةَ فِي وَرَقَةٍ حَتَّى لَا يُرَدِّدَهَا بِلِسَانِهِ خَوْفًا أَنْ تَحْضُرَ لَهُ هِيَ. ثُمَّ سألته: رأيت مَدَى الإِهَانَةِ الَّتِي رَمَيْتَنِي بِهَا؟.

فَأُسْقِطَ فِي يَدِهِ، وَلَمْ يَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ، أَحَسَّ أَنَّهُ صَغِيرٌ أَمَامَهَا. وَزَادَتْهُ هَانَةً حِينَ عَلِمَتْ بِمَا دَارَ مَعَ المَلِكِ شَمْهُورَشْ، وَخَطْفِ الأَوْلَادِ، وَمَا سَيَفْعَلُهُ الأَعْوَرُ بِسَالِمِ الشَّابِبِ فِي فِتْنَةِ النَّاسِ، وَالجَدِيدُ الَّذِي عِنْدَهَا، وَهُوَ مَا أَتَى بِهَا، قَالَتْ كَالِيسَا: «إِنَّ شَمْهُورَشْ سَيُسَاعِدُنَا فِي عَوْدَةِ الأَطْفَالِ؛ لِأَنَّ وَادِيَ المَوْتِ مَنِيعٌ، وَمَهْمَا كُنَّا نَحْلُمُ، فَالحَقِيقَةُ أَفْظَعُ وَأَبْشَعُ، فَاقْتِحَامُ وَادِي المَوْتِ مُحَصِّلَتُهُ المَوْتُ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ بِوَادِي المَوْتِ، وَلِذَلِكَ جِئْتُ لِأُسَاعِدَكَ، رَغْمَ أَنَّكَ بِعْتَنِي بِسُهُولَةٍ.

وَقَالَتْ أَيْضًا: «إِنَّ المَلِكَ شَمْهُورَشْ وَعَدَنِي بِالمُسَاعَدَةِ، وَعِنْدَهُ مِنَ الأَسْرَارِ عَنْ وَادِي المَوْتِ الكَثِيرُ، وَقَدْ أَطْلَعَنِي عَلَى الأَسْلِحَةِ الَّتِي سَنَسْتَخْدِمُهَا، وَعِنْدَمَا عَلِمَ وَالِدِي بِمَا فَعَلَهُ سَلْهُوبْ وَهَيْثَمُورْ، كَانَ رَدُّهُ: إِنَّ هَذَا لَيْسَ بِغَرِيبٍ عَلَى أَهْلِ الشَّرِّ؛ فَهُمْ مُؤَلِّفُو كِتَابِ الشَّرِّ (شَمْسِ المَعَارِفِ)، وَقَدْ أَطْلَعَنِي أَيْضًا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الأَسْرَارِ لِتَخْلِيصِ الأَوْلَادِ، وَلَقَدْ حَضَرْتُ لَكَ مِنْ أَجْلِ الأَوْلَادِ فَقَطْ؛ فَخَطْفُ الأَوْلَادِ وَإِرْسَالُهُمْ إِلَى وَادِي المَوْتِ أَمْرٌ خَطِيرٌ لِلْغَايَةِ، وَلِذَلِكَ أَتَيْتُكَ؛ لِأَنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ إِعَادَتَهُمَا، حَتَّى الجَانُّ الَّذِي يَطْلُبُ مِنْكَ السُّجُودَ لَهُ، ذَلِكَ الجَانُّ دَرْدِيَائِيلْ، قَدْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعِيدَهُمَا لَكَ، إِنَّمَا يَجْعَلُكَ تَسْجُدُ لَهُ ثُمَّ يَخْتَفِي، وَإِنْ فَعَلَهَا وَأَحْضَرَهُمَا، فَقَدْ حَوَّلَكَ إِلَى كَافِرٍ، جِئْتُ لِإِنْقَاذِ الأَوْلَادِ مِنْ مَصِيرٍ لَا يَعْلَمُهُ بَنُو البَشَرِ.».

نَظَرَ إِلَيْهَا صَالِحٌ نَظْرَةَ اعْتِرَافٍ بِالخَطَأِ، وَقَالَ فِي شِبْهِ تَوَدُّدٍ: بِصَرَاحَةٍ أَنَا أَخْطَأْتُ، وَلَكِنْ هَذَا لَا يَعْنِي أَنِّي أَكْرَهُكِ، لَا وَاللَّهِ، فَأَنَا أَحْسَسْتُ بِفَقْدِكِ، وَأَنَّهُ يَنْقُصُنِي شَيْءٌ كَبِيرٌ، وَأَنَا بِجَدٍّ أَحْبَبْتُكِ.

أَنَا فَقَطْ كُنْتُ أَقُولُ: الزَّوَاجُ حَرَامٌ، وَلَكِنَّ السُّجُودَ لِجَانٍّ مِنْ أَجْلِ عَوْدَةِ الطِّفْلَيْنِ كُفْرٌ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّ الحَرَامَ أَقَلُّ وَطْأَةً مِنَ الكُفْرِ -

أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهُ -، فَأَنَا مَا زِلْتُ تَحْتَ مَظَلَّةِ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا مُسْتَعِدٌّ لِلزَّوَاجِ الآنَ.

فَابْتَسَمَتْ كَالِيسَا وَقَالَتْ لَهُ: أَصْلًا يَا صَالِحُ لَنْ تَسْتَطِيعَ الذَّهَابَ مَعِي إِلَى عَالَمِنَا لِفَكِّ أَسْرِ الأَوْلَادِ دُونَ أَنْ تَكُونَ زَوْجِي، فَبِدُونِ زَوَاجٍ لَنْ تَعْبُرَ هَذَا الحَاجِزَ سَتَحْتَرِقُ، الزَّوَاجُ مِثْلُ البَاسْبُورِ الَّذِي تَسْتَخْدِمُونَهُ فِي السَّفَرِ.

فَقَالَ صَالِحٌ: إِذَنْ نَتَزَوَّجْ وَنُسَافِرْ إِلَى عَالَمِكُمْ.

فَأَجَابَتْهُ: سَأُوَافِقُ عَلَى الزَّوَاجِ مِنْ أَجْلِ إِنْقَاذِ الأَوْلَادِ فَقَطْ، وَهَذَا مَا جَعَلَنِي آتِي إِلَيْكَ.

فَقَالَ لَهَا: لَابُدَّ أَنْ تَعْلَمِي أَنِّي أَحْبَبْتُكِ.

قَالَتْ كَالِيسَا: أَعْلَمُ، فَأَنَا أَقْرَأُ أَفْكَارَكَ، وَهَذِهِ قُدْرَةٌ مِنْ قُدُرَاتِ الجَانِّ.

فَقَالَ: إِذَنْ نَبْدَأْ.

فَبَدَأَتْ تُحَدِّثُهُ بِمَا لَدَيْهَا مِنْ مَعْلُومَاتٍ أَخَذَتْهَا مِنَ المَلِكِ شَمْهُورَشْ وَالمَلِكِ شَاهِينْدَارْ - وَالِدِهَا - لِإِنْقَاذِ الأَوْلَادِ مِنْ هَذَا الوَادِي السَّحِيقِ. وَقَالَتْ: إِنَّ الأَوْلَادَ فِي قَصْرٍ مَنِيعٍ بِمَرْكَزِ وَادِي المَوْتِ، وَلِدُخُولِ القَصْرِ لَابُدَّ مِنْ عُبُورِ سَبْعَةِ بَوَّابَاتٍ؛ كُلُّ بَوَّابَةٍ عِبَارَةٌ عَنْ وَادٍ مُنْفَصِلٍ، وَمَانِعٍ حَصِينٍ، بَعْضُهَا بَحَارٌ، وَأُخْرَى رِمَالٌ

مُتَحَرِّكَةٌ، وَأَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ، وَسَوْفَ يُحَدِّثُنَا وَيُرْشِدُنَا عَنْ كَيْفِيَّةِ عُبُورِهَا وَالِدِي وَالمَلِكُ شَمْهُورَشْ، وَأَهَمُّ شَيْءٍ أَنَّ التَّعَامُلَ مَعَ حُرَّاسِ هَذِهِ البَوَّابَاتِ - وَهُمْ جَانٌّ عِمْلَاقٌ شَرِيرٌ - سَيَكُونُ بِتَقْدِيمِ الزِّنْبَقِ الأَحْمَرِ لَهُمْ كَهَدِيَّةٍ لِتَسْهِيلِ العُبُورِ، وَالحُصُولِ عَلَى مَا يَلْزَمُنَا مِنْ أَدَوَاتٍ وَخَيْلٍ مَسْحُورَةٍ، كُلُّ هَذَا سَوْفَ يُسَهِّلُهُ الزِّنْبَقُ الأَحْمَرُ، وَهَذَا الزِّنْبَقُ الأَحْمَرُ بِالنِّسْبَةِ لِلْجَانِّ أَمَلٌ بَعِيدُ المَنَالِ، وَمِنْ أَجْلِهِ يَصْنَعُونَ مَا يُطْلَبُ مِنْهُمْ، لِدَرَجَةِ أَنَّهُ قَدْ يَقْتُلُ ابْنَهُ مِنْ أَجْلِهِ، فَهُوَ يَزِيدُ الأَعْمَارَ وَيُعِيدُ الشَّبَابَ لِلْجَانِّ، إِنَّهُ إِدْمَانُ المُسْتَحِيلِ، مِثْلَ قَوْلِكُمْ أَنْتُمْ بَنِي البَشَرِ: "هَذَا لَبَنُ العُصْفُورِ".

وَهَذَا الزِّنْبَقُ الأَحْمَرُ مَوْجُودٌ فِي عَالَمِكُمْ - بَنِي البَشَرِ - وَهُنَا فِي مِصْرَ بِلَادِكُمْ، فِي مَقَابِرِ مُلُوكِ قُدَمَاءِ المِصْرِيِّينَ، وَأَنَا أَعْرِفُ مَقْبَرَةً بِهَا كَمِّيَّةٌ تُصْنَعُ حَوَالَيْ عَشَرَةِ سَنْتِيمِتْرَاتٍ، أَيْ عَشْرُ عُبُوَاتٍ، كُلُّ عُبُوَّةٍ وَاحِدُ سَنْتِيمِتْرٍ، وَهَذِهِ المَقْبَرَةُ فِي صَعِيدِ مِصْرَ، وَعَلَيْنَا الذَّهَابُ لِإِحْضَارِهَا الآنَ.

فَكَانَ رَدُّهُ: لِمَاذَا لَمْ تَحْضُرِيهِ أَنْتِ؟ فَأَنْتِ تَدْخُلِينَ الأَمَاكِنَ المُغْلَقَةَ دُونَ أَنْ يَرَاكِ أَحَدٌ، وَمِنَ السَّهْلِ الحُصُولُ عَلَيْهِ بِلَا عَنَاءٍ أَوْ أَيِّ مَجْهُودٍ.

فَشَرَحَتْ لَهُ: إِنَّهُ إِذَا أَحْضَرْتُهُ بِيَدِي أَنَا، أَوْ بِيَدِ أَيِّ جَانٍّ، فَسَيَفْقِدُ الزِّئْبَقُ خَوَاصَّهُ؛ لِأَنَّهُ سَيَكُونُ مَسْرُوقًا. أَمَّا إِذَا أَخَذَهُ إِنْسِيٌّ وَأَعْطَانِي إِيَّاهُ أَوْ أَعْطَاهُ لِلْجَانِّ، فَسَيَكُونُ هَدِيَّةً مِنَ الإِنْسَانِ لِلْجَانِّ.

فَعَلَيْهِمَا أَنْ يَذْهَبَا لِإِحْضَارِ الزِّئْبَقِ الأَحْمَرِ، وَعِنْدَمَا يَعُودَانِ يَتِمُّ الزَّوَاجُ.

فَوَافَقَ صَالِحٌ، وَطَلَبَ أَنْ يُوَدِّعَ صَدِيقَهُ وَيُبَشِّرَهُ بِعَوْدَتِهَا، فَهَذَا سَوْفَ يُسْعِدُهُ، فَابْتَسَمَتْ كَالِيسَا مُوَافِقَةً، وَخَرَجَ مِنْ فَوْرِهِ لِوَدَاعِ العُمْدَةِ.

***

جَاءَ أَذَانُ الفَجْرِ لِيَقْطَعَ سُكُونَ القَرْيَةِ، وَيَرْقُصَ قَلْبُ صَالِحٍ فَرَحًا بِفَجْرٍ جَدِيدٍ فِي حَيَاتِهِ، مَلِيءٍ بِالحُبِّ الَّذِي غَمَرَهُ وَقُرْبِ عَوْدَةِ الأَوْلَادِ.

جَاءَ الأَذَانُ مَعَ خُرُوجِ صَالِحٍ مِنَ البَيْتِ بَعْدَ لِقَاءِ كَالِيسَا، وَقَدْ تَوَاعَدَا عَلَى الرَّحِيلِ غَدًا بَعْدَ العَصْرِ لِإِحْضَارِ الزِّئْبَقِ الأَحْمَرِ مِنْ مَقْبَرَةِ الصَّعِيدِ، وَخَرَجَ العُمْدَةُ فِي نَفْسِ الوَقْتِ مَعَ أَذَانِ الفَجْرِ لِلصَّلَاةِ، وَكَأَنَّهُمَا عَلَى مِيعَادٍ، فَرَأَى العُمْدَةُ اخْتِلَافَ تَعَابِيرِ وَجْهِ

صَالِحٍ، وَكَمَّ السَّعَادَةِ الَّتِي تُضِيءُ وَجْهَهُ، فَتَصَافَحَا، وَسَأَلَهُ العُمْدَةُ: شَكْلُكَ فِي جَدِيدٍ.

فَأَجَابَ صَالِحٌ: نَعَمْ، كَالِيسَا جَاءَتْ، وَسَوْفَ نَبْدَأُ مِنْ غَدٍ.

فَقَالَ العُمْدَةُ: خَيْرًا يَا صَالِحُ.

فَرَدَّ صَالِحٌ: الصَّلَاةُ أَوَّلًا، ثُمَّ أَقُصُّ عَلَيْكَ.

***

قَصَّ صَالِحٌ عَلَى صَدِيقِهِ كُلَّ مَا حَدَثَ بَعْدَ أَنْ أَنْهَيَا صَلَاةَ الفَجْرِ فِي مَجْلِسِهِمَا الدَّائِمِ، وَقَدْ أَحْضَرَ لَهُمَا مُحَيْسِنٌ الفُطُورَ الرِّيفِيَّ الجَمِيلَ، فَالأَخْبَارُ قَدْ فَتَحَتِ الشَّهِيَّةَ، وَعَادَتِ البَسْمَةُ إِلَيْهِمَا، رَغْمَ خُطُورَةِ المُغَامَرَةِ عَلَى صَالِحٍ، وَهُوَ يَعْرِفُ جَيِّدًا أَنَّ نِسْبَةَ المَوْتِ فِيهَا أَضْعَافُ نِسْبَةِ النَّجَاةِ.

إِلَّا أَنَّهُ هُنَاكَ بَابًا لِلأَمَلِ قَدْ فُتِحَ، وَسَأَلَهُ العُمْدَةُ عَنْ مُدَّةِ إِحْضَارِ الزِّنْبَقِ، فَكَانَ الرَّدُّ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ المُدَّةَ، وَلَا كَيْفِيَّةَ الذَّهَابِ، إِنَّهُ لَا يَعْرِفُ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّهُ مُسْتَعِدٌّ لِعَمَلِ أَيِّ شَيْءٍ مِنْ أَجْلِ عَوْدَةِ الأَوْلَادِ.

***

أصبح سالم الشايب صاحبَ الصِّيت الأعلى والمكانة العالية، فهو العارف بالله، وقطب الأقطاب، لدرجةٍ لم يتوقَّعها هو نفسه،

وأصبح قطب الأقطاب، جليس العُمَد والأعيان. تأتيه الناس من كلِّ مكانٍ لحلِّ مشاكلها، وعلاقته برجال السياسة ونُوّاب الناحية وغيرهم، وعلاقته بمأمور القسم، تجعلُه يحلُّ أيَّ مشكلةٍ تُقابله، ويتسابق في حلِّها ذوو المكانة.

فكلُّ ما أتى به أمام أعين الجميع يُشِلُّ العقول، ويُطوِّع الرؤوس لتنفيذ أوامره، وكان يأتي بأفكارٍ غريبةٍ على الجميع وعليه أيضًا، يستغربها بعد حدوثها، وكأن داخله شخصًا آخر غيره. بدأ يحسُّ بذلك من أفكاره الخارقة وقال في نفسه: أنا داخلي شيطان، وشيطان ماكر خبيث، فقد أتى بفكرةٍ جديدة: أن يصنعَ له بالمدينة وُكلاء، تجتمع لديهم أصحاب المشاكل والطلبات، ويذهب هو إلى كل مدينةٍ يومًا في الأسبوع، يومٌ للحسين، ووكيله هناك شيخ الطريقة الصوفية، أصبح الشايب عندهم قطبًا كبيرًا من أحياء عمر العائد، وفتح المندل، وإعادة المسروقات والتائهين والغائبين، وأشياء أخرى كثيرة، وأصبحت له زبائن جديدة خمس نجوم: أهل الفن جميعهم، ولاعبي الكرة، وأكثرهم من النساء، وذلك في وكالة الحسين، ولهم يومان أسبوعيًّا، تأتيه الفنانات لفكِّ أعمالٍ صُنعت لهنَّ من منافساتهنَّ لإيقاف حالهنَّ، وصنع أعمال مضادَّة، ومن تُريد دور

بطولة، وهؤلاء أموالهم كثيرة، فأصبح يأخذ في الجلسة الواحدة من الفنان خمسة أو عشرة جنيهات، حسب المطلوب، أما لاعبو الكرة، فحارس المرمى يطلب غلق الشبكة، واللاعب يطلب فتح الشبكة وأن يصبح هدّافًا، والدفع أيضًا غالٍ، فعرفت الفلوس الكثيرة طريق جيبه، وانتفخت جيوبه، ويومٌ لمدينة بنها، وآخر لشبرا الخيمة، للعُمَد والأعيان وأصحاب المصانع، وأصبح الشايب من الأعيان وأصحاب الأطيان، وعلا صيته مثل محروس الطائر، إن لم يكن أكثر. وكل يومٍ بفكرٍ جديد، ومكرٍ جديد، كما قال عن نفسه: أنا ثعلب داخله شيطان، أو شيطان داخله ثعلب، المهم أنّ الأطيان قد أتت.

لقد ثبَّت قدميه وصَعُب أن يهزَّه إبراهيم العمدة أو أيُّ عمدة آخر، فهو إن لم يكن أغنى، فهو أقوى، وله قاعدة عريضة، وهذا الوقت وقته، ولا عودة للوراء.

(٣٢)

جَلَسَ صَالِحٌ يَنتَظِرُ كَالِيسَا لِيَذْهَبَا إِلَى صَعِيدِ مِصْرَ لِإِحضَارِ الزِّئبَقِ الأَحمَرِ مِنَ المَقبرَةِ، وَفِي المَوعِدِ المُحَدَّدِ وَجَدَهَا أمامه مُبتَسِمَةً، وَفِي أبهَى صُورَةٍ، وَكَأَنَّهَا حُورِيَّةٌ مِنَ الجَنَّةِ، تَهَلَّلَ وَجهُهُ، وَأَحَسَّ بِسَعَادَةٍ تَغمُرُهُ، فَقَالَت لَهُ: هَل أَنتَ جَاهِزٌ الآن؟

فَكَانَ رَدُّهُ: إِنِّي فِي انتِظَارِكِ وَطَوعُ أَمرِكِ.

فَمَدَّت يَدَهَا لَهُ وَقَالَت: أَمسِك بِيَدِي وَأَغمِض عَينَيكَ، وَقُل مَعِي: بِسمِ الله.

فَأَمسَكَ بِيَدِهَا، فَأَحَسَّ بِتَنمِيلَةٍ جَمِيلَةٍ وَسَعَادَةٍ تَغمُرُهُ، وَتَسرِي فِي بَدَنِهِ كُلِّهِ مِن لَمسِهَا، وَقَالَ: بِسمِ الله.

***

فَجْأَةً وَجَدَ نَفسَهُ وَكَالِيسَا فِي صَحرَاءَ مُترَامِيَةِ الأَطرَافِ، وَأَمَامَهُ - عَلَى بُعدِ حَوَالَي كِيلُومِترٍ - مَعبَدٌ فِرعَونِيٌّ كَبِيرٌ ذُو مَهَابَةٍ، يَقِفُ شَامِخًا فِي الصَّحرَاءِ المُترَامِيَةِ الأَطرَافِ، بِأَعمِدَتِهِ العَالِيَةِ فِي عَظَمَةٍ وَكِبرِيَاءٍ، وَيَتَوَسَّطُ المَعبَدَ مَمَرٌّ طَوِيلٌ يُشَكِّلُهُ صَفَّانِ مِنَ الأَعمِدَةِ، يَصنَعَانِ طَرِيقًا إِلَى الدَّاخِلِ، بَدَايَتُهُ تَعتَبِرُ بَوَّابَةَ المَعبَدِ بَينَ أَوَّلِ عَمودَينِ، وَهُوَ مَكَانُ جُلُوسِ الحُرَّاسِ، وَالمَعبَدُ غَيرُ مُعَدٍّ لِلزِّيَارَاتِ بَعدُ، لِأَنَّهُ تَحتَ الاكتِشَافِ وَالتَّجهِيزِ، فَتَمَّ حِمَايَتُهُ بِعَدَدٍ لَا

بَأسَ بِهِ مِنَ الحُرَّاسِ، وَتَمَّ تَوصِيلُ الكَهرَبَاءِ إِلَيهِ لِحِمَايَتِهِ مِنَ اللُّصُوصِ، وَكَذَلِكَ لِيَستَطِيعُوا البَحثَ فِي الغُرَفِ المُظلِمَةِ وَاكتِشَافَ مَا بِهَا مِن آثَارٍ، وَبَعدَ ذَلِكَ يُوضَعُ فِي خُطَّةِ السِّيَاحَةِ ضِمنَ المَعَابِدِ الَّتِي يَذهَبُ إِلَيهَا السُّيَّاحُ.

طَلَبَ صَالِحٌ مِن كَالِيسَا أَن يَقتَرِبَا مِنَ المَعبَدِ لِيُشَاهِدَهُ عَن قُربٍ وَحَتَّى يَرَاهُ جَيِّدًا، أَمَّا كَالِيسَا، فَصَالِحٌ مُتَأَكِّدٌ أَنَّهَا وَهِيَ بِجَانِبِهِ تَستَطِيعُ أَن تَرَى مَا بِدَاخِلِ المَعبَدِ وَمَا فِي الحُجُرَاتِ المُغلَقَةِ، بَل وَهِيَ فِي غُرفَتِهِ بِالقَريَةِ أَو فِي عَالَمِهَا تَستَطِيعُ أَن تَعرِفَ كُلَّ التَّفَاصِيلِ، وَلَيسَ مِن هُنَا فَقَط.

اِقتَرَبَا مِنَ المَعبَدِ حَتَّى صَارَا عَلَى مَرمَى البَصَرِ، فَوَجَدَا أَكثَرَ مِن سِتَّةِ حُرَّاسٍ يَجلِسُونَ بِمَدخلِ المَعبَدِ بَينَ عَمودَيِ المُقَدِّمَةِ، فَسَأَلَ صَالِحٌ كَالِيسَا: لِمَ لَا نَدخلُ مَعًا بِالنَّفسِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي جِئنَا بِهَا إِلَى هُنَا، وَتَخترِقِي الجُدرَانَ كَعَادَتِكِ، وَنَأخُذُ القَارُورَةَ فَتَنتَهِيَ المُهِمَّةُ وَنَرحَلَ؟.

فَقَالَت كَالِيسَا: لَا يَنفَعُ، لَابُدَّ أَن تَأخُذَ أَنتَ القَارُورَةَ بِيَدِكَ وَتُقَدِّمَهَا لِلجَانِ بِيَدِكَ، بِلَا وَسِيطٍ جِنِّيٍّ. فَلَو أَخَذتُهَا أَنَا كَجِنِّيَّةٍ وَقَدَّمْتُهَا لِلجَانِ لَن تَعمَلَ.

فَقَالَ صَالِحٌ: أَحضِرِيهَا وَأَنَا أُقَدِّمُهَا.

فَضَحِكَت كَالِيسَا وَقَالَت: لَا يَجِبُ أَن أَلمَسَهَا قَبلَكَ، فَستَفسُدَ وَسَيَعرِفُ الجِنّيُّ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ سَيَتَغَيَّرُ دَرَجَةُ لَونِ الزِّئبَقِ، غَيرَ أَنَّهَا لَن تَنفَعَ، وَسَيَكُونُ الرَّدُّ قَاسِيًا مِنَ الجَانِ، فَهُوَ نَفسُهُ يَعرِفُ مَكَانَ الزِّئبَقِ، وَلَكِن لَابُدَّ أَن يَأخُذَهُ مِن بَشَرٍ؛ لِأَنَّهُ فِي عَالَمِ البَشَرِ، بَل وَإِذَا أَخَذَهُ مِنكَ وَأَعطَاهُ لِجِنٍّ آخَرَ لَن تَعمَلَ. يَعنِي لَا تَصلُحُ إِلَّا مِن بَشَرٍ لِجَانٍ.

فَقَالَ صَالِحٌ: وَمَتَى يَعرِفُ الجَانُّ نَفعَهَا مِن عَدمِهِ؟.

فَقَالَت كَالِيسَا ضَاحِكَةً: فِي حِينِهَا، فَورَ تَنَاوُلِهَا؛ إِنَّهُ سَيَتَنَاوَلُهَا أَوَّلَ مَا يَأخُذُهَا مِنكَ، فَالجَانُّ لَا يَنتَظِرُ عَلَى الزِّئبَقِ الأَحمَرِ.

قَالَ صَالِحٌ: لِمَاذَا لَا يَنتَظِرُ؟

فَأَجَابَت كَالِيسَا: لِأَنَّهُ قَد يَكُونُ مَوتُهُ بَعدَ ثَانِيَةٍ، لِذَلِكَ يَتَنَاوَلُهُ فِي الحَالِ، وَهُوَ أَيضًا يَحلُمُ بِهَذَا الزِّئبَقِ، فَأَوَّلُ مَا يَجِدُهُ لَا يَنتَظِرُ عَلَيهِ.

فَقَالَ صَالِحٌ: إِذًا نَدخلُ بِطَرِيقَتِكِ، وَآخُذُ أَنَا القَارُورَةَ بِيَدِي.

فَقَالَت: قَد يَتَسَبَّبُ هَذَا فِي مَوتِكَ؛ لَابُدَّ مِن فَتحِ الغُرفَةِ لِلتَّهْوِيَةِ وَخُرُوجِ الهَوَاءِ السَّامِّ.

فَتَعَجَّبَ صَالِحٌ: هَوَاءٌ سَامٌّ؟.

فَقَالَت: نَعَم يَا صَالِحُ، فَالفَرَاعِنَةُ يَضَعُونَ مَوَادًّا سَامَّةً تَختَلِطُ بِالهَوَاءِ الَّذِي يَدخُلُ فَورَ فَتحِ بَابِ المَقبرَةِ، لِقَتلِ لُصُوصِ المَقَابِرِ.

فَطَلَبَ صَالِحٌ مِنْهَا أَنْ يَعبُرَا الحُرَّاسَ وَيَدخلَا إِلَى بَابِ الغُرفَةِ الَّتِي بِهَا القَارُورَةُ بِطَرِيقَتِهَا، حَيثُ لَا يَرَاهُمَا الحُرَّاسُ، وَبَعدَ ذَلِكَ يَدخلَانِ الغُرفَةَ. فَقَالَت لَهُ: إِنَّ هُنَاكَ حُرَّاسًا بِالدَّاخِلِ، غَيرَ حُرَّاسِ البَابِ الخَارِجِيِّ، يَطُوفُونَ بِالمَعبَدِ كُلَّ سَاعَةٍ، وَتَهوِيَةُ الغُرفَةِ تَحتَاجُ أَكثَرَ مِن سِتِّ سَاعَاتٍ، فَلَابُدَّ أَن يَخلُوَ المَعبَدُ مِن كُلِّ الحُرَّاسِ، وَسَأَقُومُ أَنَا بِذَلِكَ بِطَرِيقَتِي، وَسَتَرَى بِنَفسِكَ مَا أَفعَلُ، وَلَكِن هَذَا مَعَ دُخُولِ اللَّيلِ، سَنُقبِلُ عَلَى الحُرَّاسِ وَسَأَجعَلُهُم يَهرُولُونَ خَارِجَ المَعبَدِ، وَهُم يُطلِقُونَ أَقدَامَهُم تُسَابِقُ الرِّيحَ فَزَعًا، أَمَامَنَا أَكثَرُ مِن أَربَعِ سَاعَاتٍ فَقَالَت كَالِيسَا: سَنَنتَظِرُهُم ثُمَّ نَدخلُ المَعبَدَ، لِأَنَّ هُنَاكَ دُورِيَّاتٍ خَارِجِيَّةً تَمُرُّ عَلَى المَعبَدِ نَهَارًا، أَمَّا مَعَ حُلُولِ اللَّيلِ فَلَا تُوجَدُ دُورِيَّاتٌ، فَقَط حُرَّاسُ المَعبَدِ، وَهُم يَمُرُّونَ دَاخِلَ المَعبَدِ لِتَفَقُّدِهِ فِي جَمَاعَاتٍ مُكَوَّنَةٍ مِن ثَلَاثَةِ حُرَّاسٍ.

(ثُمَّ أَشَارَت إِلَى جَانِبِهِ وَقَالَت): أُنظُر بِجِوَارِكَ.

فَنَظَرَ، وَإِذَا بِكُوخٍ وَجَدَهُ لِتَوِّهِ، وَفِيهِ كُرسِيَّانِ وَمِيَاهٌ، وَبَرَّادُ شَايٍ مَدفُونٌ فِي رَاكِيَةٍ مُتَوَهِّجَةٍ، فَضَحِكَ صَالِحٌ سَعِيدًا، فَقَالَت لَهُ كَالِيسَا ضَاحِكَةً: تُحِبُّ أَجِيبُ لَكَ الجُمَّيزَةَ هُنَا؟.

فَضَحِكَ وَقَالَ: لَا، لَيسَ لَهَا لُزُومٌ. ثُمَّ سَأَلَهَا: وَأَنتِ يَا كَالِيسَا، أَلَا تُحِبِّينَ الزِّئبَقَ الأَحمَرَ؟.

فَرَدَّت ضَاحِكَةً: كُلُّ الجَانِّ ـ بِاختِلَافِ أَنوَاعِهِ ـ يُحِبُّهُ.

فَقَالَ: لِمَ لَا تَأخُذِين أَنتِ أَيضًا مِنهُ؟.

فَأَجَابَت: إِذَا بَقِيَ شَيءٌ مَعَنَا سَأُهدِيهِ لِوَالِدِي.

فَقَالَ: دَائِمًا تُفَكِّرِين فِي غَيرِكِ، وَأَنتِ، أَلَيسَ لَكِ نَصِيبٌ؟

فَقَالَت: كُلُّ شَيءٍ حَسَبَ تَدَابِيرِ الخَالِقِ يَا صَالِحُ، نَدعُو أَن نَجِدَ كَمِيَّةً كَبِيرَةً.

فَقَالَ: إِذَا لَم نَجِد مَا يَكفِي، نَذهَبُ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ، فَبَلَدُنَا مَلِيئَةٌ بِالمَقَابِرِ الفِرعَونِيَّةِ.

وَأَخَذَت تَشرَحُ لَهُ كَيفَ أَنَّ الجَانَّ ـ مِن أَجلِ هَذَا الزِّئبَقِ الأَحمَرِ ـ يَفعَلُ مَا يُطلَبُ مِنهُ، وَأَنَّ البَشَرَ يُحَضِّرُونَ الجَانَّ وَيَطلُبُونَ مِنهُ أَن يَدُلَّهُم عَلَى المَقَابِرِ فَيَفعَلُ. وَهَؤُلَاءِ النَّاسُ يَسُمِّيهِم البَعضُ "مَشَايِخَ"، وَيُسَمِّيهِم البَعضُ "سَحَرَةً"، وَهُم عَلَى خِبرَةٍ بِتَحضِيرِ الجَانِّ مِثلَمَا فَعَلتَ أَنتَ يَا صَالِحُ، وَلَكِنَّكَ حَضَّرْتَهُ مِن أَجلِ الخَيرِ، وَرَفَضتَ السُّجُودَ لَهُ مِن أَجلِ عَودَةِ الأَولَادِ، رَغمَ لَهوفِكُم جَمِيعًا عَلَيهِم، وَالكُلُّ يَعرِفُ مَدى غَلَاوَةِ وَحُبِّ الأَولَادِ لَدَى آبَائِهِم، وَهُنَاكَ مَن يَسجُدُ لِلجَانِ بِسُهُولَةٍ مِن أَجلِ المَالِ،

لِيَكُونَ غَنِيًّا، وَأَيضًا مِن أَجلِ القُوَّةِ، لِيَجعَلَهُ الجَانُّ قَوِيًّا وَيُنفِّذَ لَهُ كُلَّ مَا يُرِيدُ. ثُمَّ أَضَافَت: أَنتَ مُؤمِنٌ يَا صَالِحُ، وَلِذَلِكَ أَنَا وَاثِقَةٌ مِنَ النَّجَاحِ وَتَوفِيقِ اللهِ لَنَا.

فَفَرِحَ، وَقَالَ لَهَا: إِذًا أَقُومُ بِتَحضِيرِهِ مَرَّةً ثَانِيَةً، وَأُعطِيهِ الزِّئبَقَ الأَحمَرَ، فَيُحَضِّرُ لِي الأَولَادَ.

فَابتَسَمَت وَقَالَت لَهُ: لَن يَرضَى، وَسَيَرفُضُ. أَنتَ أَحضَرتَ مَلِكَ الجَانِّ الشَّرِيرِ ذَاتَهُ، وَهَذَا لَا يَرضَى إِلَّا بِالسُّجُودِ لَهُ. إِنَّ هَذَا الزِّئبَقَ سَيُفرِحُ بِهِ الجَانُّ العَادِيُّ - شِرِّيرًا كَانَ أَو خَيِّرًا -، وَسَيَفرَحُ بِهِ حُرَّاسُ البَوَّابَاتِ الَّتِي يُحتَجَزُ خَلفَهَا الأَولَادُ. وَلَكِن تَحضِيرُهُم مَعًا صَعبٌ جِدًّا؛ فَكَيفَ تُحَضِّرُ حَوَالَي خَمسَةِ حُرَّاسٍ مَعًا فِي جَلسَةٍ وَاحِدَةٍ لِيَتِمَّ الِاتِّفَاقُ عَلَى جَلبِ الأَولَادِ؟ وَكَيْفَ سَتُنَظِّمُ الِاتِّفَاقَ بَينَهُم؟ فَإِنَّ جَلسَةَ التَّحضِيرِ دَائِمًا لِجِنٍّ وَاحِدٍ، غَيرَ أَنَّهَا رَشوَةٌ يَا صَالِحُ، كَمَا تَقُولُونَ عِندَكُم.

***

أقبل الليلُ ولفَّ المعبدَ بعباءته السوداء، وأَسدلَ على الصحراءِ ستائره القاتمة، فبدت مُخيفةً وزاد من وَحشتها غيابُ القمر، فكان الوقتُ آخرَ الشهرِ العربي، فلا تستطيع أن ترى يدك.

أنار الحُرّاسُ المعبدَ، وكان عددُ اللمباتِ بالمدخل ليس بالقليل، وقد أناروها خوفًا على ما بداخله من آثارٍ هامة. أنار الحُرّاسُ كلَّ لمباتِ المعبد الداخلية والخارجية، فبدا كتحفةٍ فنيةٍ رائعةٍ وسط هذا الظلام؛ بقعةٌ مضيئةٌ وسط ليلٍ حالكِ السواد، وكلُّ عمودٍ عليه أكثرُ من لمبةٍ فأظهرتْ جمالَه بما صنعه الضوءُ من ظِلال، وظهرت الأعمدةُ عملاقةً تُعلن للكلِّ عن وجودها وشموخها عبر الزمن.

جلس الحُرّاس وأشعلوا راكيةَ الشاي، ودسّوا فيها بَرّاد الشاي كعادتهم في وَردية الليل، فقد استلموا الورديةَ منذ حوالي نصف ساعة من وردية النهار. جلس ثلاثةٌ منهم بجوار الراكية، وأحدُهم جلس يصنع الشاي ويُضبِط الراكية، والثلاثةُ الآخرون دخلوا إلى المعبد ليقوموا بجولةٍ تفقديةٍ ومتابعةٍ لحالة المعبد الأمنية.

انتظرت كاليسا حتى عاد الثلاثةُ من جولتهم الأمنية في المعبد، وجلسوا يحتسون الشاي معًا ويتسامرون. فقامت كاليسا وقالت لصالح: الآن سأبدأ، واتبعني بعد عشرةِ دقائقَ فقط، وتابعْ ما سيحدث. (وضحكت) سوف أُجَنِّنُهم!.

(٣٣)

جَلَسَ الحَرَسُ حَوْلَ رَاكِيَةِ الشَّايِ لِيَبْدَؤُوا جَلْسَةَ السَّمَرِ لِاسْتِهْلَاكِ الوَقْتِ بَعْدَ أَنْ قَامُوا بِجَوْلَةٍ تَفَقُّدِيَّةٍ دَاخِلَ المَعْبَدِ وَحَوْلَهُ. جَلَسَ أَحَدُهُمْ أَمَامَ الرَّاكِيَةِ لِصِنَاعَةِ الشَّايِ، وَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُسْرِعَ وَيَصُبَّ الشَّايَ، فَقَدْ تَمَلَّكَهُمُ الصُّدَاعُ مِنَ الجَوْلَةِ وَهُمْ بِحَاجَةٍ إِلَى الشَّايِ لِضَبْطِ رُؤُوسِهِمْ، وَإِذَا بِمَنْ يَجْلِسُ أَمَامَ الرَّاكِيَةِ يَصِيحُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ صَارِخًا فِي ذُعْرٍ: شُوفُوا الَّذِي يَحْدُثُ لِبَرَّادِ الشَّايِ! فَنَظَرَ الجَمِيعُ فِي دَهْشَةٍ، وَإِذَا بِغِطَاءِ البَرَّادِ يَرْتَفِعُ وَيَهْبِطُ مِنْ حَالِهِ بِارْتِفَاعٍ حَوَالَي نِصْفِ مِتْرٍ، دُهِشَ الجَمِيعُ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ نَظَرَ إِلَى الآخَرِ وَكَأَنَّهُ يَسْأَلُهُ أَوْ يَتَأَكَّدُ أَنَّ مَا يَرَاهُ حَقِيقَةٌ.

وَهَدَأَ البَرَّادُ بُرْهَةً، فَمَدَّ يَدَهُ الحَارِسُ لِيَأْخُذَهُ وَيَصُبَّ الشَّايَ، وَقَبْلَ أَنْ تَصِلَ يَدُهُ إِلَى البَرَّادِ بَدَأَ يَرْتَفِعُ وَيَهْبِطُ مَرَّةً ثَانِيَةً، وَهُمْ يَنْظُرُونَ فِي ذُعْرٍ.

وَإِذَا بِهِ يَرْتَفِعُ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ، وَبُخَارُ الشَّايِ يَرْفَعُ الغِطَاءَ إِلَى أَعْلَى، وَيَخْرُجُ مُتَشَكِّلًا عَلَى شَكْلِ ثُعْبَانٍ مِنْ دُخَانِ البُخَارِ؛ فَهَبَّ الحَرَسُ وُقُوفًا مِنَ الذُّعْرِ يَتَجَهَّزُونَ لِلْفِرَارِ، وَإِذَا بِالبُخَارِ يَتَحَوَّلُ إِلَى ثُعْبَانٍ حَقِيقِيٍّ وَيَكْبُرُ تَدْرِيجِيًّا، وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ مُتَسَمِّرِينَ فِي مَكَانِهِمْ مِنَ الفَزَعِ، حَتَّى أَصْبَحَ ثُعْبَانًا عِمْلَاقًا.

فَفَرُّوا مِنْ أَمَامِ الرَّاكِيَةِ وَوَقَفُوا بَعِيدًا يَسْتَطْلِعُونَ مَا يَحْدُثُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَقَدْ عَلَا وُجُوهَهُمُ الفَزَعُ، وَكُلٌّ يُحَاوِلُ الإِمْسَاكَ بِمَنْ بِجَانِبِهِ.

وَصَالِحٌ يَخْتَبِئُ خَلْفَ أَحَدِ العَمَدَانِ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُمْسِكَ نَفْسَهُ مِنَ الضَّحِكِ المَكْتُومِ حَتَّى لَا يَشْعُرُوا بِهِ وَيَنْتَبِهُوا لَهُ.

بَدَأَ الحَرَسُ يُمْسِكُونَ العِصِيَّ الَّتِي فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَنْ كَانَ يَحْمِلُ سِلَاحًا رَاحَ يُوَجِّهُ السِّلَاحَ إِلَى الثُّعْبَانِ؛ وَإِذَا بِالثُّعْبَانِ يَتَحَوَّلُ إِلَى مَارِدٍ كَبِيرٍ، وَيُطْلِقُ ضَحْكَةً عَالِيَةً يُزَلْزِلُ بِهَا المَكَانَ، فَيَنْطَلِقُ الحَرَسُ فِرَارًا، مُطْلِقِينَ سُيُقَهانُمْ لِلرِّيحِ، مُهَرْوِلِينَ بِسُرْعَةٍ رَهِيبَةٍ مِنْ شِدَّةِ الخَوْفِ، وَكَانُوا يَسْقُطُونَ وَيَقُومُونَ، وَهَكَذَا حَتَّى اخْتَفَوْا فِي الصَّحْرَاءِ الوَاسِعَةِ وَابْتَلَعَهُمُ الظَّلَامُ.

***

دَخَلَتْ كَالِيسَا وَصَالِحٌ إِلَى المَعْبَدِ، وَهُوَ يَضْحَكُ عَلَى الحَرَسِ، وَسَارَا بَيْنَ أَعْمِدَةِ المَعْبَدِ فِي طَرِيقٍ مُبَلَّطٍ بِالحَجَرِ، وَدَخَلُوا مِنْ مَمَرٍّ إِلَى آخَرَ وَسْطَ إِضَاءَةٍ خَافِتَةٍ، إِلَى أَنْ وَقَفَتْ كَالِيسَا أَمَامَ صَخْرَةٍ كَبِيرَةٍ دَاخِلَ بَهْوٍ عِمْلَاقٍ وَقَالَتْ: هَذَا هُوَ البَابُ، وَمِنْ هُنَا يَجِبُ أَنْ نَدْخُلَ إِلَى المَقْبَرَةِ.

فَقَالَ صَالِحٌ: وَلَكِنْ هَذَا لَيْسَ بِبَابٍ، إِنَّهُ حَائِطٌ صَخْرِيٌّ، وَأَنَا أَرَى أَنَّ هُنَاكَ فِي الجِهَاتِ المُقَابِلَةِ، وَالطَّرِيقِ الَّذِي سِرْنَا فِيهِ، مَجْمُوعَةً مِنَ الأَبْوَابِ.

فَكَانَ رَدُّهَا: كُلُّ هَذِهِ الأَبْوَابِ لِتَضْلِيلِ لُصُوصِ المَقَابِرِ، وَلَكِنْ هَذَا هُوَ البَابُ الحَقِيقِيُّ، وَلَمْ يَكْتَشِفْ رِجَالُ الآثَارِ بَعْدُ أَنَّ هَذَا هُوَ بَابُ المَقْبَرَةِ الحَقِيقِيُّ.

فَرَدَّ صَالِحٌ: وَلَكِنْ كَيْفَ نُحَرِّكُ هَذِهِ الصَّخْرَةَ حَتَّى نَفْتَحَ البَابَ؟ إِنَّهَا مِثْلُ حِجَارَةِ الأَهْرَامِ.

ضَحِكَتْ وَقَالَتْ: سَتَرَى الآنَ.

وَقَفَتْ كَالِيسَا أَمَامَ الحَائِطِ، وَأَشَارَتْ بِيَدِهَا إِلَى الصَّخْرَةِ، وَتَمْتَمَتْ بِبَعْضِ العِبَارَاتِ، فَانْشَقَّ الحَائِطُ وَتَحَوَّلَ إِلَى بَابٍ، فَأَخَذَتْ صَالِحًا وَخَرَجَا إِلَى خَارِجِ المَعْبَدِ خَوْفًا عَلَيْهِ مِنْ تَسَمُّمِ الهَوَاءِ الَّذِي نُسَمِّيهِ لَعْنَةَ الفَرَاعِنَةِ، وَقَالَتْ: هَيَّا يَا صَالِحُ حَتَّى يَخْرُجَ السُّمُّ وَتَنْتَهِيَ التَّفَاعُلَاتُ الكِيمْيَائِيَّةُ، وَعَلَيْكَ أَنْ تُرَاجِعَ تَعَاوِيذَ الحِمَايَةِ، لِأَنَّنَا سَنَجِدُ بِالدَّاخِلِ حُرَّاسَ المَقْبَرَةِ، وَيُمْكِنُهُمْ فِعْلُ أَيِّ شَيْءٍ لِحِمَايَةِ مَا بِالمَقْبَرَةِ، فَهَذِهِ مَهَمَّتُهُمْ. خَرَجَا إِلَى الخَارِجِ، إِلَى مَكَانِ جُلُوسِ الحَرَسِ، وَانْتَظَرَا نَقَاءَ هَوَاءِ المَقْبَرَةِ.

***

دَخَلَتْ كَالِيسَا وَصَالِحٌ إِلَى المَقْبَرَةِ، وَكَانَتْ شَدِيدَةَ الظَّلَامِ. فَأَشَارَتْ كَالِيسَا بِيَدِهَا لِلْمَقْبَرَةِ فَأَصْبَحَتِ المَقْبَرَةُ مُنِيرَةً وَكَأَنَّهَا الصُّبْحُ، وَجَاءَتْهَا الإِنَارَةُ مِنْ كَالِيسَا الَّتِي أَصْبَحَتْ تَشُعُّ نُورًا لِكُلِّ المَقْبَرَةِ، كَانَ بِالمَقْبَرَةِ تَابُوتٌا كَبِيرا فِي أَحَدِ أَرْكَانِهَا، وَمَجْمُوعَةٌ مِنَ التَّمَاثِيلِ مُنْتَشِرَةً بِالغُرْفَةِ. فَتَقَدَّمَتْ كَالِيسَا إِلَى التَّابُوتِ وَمَدَّتْ يَدَهَا وَأَزَاحَتْ غِطَاءَ التَّابُوتِ بِحَذَرٍ بَالِغٍ، وَأَشَارَتْ لِصَالِحٍ أَنْ يَظَلَّ بَعِيدًا عِنْدَ البَابِ وَلَا يَتَقَدَّمَ الآنَ.

وَقَالَتْ لَهُ: كُنْ جَاهِزًا بِالتَّعَاوِيذِ، وَاقْرَأِ القُرْآنَ وَأَنْتَ وَاقِفٌ، اقْرَأْ آيَاتِ الحِمَايَةِ وَالتَّحْصِينِ.

فَبَدَأَ يَقْرَأُ المُعَوِّذَتَيْنِ وَكُلَّ آيَاتِ التَّحْصِينِ، وَهُوَ عِنْدَهُ خِبْرَةٌ كَبِيرَةٌ فِي هَذِهِ الأَشْيَاءِ، فَكَمْ أَحْضَرَ مِنْ جَانٍّ كَانُوا يَسْكُنُونَ البَشَرَ وَصَرَفَهُمْ جَمِيعًا بِفَضْلِ اللهِ. وَدُرْدِيَائِيلُ وَشَمْهُورُشْ وَهَيْثَمُورُ وَسَلْهُوبْ أَسَاسُ المُشْكِلَةِ.

مَدَّتْ كَالِيسَا يَدَهَا وَرَفَعَتْ غِطَاءَ التَّابُوتِ قَلِيلًا بِحَذَرٍ بَالِغٍ، وَكَانَتِ المُفَاجَأَةُ أَنْ خَرَجَ مِنْهُ تِنِّينٌ عِمْلَاقٌ، رَأْسُهُ كَرَأْسِ الشَّاةِ، وَلَهُ قَرْنَانِ كَبِيرَانِ، وَأُذُنَانِ مَرْفُوعَتَانِ إِلَى أَعْلَى، دَفَعَ التِّنِّينُ الغِطَاءَ بِقُوَّةٍ وَأَخْرَجَ فَحِيحًا صَوْتُهُ عَالٍ زَلْزَلَ المَكَانَ وَجَسَدَ صَالِحٍ، فَصَرَخَ صَالِحٌ وَتَقَهْقَرَ إِلَى الخَلْفِ، بَلْ وَسَقَطَ عَلَى ظَهْرِهِ.

فَصَاحَتْ بِهِ كَالِيسَا: قُمْ يَا صَالِحُ وَأَحْرِقْهُ بِالقُرْآنِ، اقْرَأْ عَلَيْهِ آيَاتٍ تُحْرِقُهُ، إِنَّهُ جَانٌّ شِرِّيرٌ، فَهُوَ حَارِسُ المَقْبَرَةِ، وَهُوَ لَيْسَ بِتِنِّينٍ.
قَامَ صَالِحٌ بِسُرْعَةٍ، وَأَخَذَ يَقْرَأُ التَّعَاوِيذَ الحَارِقَةَ لِلْجَانِّ، وَتَحَرَّكَ التِّنِّينُ فِي الغُرْفَةِ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ، وَذَيْلُهُ بِالتَّابُوتِ، وَيَتَحَرَّكُ بِجِسْمِهِ وَرَأْسِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَيَقْذِفُ النِّيرَانَ مِنْ فَمِهِ، مِمَّا أَصَابَ صَالِحًا بِالهَلَعِ، وَأَحَسَّ أَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ المَوْتِ شَعْرَةً، بَلْ هُوَ يَمُوتُ فِعْلًا، فَتَقَهْقَرَ خَارِجَ المَقْبَرَةِ، يَكْتَنِفُهُ رُعْبٌ قَاتِلٌ، وَأَشَارَتْ كَالِيسَا لِلْجَانِّ بِيَدِهَا وَهَدَّدَتْهُ بِصَوْتٍ عَالٍ، وَأَقْسَمَتْ عَلَيْهِ قَسَمَ سُلَيْمَانَ رَسُولِ اللهِ أَنْ يَعُودَ لِحَالَتِهِ وَيَذْهَبَ لِحَالِ سَبِيلِهِ، فَهِيَ لَا تُرِيدُ أَنْ تُؤْذِيَهُ؛ فَهَجَمَ عَلَيْهَا بِرَأْسِهِ وَهُوَ يَقْذِفُ مِنْهَا النَّارَ، وَقَدْ عَلَا صَوْتُ فَحِيحِهِ، وَرَاحَ يَدُوِي فِي المَكَانِ، وَلِصِغَرِ حَجْمِ الغُرْفَةِ خَرَجَتْ كَالِيسَا بِظَهْرِهَا خَارِجَهَا. فَصَرَخَ التِّنِّينُ صَرْخَةً عَالِيَةً زَلْزَلَتِ المَعْبَدَ كُلَّهُ، وَدَوَّى صَدَاهَا فِي قَلْبِ صَالِحٍ، وَكَادَ أَنْ يَصُمَّ أُذُنَيْهِ مِنْ قُوَّةِ الصَّوْتِ، وَبَدَأَ صَالِحٌ يُرَدِّدُ القَسَمَ السُّلَيْمَانِيَّ بِصَوْتٍ عَالٍ: (أُقْسِمْتُ عَلَيْكُمْ يَا مَعْشَرَ الجِنِّ، بِحَقِّ العَهْدِ السُّلَيْمَانِيِّ، وَبِالِاسْمِ الأَعْظَمِ المَخْزُونِ فِي عِلْمِ اللهِ، وَبِنُورِ وَجْهِ اللهِ العَظِيمِ، وَبِالعَهْدِ الَّذِي أَخَذَهُ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُودَ عَلَى الجِنِّ وَالطَّيْرِ وَالوَحْشِ وَالرِّيحِ، أَنْ تَنْصَرِفُوا خَاضِعِينَ، طَائِعِينَ، مُسَالِمِينَ، لَا تُؤْذُوا، وَلَا

تَعْصُوا، بِحَقِّ الأَسْمَاءِ الَّتِي قَامَتْ بِهَا السَّمَاوَاتُ، وَثَبَتَتْ بِهَا الأَرْضُونَ، وَجَرَتْ بِهَا البِحَارُ، وَسُيِّرَتْ بِهَا الكَوَاكِبُ، وَبِحَقِّ (طه، كهيعص، حم عسق، ق وَالقُرْآنِ المَجِيدِ)، وَبِالِاسْمِ المَخْزُونِ بَيْنَ الكَافِ وَالنُّونِ، أَنْ تَأْتُوا بِحَقِّ الحَقِّ، عَلَى عَهْدِ اللهِ وَعَهْدِ سُلَيْمَانَ، وَبِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ، لَا مَفَرَّ لَكُمْ، وَلَا مَهْرَبَ، وَلَا مَخْبَأَ، بِحَقِّ مَا أَقْسَمَ بِهِ العَارِفُونَ).

وَكَذَلِكَ كَالِيسَا رَدَّدَتْ طَلَاسِمَ خَاصَّةً بِعَالَمِهِمُ السُّفْلِيِّ، فَكَأَنَّ التِّنِّينَ حَرَكَتُهُ تَزْدَادُ حِدَّةً، وَصَوْتُهُ يَزْدَادُ ارْتِفَاعًا، وَخَرَجَ خَارِجَ الغُرْفَةِ بِرَأْسِهِ وَجَسَدِهِ إِلَى أَنْ فَجْأَةً تَحَوَّلَ إِلَى جِنِّيٍّ ذُو وَجْهٍ قَبِيحٍ، وَقَرْنَانِ كَبِيرَانِ، وَجَسَدٍ قَوِيٍّ بِعَضَلَاتٍ كَبِيرَةٍ، وَأَظَافِرَ كَأَنَّهَا سَكَاكِينُ، وَصَاحَ بِقُوَّةٍ: اخْرُجَا وَإِلَّا أَحْرَقْتُكُمَا!.

فَقَالَتْ كَالِيسَا: اخْرُجْ وَإِلَّا أَحْرَقْنَاكَ أَنْتَ!.

فَمَدَّ الجَانُّ يَدَهُ، فَأَخْرَجَ مِنْهَا أَشِعَّةً حَارِقَةً، صَدَّتْهَا كَالِيسَا بِدِرْعٍ جَاءَهَا مِنَ الهَوَاءِ فِي لَمْحِ البَصَرِ؛ فَأَطْلَقَ لِسَانَ لَهَبٍ مِنْ فَمِهِ، فَصَدَّتْهُ أَيْضًا بِالدِّرْعِ بِخِفَّةٍ؛ وَأَخْرَجَتْ قِلَادَةً مِنْ مَلَابِسِهَا، وَوَجَّهَتْهَا لِلْجَانِّ، فَخَرَجَ مِنْهَا أَشِعَّةٌ حَارِقَةٌ، وَصَاحَتْ:- رَدِّدِ القَسَمَ السُّلَيْمَانِيَّ يَا صَالِحُ مَرَّةً ثَانِيَةً.

فَأَخَذَ يُرَدِّدُ القَسَمَ وَتَعَاوِيذَ كَثِيرَةً، وَيَرْسُمُ أَخْتَامًا فِي الهَوَاءِ، وَكَالِيسَا تَتَمْتِمُ أَيْضًا، حَتَّى صَاحَ الجَانُّ: كَفَى! كَفَى!. وَاخْتَفَى مِنَ المَكَانِ.

فَقَفَزَ صَالِحٌ مِنَ الفَرَحَةِ، وَجَلَسَ بِجِوَارِ الحَائِطِ مِنْ فَرْطِ تَعَبِهِ، وَهُوَ لَا يُصَدِّقُ مَا يَحْدُثُ.

فَنَظَرَتْ إِلَيْهِ وَقَالَتْ لَهُ: لَابُدَّ أَنْ تَكُونَ أَقْوَى مِنْ ذَلِكَ، فَمَاذَا سَتَفْعَلُ فِي رِحْلَتِنَا القَادِمَةِ فِي عَالَمِنَا وَكُلُّهَا مِثْلُ هَذَا؟.

وَضَحِكَتْ وَقَالَتْ: هَذَا تَدْرِيبٌ لَكَ يَا صَالِحُ، هَيَّا نَدْخُلِ الغُرْفَةَ لِنَفْتَحَ التَّابُوتَ وَنَبْحَثَ عَنِ الزِّئْبَقِ.

(٣٤)

نظرَ صالحٌ إلى كاليسا وقالَ لها: إنَّهُ لا يستطيعُ أن يجمعَ شتاتَ نفسِه بعدَ ما شاهدهُ وعاناهُ من هذا الجانِّ، وإنَّهُ قد أخافَهُ أكثرَ من الجانِّ دردیائیل الذي قام بتحضيرِه قبلَ ذلك، ولم يرَ في حياتِه مثلَ هذا التنينِ أو هذا الثعبانِ الضخم. إنَّهُ يُحسُّ أنَّهُ يعيشُ كابوسًا رهيبًا، فهو كانَ يُداوي الناسَ من مَسِّ الجانِّ، وكان يتحدَّثُ مع الجانِّ من خلالِ الناسِ فقط، فقد كان الجانُّ يتحدَّثُ على لسانِهم، وكان يُخرِجُ الجانَّ منهم ويشفيهم، لأنَّهُ كان يُهدِّدُ الجانَّ بالحَرق رغمَ أنَّهُ لم يُحرِقْ جانًّا قطُّ حتّى الآن.

فطلبتْ منه أن يقفَ ويَبدآ بفتحِ التابوتِ والبحثِ عن الزئبقِ الأحمرِ والحصولِ عليهِ والانصرافِ قبلَ أن يحلَّ الصباحُ ويأتي الحرس، لقد تخلَّصْنا من هذا الجانِّ الحارسِ للتابوت، إنَّهُ كانَ من النوعِ المؤذي، وكانَ على استعدادٍ أن يفعلَ أيَّ شيءٍ لحمايةِ مُقتنياتِ المقبرة، وقد نصرَنا اللهُ عليه؛ فهَيّا فالوقتُ مهمٌّ.

تقدَّمَتْ كاليسا وفتحتِ التابوتَ بحَذَر، وبجانبِها صالحٌ يُساعدُ ويترقَّب، أزاحتْ كاليسا الغطاءَ الحجريَّ عن التابوتِ بخِفَّةٍ وكأنَّهُ قطعةٌ من الإسفنج، تصاعدتْ رائحةٌ عتيقةٌ تقولُ إنَّها من آلافِ السنين، وتُخبِرُهم أيضًا أنَّهم أوَّلُ من لمسَ هذا الغطاءَ وأوَّلُ من

دخلَ هذا المكان، وفي الداخلِ وجدا المومياءَ ملفوفةً بلفائفِ كِتانٍ قديمة، وإلى جوارِها مجموعةٌ من التمائمِ المنقوشةِ بتعاويذَ غامضة، وأربعةُ أوانٍ كانوبيةٌ من الفخارِ تحوي بعضَ الحبوب، وعلى صدرِ المومياءِ كانَ هناكَ خنجرٌ غريبٌ، لم يكن من الذهبِ كما هو متوقَّع، بل من مادَّةٍ سوداءَ لامعةٍ كأنَّها قطعةٌ من الليلِ ذاته، وتشعرُ بقيمتِه رغمَ أنَّه لم يكن ذهبًا.

جاءَ صوتُ كاليسا هادئًا: أتريدُ هذه التماثيل؟.

قال صالح: ماذا أفعلُ بها؟ إنَّ تماثيلَ الآثارِ تُباعُ بسهولةٍ وموجودةٌ في كلِّ مكان.

قالت باسمةً: إذًا نبحثُ عن الزئبق.

وأردفتْ قائلةً: أتعرفُ يا صالح؟ بعد أقلَّ من ثلاثين عامًا سيتقاتلُ الناسُ من أجلِ تمثالٍ واحدٍ من هذه التمائمِ الصغيرة، وسعرُ الواحدِ يجعلُ الفقيرَ من أغنى الناس.

ضحكَ صالحٌ وهو لا يُصدِّقُ ما تقول، وقالَ لها: إنَّها موجودةٌ وبعضُها يُستخدمُ كطفايةِ سجائر، ولا سعرَ لها، ثمَّ أخذَ التمائمَ الأربعةَ صغيرةَ الحجمِ والخنجرَ لإعجابِه به، ووضعَها في جيوبِ الجاكت وقال: مفيش مشكلة، نشيلها ونشوف.

وانهمكا في البحثِ في كلِّ ما يُحيطُ بالمومياء، وقلَّبا المومياءَ ليعثرا على الزئبق. فوجداهُ تحتَ رقبةِ المومياءِ زجاجةً محكمةَ الإغلاقِ، تحتوي على سائلٍ أحمرَ قاتم. فصاحتْ كاليسا في سعادةٍ: هذا هو الزئبقُ الأحمر! لقد وجدناه، والكميةُ ليست صغيرة، إنَّها كبيرة، إذاً فهي مومياءُ أحدِ الملوكِ أو الكهنة.

قال صالح: إنَّ الكميةَ ليست كبيرة، إنَّها لا تتعدَّى كوبَ الشاي.

قالت: إنَّها حوالي عشرةِ سنتيمترات يا صالح، أي عشرةُ عبواتٍ، أي عشرةُ أمبولات، كلُّ عبوةٍ سنتيمترٌ واحد.

قال: أيَرضى الجانُّ بعبوةٍ واحدةٍ صغيرة؟.

قالت ضاحكةً: إنَّهُ سيكونُ سعيدًا جدًّا بها، أتعرف؟ هذه العبوةُ تستطيعُ شراءَ أكثرَ من ألفي فدَّانٍ عندكم في قريتِكم.

قال صالح: لكنَّ الأولادَ أغلى من الدنيا كلِّها. (ثمَّ ضاحكًا) ممكن الذهب فقط يأتي بشراءِ الأرض.

– هَيّا، خُذْها بيدِك أنتَ، لا ينفعُ أن آخُذَها أنا بيدي، ستَفسُد.

مدَّ يده وأخذها بحذرٍ، لأنَّه خافَ أن يكونَ على سطحِ الزجاجةِ شيءٌ، وخافَ أن تنكسرَ لأنَّها قديمةٌ جدًّا من آلافِ السنين.

نظرَ إليها في تعجُّبٍ وهو يقول: كم أنتِ غاليةٌ ومهمَّةٌ أيتها الزجاجة!.

فضحكتْ كاليسا قائلةً: هَيّا نخرُج ونعود، وفي البيتِ نقسمُ الزئبقَ إلى عبواتٍ قبلَ الرحيلِ إلى عالمِنا، وسأحضِرُ أنا الأمبولَاتِ الخاصَّةَ بذلك، والتي يُحبُّها الجان.

قال صالح: هَيّا، الحمدُ لله، وأشكُرُكِ على ما تفعلينَه معي لأجلِ الأولاد.

قالت ضاحكةً: أنتَ زوجي، أَنَسيت؟ فنحنُ مِثلكم نُقدِّسُ الحياةَ الزوجيةَ ونُقدِّسُ الزوجَ ونحترمه.

قال: هَيّا يا زوجتي.

قالت مبشِّرةً: وأبشِّرُك أنَّهُ بهذا الزئبقِ الأحمرِ سننجَحُ في رحلتِنا إلى عالمِنا، والعودةِ بالأولادِ بإذنِ الله.

خرجا من المقبرةِ، وفي يدِ صالحٍ الزجاجةُ وقد أمسكَها بحرصٍ واهتمامٍ شديد، وأعطى كاليسا التمائمَ الذهبيَّةَ والخنجرَ الأسود، فحملَتْها له، ونظرتْ إليه، وأمسكَتْ يدَهُ وقالت له: هَيّا، بسمِ الله.

فنظرَ وقال: هَيّا، بسمِ الله.

وفي ثانيةٍ كانا في غرفتهِ بالقرية، ووجدَها كما هي. نظرَ حوله وقالَ لكاليسا: كلُّ شيءٍ كما هو، والغرفةُ، ونحنُ في حاجةٍ لتناولِ وجبة، فإنّي أحسُّ بجوعٍ كبير.

فطلبتْ منه الجلوسَ وعدمَ التفكيرِ في ذلك، وقالت: ما إنْ تأخذَ حَمّامَك وتعود، ستجِدْ كلَّ شيءٍ جاهزًا.

فذهبَ وأخذَ حمَّامَهُ بعد هذا العناءِ والتعبِ الذي أدمى نفسَهُ وجسَدَهُ، وعاد ليجدَ وليمةً جاهزةً فيها ما لذَّ وطاب، وكأنَّه أحدُ ملوكِ "ألفِ ليلةٍ وليلة". فجلسَ والسعادةُ تَغمرُه، وتناولَ طعامَهُ، وقسَّمَ الزئبقَ الأحمرَ بيدِه إلى حوالي عشرةِ أمبولات.

ثم سألَها عن موعدِ سفرِهما، لأنَّه يريدُ عودةَ الأولادِ بسرعةٍ، فقد مرَّ على غيابِهما وقتٌ ليس بالصغير، والجميعُ في حُكمِ الموتِ كمدًا على الأولاد.

فقالت: الآن نذهبُ إن أردتَ.

فوافقَ وقالَ فورًا: نذهبُ، فقط أودِّعُ أخي ووالدَ صالحٍ المختفي مع ابني، وأودِّعُ بنتي، وأعودُ إليكِ لنرحل.

فردَّت باسمةً: وأنا بانتظارِك.

***

قصَّ صالحٌ على إبراهيمَ ما حدث، وأبلغهُ أنَّه مع الفجرِ سيذهبُ مع كاليسا ويُحرِّرانِ الأولاد. وأوصّاهُ على ابنتِه، فهو لا يعرفُ إن كان سيعودُ ثانيةً أم لا.

وجدَ العمدةُ أنَّ الموضوعَ دخلَ في الجدِّ، وأنَّ صالحًا سيذهبُ إلى العالمِ السُّفلي، وهذا عالمٌ اسمُهُ يُغني عنه، ودائمًا ما كانَ رمزًا للمجهولِ واللاعودة؛ فخافَ عليه لدرجةٍ أنَّه قالَ له: نحتسبُ الأولادَ عند الله، ونعيشُ من أجلِ مَن معنا من أولاد، فقد لا تعودُ يا صالح، وأحسُّ أنَّ قلبي مقبوض.

دمعتْ عينا صالحٍ وقال: لا يمكنُ أن نتركَ الأولاد، وسوف أُضحّي بنفسي من أجلِهم.

عرضَ إبراهيمُ أن يذهبَ معه ويكونا معًا كما كانا دومًا، فكان الردُّ: واحدٌ يكفي، ويَبقى الآخرُ من أجلِ العائلة.

وتعانقا وافترقا.

***

عادَ صالحٌ والدموعُ تُبلّلُ وجنتَيه من فراقِه لصديقِ عمرِه، ليسَ له في هذه الدنيا سواه، فهو صديقُه وأخوه، وهو – كما قال صالح – مَن خرجَ به من هذه الدنيا، وهو أيضًا أخو زوجتِه التي راحتْ ضحيةَ غدرِ الجان، ضحيةَ الشرِّ والأشرار الذين لم يكتفوا بما حدث، بل قاموا بخطفِ أولادِهم وفلذاتِ أكبادِهم.

فما فائدةُ الحياةِ إذن؟ فليكنِ الموتُ هو الطريقَ الوحيدَ لعودةِ الأولاد، هذا إن عادَ سالمًا من هذه الرحلة؛ رحلتِه إلى المجهول، إلى وادي الموت، إلى العالمِ السفلي.

عادَ إلى بيتِه بعد وداعِ صديقِه ليجدَ كاليسا جالسةً بانتظارِه، ولمحتْ دموعَه، فربَّتتْ على كتفِه وقالت: هَيّا لنبدأ رحلتَنا.

قال صالح: هَيّا، ويحفظُنا الله.

مدَّتْ يدَها له وقالت: هاتْ يدَك بيدي، لنتزوَّج؛ فنحن لم نتزوَّج بعد.

مدَّ يدَه بسرعةٍ ووضعَها في يدِها، وأعطتْه دبوسًا ليُخرِجَ به نقطةَ دمٍ من يدِه لتمتزجَ بنقطةِ دمٍ من يدِها، فيمتزجا معًا. وهذا هو عهدُ الزواج، عهدُ الدم.

قالت له: أنتَ الآنَ زوجي، وقد زوَّجتُك نفسي.

فقال صالح: وأنتِ زوجتي، وقد قبلتُ زواجَك.

قالت: لنجعلِ الدُّخلةَ بقصرِ أبي.

ثم أمسكتْ يدَه وقالت: هَيّا، بسمِ الله.

فانشقَّ الحائطُ عن عالمٍ جديدٍ غريب، فقال صالح: بسمِ الله.

وغابَ في الحائط.

(تمت)

صدر للمؤلف

النمرة غلط مسرحية

قلوب عامرة رواية

الغربة شعر

وكالة كوهين مسرحية

بيت اللحيوي (أحفاد برهوت) رواية

مملكة مورستان رواية

بيت اللحيوي ٢ (الجنية الساحرة) رواية

تحت الطبع:

وعدى العمر شعر